صورة العربي
في
الادب اليهودي

١٩١١ ■ ١٩٤٨



تاليف:

الدكتورة: ريزا دومب

ترجمة:

عارف توفيق عطاري

دار الجليل للنشر - عمان

مكتبة المهتدين الإسلامية



http://www.al-maktabeh.com



صورة العربي
في الأدب اليهودي

مكتبة المهتدين الإسلامية

تصميم الغلاف . الفنان عاهد حدادين

جميع الحقوق محفوظة

دار الجليل للنشر ـ عمان

ص.ب ٨٩٧٢ ـ تلفون ٦٦٧٦٢٧

الطبعة الثانية

١٩٩٠

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

http://www.al-maktabeh.com

صورة العربي
في الأدب اليهودي

١٩١١ ـ ١٩٤٨

تأليف
الدكتورة ريزا دومب

ترجمة
عارف توفيق عارف

إصدار
دار الجليل للنشر
ص.ب ٨٩٧٢ عمان ١١١٩٢ الأردن

مكتبة المهتدين الإسلامية

الاهـــــداء

الى والدي الكريمين

أهدي مساهمتي في هذا العمل

عـارف

http://www.al-maktabeh.com

مقدمة المترجم

يلاحظ المهتم بالدراسات الفلسطينية والاسرائيلية ندرة الابحاث ، المتعلقة بالجوانب الثقافية والانسانية والاجتماعية للصراع العربي الاسرائيلي ، بالمقارنة مع الابحاث المتعلقة بالجوانب السياسية والعسكرية، وإلى حد ما الاقتصادية . وهذا يعني أن الجوانب الظاهرية تحتل حيزاً أكبر من اهتمام الباحثين ، مع أنها مجرد تعبير متفجر عن تناقض ثقافي حضاري ، لا يحسم بالطرق السلمية ، التي تحسم بها المواجهة بين الثقافات المختلفة .

إن المآسي التي خلفها الصراع العربي الاسرائيلي ، والمخاطر التي ينذر بها ، والتي تتجاوز الحدود الاقليمية لمنطقة الصراع ، تشير إلى مدى عمق ذلك التناقض الثقافي الحضاري . وأعتقد أن على من يريد فهم ذلك الصراع على حقيقته ، أن يتوغل أولاً في ثقافة طرفي الصراع .

والحقيقة أن الاهتمام بأدب العدو ليس جديداً . لقد طلبت الولايات المتحدة ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، من باحثيها ، دراسة الشعب الياباني من خلال الأدب الياباني . وعلى الصعيد الاسرائيلي نلاحظ اهتماماً بالأدب العربي والثقافة العربية أكثر من الاهتمام العربي بالادب الاسرائيلي .

يعتبر الأدب من المصادر الرئيسية لدراسة الشعوب . وفي ضوء ذلك نقدم هذا الكتاب ، المترجم من الانجليزية ، لنتعرف على صورة العربي في الأدب اليهودي . إن قراءة هذا الكتاب تشير إلى أي مدى وظف الصهاينة الأدب في خدمة السياسة الصهيونية . إن تصوير العربي على النحو ، الذي نجده في هذا الكتاب ، كان بهدف تبرير الاستيلاء على أرضه وابادته ، لأن خير مبرر لابادة الشعوب ، تحقيرها . إنه المبرر الذي استخدمه كل الغزاة على مرّ التاريخ : «تخلف شعب من الشعوب يبرر غزوه» . انه المبرر الذي استخدمه النازيون عندما صنفوا شعوب العالم درجات ، وهو المبرر الذي

مكتبة المهتدين الإسلامية

استخدمه الامريكيون في ابادتهم للهنود الحمر ، والذي استخدمه الغزاة البيض في استراليا عندما أبادوا «التسمانيين» ، سكان استراليا الأصليين . وهو مبرر العنصريين في جنوب افريقيا . إنه المنطق ، الذي أدى ، ولا يزال يؤدي ، إلى كوارث ومآسٍ كثيرة .

إن الاطلاع على الأدب الصهيوني ضروري لنتعرف على أحد المصادر الثقافية التي كونت الإنسان الصهيوني ، بكل ما فيه من عنصرية وعنف ودموية وحقد وهذا الرأي تشاركنا فيه الباحثة ، مؤلفة الكتاب نفسها ، وهي يهودية اسرائيلية ، تدرس الأدب العبري المعاصر في جامعة كمبرج .

هذا وقد التزمنا بالأمانة العلمية أثناء الترجمة ، مع أن هناك كثيراً من المقولات التي نرفضها . ونحن على ثقة أن القاريء العربي قادر على اكتشافها . من تلك المقولات تبسيط الصراع العربي الاسرائيلي واعتباره مجرد سوء فهم بين شعبين ، وتكرار المقولة الصهيونية بأنه عائد إلى تزامن بين صحوتين قوميتين : عربية ويهودية .

من المغالطات التاريخية التي وردت في الكتاب اتهام العرب بذبح اليهود عام ١٩٢٩ . وقد تكررت الاشارة إلى ذلك أكثر من مرة . خلطت الكاتبة أيضاً ، وربما كان ذلك بايحاء من الروايات التي حلّلتها ، بين الدين والفولكلور والمناسبات التقليدية . على سبيل المثال اعتبرت موسم النبي موسى حجاً دينياً ، واعتبرت ما يجري فيه طقوساً تعبدية . كذلك أدرجت أعمال الدراويش في إطار الدين . والمعروف أن هناك مسافات شاسعة تفصل بين هذه وتلك .

ختاماً نأمل أن نكون قد أضفنا جديداً إلى المكتبة العربية ، والله من وراء القصد .

عارف عطاري

http://www.al-maktabeh.com

مقدمة الكاتبة

العلاقة بين العرب واليهود هي ، اليوم ، احدى الموضوعات ، التي لا تشغل فقط الشعبين المعنيين ، بل تمتد أيضاً إلى ما وراء ذلك . وإنه لأمر مرغوب فيه كثيراً اجراء الأبحاث ، التي تستهدف الوصول إلى تفاهم ما بين العرب واليهود . وإن أي خطوة ، تقود إلى هذا التفاهم ، ذات أهمية حيوية .

ومع أن اهتمامي الخاص هنا يتركز في مجال الرواية الأدبية ، التي هي قصة تخيلية ، إلا أنها مع ذلك ذات ارتباط وثيق بالحياة أو الأشخاص الحقيقيين أو الأحداث .

قد يقال ان كاتب الرواية يأخذ مادة روايته من الحياة نفسها ، ولذلك فسواء اعتبرنا الرواية انعكاساً للواقع ، أو أداة لتشكيله ، فان صلتها بالحياة ، هي من صميم طبيعتها .

كل جانب من جوانب الصراع العربي الاسرائيلي يجب أن يلقى الضوء عليه ، وبما أن الرواية هي جلاء للواقع ، فان التحليل الأدبي لموضوع الرواية قد يساعد ، إلى حدّ ما ، على فهم أفضل للوضع .

هذه الدراسة معنية بصورة العربي في أعمال نثرية عبرية مختارة . إنها دراسة لرؤية مجموعة من الكتاب ، ينتمون لمجموعة بشرية معينة ، لمجموعة بشرية أخرى ، من خلال الأعمال الأدبية لاولئك الكتاب . هذه الرؤية ، ستكون بطبيعتها ، أحادية الجانب . ومن أجل عرض صورة أكثر توازناً ، فان العوامل الاجتماعية والتاريخية تشكل جزءاً هاماً من هذه الدراسة . وقد قادني ذلك إلى اختيار هذه الأعمال التي استخدمت هنا . هناك سؤالان رئيسيان ، كانا في الذهن ، ولهما أهمية في البحث عن صورة العربي في الأدب اليهودي :

مكتبة المهتدين الإسلامية

١ ـ السؤال الأول : هل لانتماء الكتاب عقائدياً لمجموعتهم البشرية أثر في تصويرهم للعربي ؟

٢ ـ الثاني : هل هنالك أثر للموطن الأصلي للكتاب على تصويرهم للعربي؟

لكلا السؤالين أهمية خاصة لدى البحث في الأدب العبري الذي كتب في فلسطين . (كلمة فلسطين تستخدم هنا لأنها كانت تطلق على هذه المنطقة حتى عام ١٩٤٨) .

الكتاب اليهود خلال الفترة التي تغطّيها الدراسة ، ورثوا فكرة حركة التنوير التي آمنت بدور الكاتب كمعلم للمجتمع . لقد استشعروا عبء وعيهم ومسؤوليتهم الاجتماعية . وبسبب ذلك من المهم أن نعالج السؤال الأول الذي طرحناه آنفاً . في الحقيقة أن احدى المشكلات الرئيسية التي واجهت الكتاب اليهود في القرن العشرين ، هي الصراع بين هذه المسئولية الاجتماعية والاستجابة الفردية للحياة .

معظم الأعمال الأدبية للكتاب اليهود ، خلال الفترة التي تغطيها هذه الدراسة ، تعكس القيم الاشتراكية للحركة الصهيونية والحركة العمالية ، تلك القيم التي كان يشارك فيها القراء أيضاً . وهكذا فان الكتاب اليهود قد صاغوا أعمالهم من زاوية فكرية معينة . ومن هذه الزاوية قدموا رؤيتهم للواقع .

السؤال الثاني ينبع من حقيقة أن معظم الكتاب اليهود في تلك الفترة لم يولدوا في فلسطين . وقبل هجرتهم إليها كانوا قد تغذوا بمعرفة متحيزة ، ولذلك شعروا بالاحباط لدى وصولهم الى فلسطين . وقد أثر ذلك على الطريقة التي تجاوبوا بها مع محيطهم وعلى كيفية تصويرهم للواقع .

ومن أجل تصوير مدى تأثير ذلك على الكتاب في تصويرهم للعربي ، فقد أجريت مقارنة بين أولئك الكتاب الذين مرّوا بتلك التجربة ، واولئك الذين لم يمرّوا بها . ومع أن هذه الدراسة قد اختارت كاتبين فقط ممن ولدوا في فلسطين ، وسبعة ممن هاجروا إليها من أوروبا الشرقية ، وهم أشخاص ناضجون ، إلا أن ذلك يكفي من أجل تقييم نتائج ذلك على تصوير العربي ، لأن أعمال هؤلاء الكتاب كانت تمثل رؤية فئة المثقفين في «اليشوف»* .

* اليشوف كلمة عبرية أطلقت على التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين قبل قيام اسرائيل (المترجم)

http://www.al-maktabeh.com

أما الفترة الزمنية التي تغطيها هذه الدراسة فهي البدايات الأولى للعلاقة بين العرب واليهود مع نهاية القرن الماضي وحتى عام ١٩٤٨ ، الذي مثل نقطة تحول في تلك العلاقة .

أما عن أسلوب معالجة الأعمال الأدبية في هذه الدراسة فقد قسم العمل الى ثلاثة أقسام رئيسية . الأول عبارة عن خلفية تاريخية للفترة التي تغطيها الأعمال المختارة . وهذا القسم يبحث تطور الجماعة اليهودية والعربية في فلسطين ، كلٌّ على حدة ، وأسباب التوتر بينهما .

أما القسم الثاني فهو تحليل أدبي موجز يشمل عرض العقدة والشخصيات والأسلوب الأدبي والفكرة الرئيسية في الأعمال المختارة ، مما مكننا من ايضاح الفكرة الخاصة التي لا يمكن رؤيتها بمعزل عن الاطار العام لكل عمل ككل ، بل في داخل ذلك الاطار .

وفي القسم الثالث عرضت صورة العربي من أربع زوايا مختلفة : أ ـ العربي كفرد ب ـ البنية الاجتماعية العربية جـ ـ دين العرب وعاداتهم د ـ العرب في الصراع .

المعلومات التاريخية في القسم الأول مأخوذة من سيرة ذاتية كتبها أحد قادة المستوطنين اليهود ، الذي استخدمنا رواياته أيضاً لدى عرض صورة العربي . واستخدام السيرة الذاتية يتيح فرصة غير عادية لعرض الخلفية التاريخية من خلال الرواية نفسها .

وأخيراً فحتى لو لم يؤد تحليل الأعمال الأدبية وعرض صورة العربي من خلالها ، إلا إلى القاء ضوء على جانب واحد من جوانب العلاقة المعقدة بين العرب واليهود ، فان ذلك يساعد على التفاهم المرغوب فيه بينهما .

الدكتورة ريزا دومب

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الأول

التاريخ كرواية أدبية

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

المعلومات التاريخية، التي تغطي الفترة، التي ظهرت فيها الأعمال الأدبية المختارة، مأخوذة من السيرة الذاتية لـ «موشي سميلانسكي»، الذي عاش بين ١٨٧٤/٢/٢٤ - ١٩٥٣/١٠/٦. وهـو أحد قادة الاستيطان اليهودي في فلسطين، الذي كان يسمى بالعبرية «اليشوف». في كتاباته يعكس «سميلانسكي» كثيراً من مشكلات «اليشوف»، وخاصة مشكلة العلاقة بين العرب واليهود في فلسطين. وهو يؤكد على الضرورة الملحة لتبديد سوء الفهم بين الطرفين. ولهذا السبب اخترنا سيرته الذاتية لتكون نقطة البدء لدراستنا حول صورة العربي في الأدب العبري. وأكثر من ذلك فان اختيار سيرته الذاتية تتيح الفرصة للحصول على خلفية تاريخية لهذه الدراسة من رواية أدبية.

وقـد يبـدو هذا تناقضاً، لأن الرواية الأدبية تتضمن قصة خيالية، بينما يتعامل التاريخ مع حقائق الواقع. ولكن في مجال السيرة الذاتية فان عنصري الخيال والواقع يمتزجان. ومن أجل توضيح هذه الظاهرة، يجدر بنا تقديم فكرة موجزة عن السيرة الذاتية.

السيرة الذاتية هي سجل حياة الكاتب نفسه. وتعتبر اليوم أحد الأشكال المشروعة للكتابة التاريخية. ولكن، اذا نظرنا إليها كتاريخ، يجب أن تؤخذ بحذر، بسبب طابعها الذاتي. هذا ما يراه «روي باسكال» في كتابه «الحبكة والحقيقة في السيرة الذاتية». في هذا الكتاب يرى «باسكال» أن السيرة الذاتية تتضمن «تمييزاً واختياراً من تعقيدات الحياة التي لا تنتهي». هكذا فان للسيرة الذاتية حدوداً فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية. ومع أن للكـاتب الحـرية في اختيار الأحـداث التي تتعلق بغـرضه، إلا أن تخيله يظل مقيداً بالاحداث نفسها. وأكثر من ذلك، فبما أن الأحداث التي تتضمنها السيرة الذاتية لها صلة بالـواقـع الخـارجي، فان الكاتب، يجب ألا يخترع، أو، لا يستطيع أن يخترع الأحداث التي تناسبه، كما يفعل كاتب الرواية.

إن كاتب الـرواية يستطيع فصل بطلها والشخصيات الأخرى عن الواقع. أما موضوع السيرة الذاتية فيجب أن يثبت صدقه الواقعي باستمرار. طبعاً لن يكون ذلك

مكتبة المهتدين الإسلامية

الصدق هو الحقيقة المطلقة، ولكن «الحقيقة في حدود غرض معين، غرض ينبع من حياة الكاتب ويفرض نفسه عليه». يجب أن نحمل في الذهن أمراً آخر يتعلق بهذه الحقيقة. هذا الأمر هو أن كاتب السيرة الذاتية ينظر إلى الماضي من زاوية الحاضر، ويقدم الماضي مستفيداً مما يسمى «الادراك المؤخر»، أي ادراك الحادثة بعد وقوعها[1].

وهكذا فعلى الرغم من أن «سميلانسكي» في سيرته الذاتية يبذل جهداً لتقديم صورة واقعية لأشخاص حقيقيين وأحداث واقعية، إلا أن كتابته تبقى تحمل الطابع الذاتي. وأكثر من ذلك فهو يوظف تاكنيك الرواية، فيحول سيرته لشكل خاص من أشكال «السيرة الذاتية الفنية». إنه يعرض صورة للحياة كما كانت تعاش باستخدام أساليب مثل الحوار المختلق ووصف مشاعر وأحاسيس الناس في سيرته. الحقائق تتحول إلى «محاكاة للحياة الحقيقية بكل تقلباتها وتأملاتها وتغير أمزجتها، وذكرياتها وآمالها، وتطورها عبر الزمن».

من أجل أن يوجد «سميلانسكي» هذا العالم الروائي، فقد استخدم في سيرته الذاتية شخصاً ثالثاً، إذ أطلق على نفسه في تلك السيرة اسم «يهودا». وهو بذلك قد نجح في توسيع الفجوة بين ذاته وبين الحقيقة والواقع اللذين يظهران في أي عمل فني. من الواضح أن هذه المناورة الأدبية تهدف إلى ادعاء الموضوعية لسيرته الذاتية التي تتكون من ستة فصول. وهكذا فان هذه السيرة هي مزيج من العناصر الروائية والتاريخية.

وعلى أية حال فان العناصر الروائية لا تقلل بالضرورة من صدق الأحداث الواقعية التي تسجلها السيرة الذاتية. لذلك فمن الجائز استخدامها من أجل الدراسة التاريخية للفترة موضع الدراسة.

ولكن بما أن وجهة نظره ستكون بطبيعتها جزئية ومتحيزة، فسوف نلجأ إلى دعم الشهادة التاريخية من مصادر أخرى متنوعة. سوف نقابل عرضه للأحداث في سيرته الذاتية بالحقائق التاريخية، وبهذا نقدم صورة متوازنة.

١ ـ الادراك المؤخر hindsight .

http://www.al-maktabeh.com

وقد استبعدنا أعمال «سميلانسكي» الاخرى، على الرغم من احتوائها لعناصر سيرة ذاتية. وعلى أية حال، فبما أن هذه الكتابات تتعلق بنفس الفترة، التي تتعلق بها سيرته الذاتية، فهي غير ضرورية.

وبما أن االمصادر المستخدمة مكتوبة بالعبرية، فمن الطبيعي أن نبدأ بتطور الجماعة اليهودية، ثم ننتقل للسكان العرب.

المجلد الأول من «السيرة الذاتية» لـ «سميلانسكي» هو «في حقول اكرانيا». وهو يتكلم عن طفولته إلى أن وصل سن الخامسة عشرة، عندما غادر إلى فلسطين بمباركة صهره وصديق العائلة «تيموكين»، الذي أوصاه «كن قوياً شجاعاً».

الفصل الأول من المجلد الثاني يبدأ بوصوله الى يافا عام ١٨٩١، وهو يحمل عنوان: «في البدء». ومن هذا الفصل سوف نبدأ دراستنا التاريخية.

من ذلك الوقت فصاعداً، ومن تتبع «يهودا» سوف يكون باستطاعتنا تعقب المشكلات العامة في «اليشوف»، الذي واجهه «سميلانسكي»، بكل تفصيلاتها وخصائصها. وبما أننا معنيون هنا باستخلاص المعلومات التاريخية، فسوف نستخدم الاسم الحقيقي للكاتب. سوف يحل «سميلانسكي» محل «يهودا»، فيما عدا الاقتباسات من النص العبري، حيث سيظهر «يهودا» ثانية. المشكلات التي ستبرز هي أجزاء أساسية ومتكاملة من بنية معقدة قام عليها العمل. سوف نتعامل معها هنا ثم نزيدها ايضاحاً كلما تقدمنا نحو الأعمال الروائية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

التحرر من الوهم :

الاحباط الأول الذي واجه «سميلانسكي» لدى وصوله إلى فلسطين كان التناقض الحاد بين تصوره العقائدي المسبق لأرض التوراة، والواقع الذي اكتشفه من النظرة الأولى لميناء يافا القذر:

«شعر الفتى بالصدمة لما رآه وسمعه. ظهرت ملامح الاحباط المرير على وجهه. لم يكن ذلك بالتأكيد ما تخيله من قبل لأرض أجداده». (في السهل ص ١١). هذا الاحباط المرير الذي شعر به «سميلانسكي» شاركه فيه كثير من «الهالوتزيم»*. وقد عبر عنه كتاب مثل «م. سولومون» و«آحاد هاعام» و«برينر» و«تسما» وكثيرون غيرهم، لدى وصولهم الى ارض احلامهم. وكما أشير إليه في المقدمة فان هذه المواجهة الأولى مع الأرض قد تركت أثراً عميقاً على اولئك الكتاب، كما أثرت على الطريقة التي صوروا بها ما يحيط بهم. لذلك يبدو مهمًا أن ننظر بسرعة الى ردود فعلهم. كثير منهم واجهوا احباطهم برفض مواجهة الواقع، وبدلا من ذلك حاولوا تنظيره. لقد لخص «عجنون» ذلك بقوله:

«كل الكتاب من أرض اسرائيل من أيام الرابي «زئيف يابيتز» إلى أيام «موشي سميلانسكي»، وصفوا الأرض لا كما كانت، بل كما كانوا يتمنون أن تكون».

لعدة أجيال، كانت الأساطير والروايات حول «أرتزاسرائيل*»، التي وصلت الى جمهور القراء اليهود في عدة أماكن، قد كتبت من قبل الرحالة الذين كان هدفهم المحدد اثارة الحب والتقدير لأرض صهيون. إذا لم يتحرك قراؤهم بما فيه الكفاية للذهاب والعيش في الارض، فعلى الاقل يجب أن يكونوا قد استثيروا لتقديم الاموال اللازمة لدعم اولئك الذين يعيشون هناك. وهكذا كان أدب الرحلات ذاك مصممًا للتأكيد لا على أن الارض المقدسة هي الارض التي وعد بها الشعب اليهودي وحسب، بل أرض تحقيق ذلك الوعد

* كلمة عبرية أطلقت على من سمتهم الصهيونية «الرواد» اليهود الذين هاجروا مبكراً الى فلسطين. (المترجم)

* تعبير عبري معناه أرض أسرائيل.

http://www.al-maktabeh.com

أيضاً، وهي تحتوي على خصائص عجيبة وفريدة. بهذه الدوافع خلق الكتاب فجوة كبيرة بين الحقيقة والخيال الأدبي. وعندما بدأت الصحافة العلمانية في القدس، بدأ الكتاب الجدد يقدمون صورة أكثر واقعية لفلسطين. ولكن هذه المنشورات لم تكن في البداية توزع على نطاق واسع، ولم تكن تصل معظم المهاجرين المحتملين، الذين كانوا لا يزالون يتغذون بالاحلام التي أدت بهم إلى الاحباط الكبير. لقد عبر «أكافيا» بطل رواية «قصة أكافيا» للكاتب «ي. بيرلا»، عن عمق احباطه بقوله:

«في اليوم التالي، عندما كان يتمشى حول القدس، المدينة القديمة، ويتسكع في أسواقها وشوارعها، يدخل ويخرج من الكنس ودور الدراسة، كان قلبه ينوح داخله. لم يكن ذلك ما تخيله عن «صهيون»، المدينة المقدسة. فمنذ طفولته وحتى اليوم الذي سبق وصوله أرض القدس، كان يعتقد دائمًا أنه سيرى مناظر رائعة وعظيمة في هذه المدينة، المدينة المختارة. كان يعلم في الحقيقة أن القدس كانت أنقاضاً، وأن الوجود المقدس كان لا يزال في المنفى، ولكنه كان يتخيل أن الانقاض نفسها ستكون رائعة» (ص ١٩٠).

كان من مصادر الاحباط أن كثيراً من القادمين الجدد كانوا يتصورون أن يروا منظراً يتمشى مع ما ألفوه في بلادهم الأصلية. ولذلك لدى وصولهم قاموا بمقارنات لم تكن دائمًا في جانب المكان الذي قدموا اليه. هذا ما يلخصه «لازار» صديق «سميلانسكي» الحميم، عندما رأى لأول مرة نهر الاردن ووجده مجرد وشل (مجرى هزيل). تبددت أوهام «سميلانسكي» أيضاً عندما رأى الناس الذين يعيشون في الارض. بعد أن كانت توقعاته العاطفية قد وصلت الذروة، قبل زيارته للقدس، شعر بالرعب عندما دخل المدينة ورأى الفقر والقذارة التي يعيش فيها اليهود الارثوذكس. لم يكن بامكانه ربط هؤلاء الناس بالأبطال القدماء من مملكة يهودا التوراتية. لقد كره تسولهم. وعندما وقف أمام حائط المبكى، وهو ما تبقى من الهيكل الثاني، فصل بينهما المتسولون، واختنقت عاطفته.

من الجدير بالانتباه ملاحظة التشابه بين هذه الانطباعات وانطباعات «أحاد هاعام»، فيلسوف الصهيونية الكبير، والصديق الشخصي لـ «سميلانسكي»، والتي يشير اليها في رثائه الطويل له:

«في البداية، بالطبع اتخذت طريقي نحو الحائط. هناك وجدت كثيراً من إخوتنا،

مكتبة المهتدين الإسلامية

سكـان القـدس، يقفون ويصلون بأعلى أصواتهم. كانت وجوههم المنهكة واشاراتهم المنفرة وملابسهم الغريبة، جزءاً من المنظر المخيف للحائط نفسه. عندما نظرت اليهم وإلى الحائط سيطرت على قلبي فكرة واحدة: هذه الحجارة شاهدة على تدمير أرضنا، وهذه الوجوه شاهدة على تدمير شعبنا». (حقيقة من فلسطين ص ٣٠).

قرر «سميلانسكي» الذهاب إلى «ريشون ليتزيون» للحصول على خبرة عملية في الزراعة. كان معجباً تماماً بالمستوطنين الأوائل من الهجرة الاولى، الذين قدموا بين عامي ١٨٨٢ ـ ١٩٠٣. حتى قبل أن يأتي هو نفسه، كان على وعي بحقيقة أن عدد الذين ظلوا في فلسـطين لم يكن كبيراً. معظمهم لم يكن باستطاعته مواجهة صعوبات الحياة الجديدة، ولذلك استسلموا مرغمين. عام ١٨٨١ كان اليهود لا يشكلون أكثر من ٦٪ من مجموع السكان.

لم تكن دوافع الذين أتوا من اوروبا الشرقية في تلك الفترة، والذين سموا أنفسهم «بيلوييم»*، الصلاة في الاماكن المقدسة وحسب أو الدفن في أرض الأجداد، كما كان الحال حتى عام ١٨٨٢، بل كان دافعهم العمل في الارض واحياء الحياة القومية. عندما زار «سميلانسكي» مستوطنة «جديرة» استشعر روح المجد في ذلك المكان، وأشار في قصصه إلى أنها «مفعمة بالعظمة والبطولة والاخلاص». (في السهل ص ٥١).

شعر «سميلانسكي» باحباط آخر عندما وجد سكان «اليشوف» يتكلمون الروسية واليديشية، لغتي المنفى، وليس العـبرية التـوراتية التي كانت في طور الاحياء. لقـد افترض، طبقاً لتصوره العقائدي أنهم: «إذا كانوا مزارعين في أرض أجدادهم، فمن المؤكد أن تكون لغة أجدادهم هي لغتهم».

في روسيا كان «سميلانسكي» من الاتباع المخلصين لليعازر بن يهودا، أحد قادة المجموعة التي تسمى «أحباء اللسان القديم». كان هدفهم إحياء لغة التوراة لتصبح لغة الحياة اليومية. لقد رآى «سميلانسكي»، وآخرون غيره أن «الوطن القومي واللسان شقيقان».

* كلمة عبرية تشير الى حركة يهودية اتخذت هذا الاسم الذي يتكون من الاحرف الاولى للجملة التالية: «يا بيت يعقوب دعونا نتقدم للأمام». (المترجم)

http://www.al-maktabeh.com

قبل وصوله إلى فلسطين، لم يكن يعي أن أعضاء من «اليشوف» القديم يعارضون استخدام العبرية في الحياة اليومية لأن ذلك يدنس اللغة المقدسة. وعندما جاء الى «ريشون» صدم أنه حتى بين هؤلاء المستوطنين الجدد، ذوي الأفكار التقدمية، لا أحد يعرف العبرية معرفة جيدة تتيح له استخدامها في النقاش معه. وزاد من دهشته أن شخصاً واحداً في المستوطنة كان يتكلم العبرية باستمرار، في بيته وخارجه، ولكنه كان، بسبب ذلك، موضع استهزاء.

بعد ذلك حدث أن قدم أول مدرس الى مستوطنة «رحفوت». وقد صدم هذا بدوره لعدم استخدام العبرية في المدارس. وقد استطاع المدرس معالجة الوضع، بل صمم أن يخطو خطوة أبعد، لفرض النطق السفاردي لليهود الشرقيين مكان النطق الاشكنازي لليهود الاوروبيين. وقد وافق الاعضاء المتنورون والتقدميون على استخدام نطق واحد بهدف التقريب بين الاشكنازيين والسفارديم*. ولكن الاعضاء الكبار في السن من الاشكنازيين اعتبروا هذه المحاولة هرطقة، ونشب نزاع «سمم الجو وأثار عاصفة بينهم وبين الشباب في «رحفوت» الذين كانوا يوصفون بالاشرار». وقرر الكبار مغادرة المستوطنة وتأسيس مدرسة خاصة بهم، أعادوا فيها الاعتبار للغة «اليديش» كلغة تعليم، واستبعدوا المواضيع العلمانية. وهي خطوة أقرها حاخامات القدس.

لقد أصبح النزاع اللغوي، الذي انبثق من اختلاف النظرة الدينية لكل من الطرفين في «اليشوف» القديم والجديد، أحد الجوانب الرئيسية في الصراع بينهما.

اليشوف القديم والجديد :

لم يكن ذلك السبب الوحيد للخصومة بين هاتين الجماعتين حول طرق حياتهما في فلسطين. اليشوف القديم أصر على الاتباع الحرفي للديانة اليهودية، بما في ذلك ما يعرف بالسنة السبتية، التي يحرم فيها زراعة الارض. القادمون الجدد، بسبب اتجاهاتهم الليبرالية من جهة، ولأسباب اقتصادية من جهة أخرى، رأوا في زراعة الارض سبباً

* الاشكنازيم اليهود الغربيون، والسفارديم اليهود الشرقيون. (المترجم)

مكتبة المهتدين الإسلامية

للاكتفاء الذاتي، ومن المستحيل أن تترك بوراً مرة كل سبع سنوات. ويذكر «سميلانسكي» حادثة وقعت في أول سنة سبتية بعد وصوله. رفض الشباب في مستوطنة «رحفوت» الالتزام بالسنة السبتية، واعتبروا ألاّ قيمة لهذا الأمر في العصور الحديثة. ولكن كان للحاخامين سلطة اعلان المحصول مشروعاً أو حراماً، وبذلك يستطيعون التحكم في المبيعات، في عدة أوساط، على الأقل. وقد توصل الجميع الى تسوية، تم بموجبها بيع الأرض حتى عمق متر واحد لعربي. وبما أن المشتري غير يهودي، فانه يجوز له فلاحة الارض. ويذكر «سميلانسكي» كيف سخر الشباب في «رحفوت» من هذا التصرف السخيف.

كان الافتقار الى التعاون بين أعضاء اليشوف القديم موضع انتقاد ليس القادمين الجدد وحسب، بل وبعض القدامى مثل«ي. م. باينس». لقد وجه اليهم اللوم لرفضهم المشاركة في محاولات القادمين الجدد لبناء واعمار الأرض. وقد أشار الى أنهم هم في الحقيقة أول من أثار فكرة «هبات زيون» (محبة صهيون)، مع انشاء أول مستوطنة يهودية في «بتاح ـ تكفا»، فقد بدأوا وضع تلك المحبة موضع الممارسة. وقد شجع «باينس» جماعة «البيلوييم» وأصبح زعيمهم الروحي. لقد اعتبر فلاحة الأرض أمرا ذا أهمية قصوى في الطريق الى الاحياء القومي. وقد رأى في فلسطين مركزاً روحياً للشعب اليهودي في كل مكان. ولمعرفته بالصعوبات التي تواجه الرواد والمشقة التي يتحملونها، فقد توقع منهم أن يمتلئوا مثالية واخلاصاً لأرضهم. ولذلك فقد شعر بالقلق عندما حدثت هجرة مفاجئة لليهود الروس الفقراء، الذين لم يكونوا يتصفون بتلك الصفات، وقدموا فقط بوهم تحقيق حظ أوفر في بلد جديد. وقد فسر قلقه في بعض الأوساط، على أنه معارضة لفكرة اعادة استيطان اليهود في فلسطين كليا. وقد عبر عن هذا الفهم أحد

أصدقاء «سميلانسكي»:

«إننا نريد اعادة اعمار الارض، ولكن جمهور «بانيس» من السود يريدون تدميرها».

هكذا أسيء فهم «بانيس» وشبهت أراؤه بأراء اليهود الارثوذكس المتعصبين أو من يطلق عليهم «السود». والحقيقة أن «بانيس» قد أدين من اليهود الارثوذكس في القدس.

http://www.al-maktabeh.com

وبأساليب الخداع والسياسة القذرة التي استخدمتها زوجة رابي «بريسك»، صدر حظر ضده، وأدين بتهمة «الهرطقة»، ولكن أخرين دافعوا عنه ووصفوه بالواقعية، كما يوضح «سميلانسكي»:

«يجب أن نتخذ كل التحضيرات اللازمة لاستيعاب اليهود في الارض. وإذا أخفقنا في ذلك فان الكارثة التي خاف منها «بانيس» سوف **تتحقق**». (في السهل ص ٨٩).

إن ادانة «بانيس» كانت مثاراً للسخرية لأنه أراد فقط التوفيق بين أفكار «اليشوف» القديم وأفكار القادمين الجدد. وهذه الادانة تمثل تفاهة النزاع الذي شغل قادة الحركة الصهيونية.

من الصهيونية النظرية إلى الصهيونية العملية:

انتقد «أحاد هاعام» أحد قادة الحركة الصهيونية، الخصومة التي كانت موجودة بين أعضاء اليشوف، وذلك في مقالته «حقائق من فلسطين» التي كتبها اثر أول زيارة قام بها الى فلسطين. في هذا التقرير المثير للجدل، عما وجده في فلسطين، عبر «هاعام» عن صدمته لاكتشاف طبيعة هذه الخلافات في الرأي والسلوك، بين قادة اليهود. وقد أصر على الحاجة الى منظمة أكثر فعالية قائلاً «بدون قادة أكفاء وبدون جهاز ونظام، لن نحقق هدفنا. وبدلا من ايجاد جواب مناسب للمشكلة اليهودية، سوف نضيف مشكلة لليهود في بلد لم توجد فيه حتى الآن ـ في أرض أجدادنا».

أثارت مقاله «هاعام» عاصفة من السخط والاحتجاج بسبب عرضها الصريح لحقائق كريهة، وانتقادها الحاد لسياسة وأساليب القادة، كما يقول «سميلانسكي»:

«مقالة أحاد هاعام «حقائق من فلسطين» في «هاميليتز»، التي سجل فيها انطباعاته عن البلد أصبحت موضوعاً رئيسياً للجدل في الايام الاولى القليلة التي أعقبت نشرها. وقعت المقالة على كثيرين وقع الصاعقة من سماء صافية. كان اليشوف في وضع اضطراب. كان معظم المنتقدين مزارعين من المستوطنات، أو «مثاليين» شعروا أن معلمهم طعنهم في الظهر». (في السهل، ص ١٥٦ ـ ١٥٧).

مكتبة المهتدين الإسلامية

بعد وفاة «هاعام»، اكتشف «سميلانسكي»، مدى الألم الذي كان يحس به وهو يكتب كل كلمة في المقالة المذكورة، ومدى الشجاعة العظيمة التي كانت مطلوبة منه ليعلن اقتناعه بأن «الحقيقة لا يمكن أن تؤذي، ولكن أي محاولة لتغطيتها هي التي تؤذي».

كان «سميلانسكي» نفسه يأسى كلما سمع عن أي صراعات بين أعضاءاليهود، لأن أي خلاف سيؤخر من النشاطات الايجابية والبناءة.

كان نشر تلك المقالة سببا في اعجاب «سميلانسكي» بـ«أحاد هاعام» الذي اعتبره «أعظم رجل في جيله». ونتيجة لذلك تطورت الصداقة بينهما على المستويين الفكري والشخصي. وكان «سميلانسكي» مرتاحاً لتلك الصداقة. ليس هناك توثيق معين لتلك الصداقة. وبما أن كليهما قد انخرط في الحياة العامة في ذلك الزمن، فمن المناسب هنا أن ننظر قليلاً في تلك العلاقة.

في مجموعة رسائل «أحاد هاعام» نجد أن عشرين منها موجهة إلى «سميلانسكي» وهي تتعلق بقضايا شخصية وعامة. لقد أيد مكافحة «سميلانسكي» ضد الفساد البيروقراطي لجمعيات «روتشيلد» الخيرية. وقد اعتبر مقالات ورسائل «سميلانسكي» ذات أهمية كبرى في تطور «اليشوف» معتبراً إياه «الرجل الوحيد الذي يورد الاحداث كما هي في الواقع». وقد طلب «سميلانسكي» نصيحة «هاعام» حول كتاباته، واستشاره في القضايا التي كانت تقلقه مثل «المشكلة العربية». واعترف «سميلانسكي» بالنهوض الروحي العظيم الذي استمده من صداقته لـ «هاعام»:

«لولا الدعم المعنوي الذي منحه إياه «أحاد هاعام» في ذلك الوقت لأدّت به مشاكله إلى الارتباك» (في ظلال بيارات البرتقال ـ ص ٢٧). وبنفس الطريقة فقد شعر «هاعام» بالارتياح لأن يفضي إلى «سميلانسكي» بأسراره وهمومه الخاصة، مثل «الحادث الفظيع» المتمثل في زواج ابنته من أحد «الاغراب»، وهو أمر لم يقبله. في رسالة الى «سميلانسكي» عبر «هاعام» عن حزنه قائلاً «سوف لن تكون سعيدة بقية حياتها».

http://www.al-maktabeh.com

وخلال أيام «هاعام» الاخيرة، ألغى «سميلانسكي» جميع ارتباطاته ولازم صديقه وهو يحتضر، بحب ووفاء عظيمين:

«خلال أيام مرضه الاخيرة، ألغى «يهودا»واهمل كل أعماله، وجلس ساعات إلى جوار صديقه وهو يحتضر. كان يرفع جسمه النحيف الضعيف من سرير لآخر كما لو كان يرفع طفلاً. حمل النعش على كتفيه إلى خارج البيت ولم يتخل عن رفعه الى أن وصل المقبرة. الضوء الذي أنار ليهودا الدرب مدة ٤٠ عاماً انطفأ الآن، الى الابد. ولعدة أيام بقي ينوح» (البناء والهدم ص ٨١).

ربما يكون مهمًا أيضاً أن نضيف أن «أحاد هاعام» كان مؤسس جمعية سرية سميت «أبناء موسى». وقد اعتبر أعضاؤها صفات موسى الواردة في التوراة نموذجاً للقائد المثالي. وقد حاولوا النهوض بحركة محبة صهيون من المستوى المنخفض الذي تردت اليه. وقد اقتصرت عضوية الجمعية على الاشخاص ذوي الصفات المعنوية المرتفعة والاخلاص لفكرة الاحياء القومي للشعب اليهودي، وهي الفكرة التي رأى «هاعام» أنها لن تتحقق قبل أجيال من الجهود المكثفة التي لا تتوقف. بعد تفكك الجمعية انضم كثير من أعضائها للمنظمة الصهيونية العالمية التي أنشأها «هرتزل».

كان «هرتزل» مثل «أحاد هاعام» قد رأى في عودة اليهود الى العمل اليدوي، والى الزراعة بشكل خاص، شرطاً أولياً للخلاص القومي. ولكن الأولويات عنده كانت تختلف. رأى «هرتزل» أنه يجب أولاً ايجاد حلّ قومي للشعب اليهودي، وتحقيق اعتراف عالمي بهم كأمة. لذلك عارض هجرة أو استيطان اليهود في فلسطين قبل الحصول على ميثاق من السلطان عبد الحميد يمنحهم بموجبه حقاً رسمياً للذهاب والعيش في فلسطين. ولكن «هاعام» كان ينتقد سعي «هرتزل» للحصول أولاً على حل سياسي للمشكلة. وكانت غالبية «اليشوف» في حيرة من أمرها بسبب هذا الاختلاف.

شعر «سميلانسكي» بخيبة أمل من اتجاه هذا القائد الصهيوني الجديد، واتفق مع القائلين بخطئه وسوء حساباته. ورغم أنه كان مجذوباً الى شخصية «هرتزل»، الا أنه ظل مقتنعاً أن «العقل شيء والمشاعر شيء آخر» ولذلك لم يشأ أن يسمح لمشاعره أن تسيطر على عقله.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الرواد :

منذ وصوله الى فلسطين غمر «سميلانسكي» نفسه بالعمل الزراعي تماماً. وقد استبعد أي نشاط لا يرتبط مباشرة بالزراعة. وعلى سبيل المثال رفض المشاركة في احتفالات وضع حجر الاساس لـ «نيس تزيونا» وبقي متفرجاً. لقد اعتبر ذلك اقترافا لذنب يستوجب التكفير لأنه يضيع عمل يوم كامل.

وقد تعلم بسرعة اتقان عملية الحرث وزراعة كروم العنب والعناية بها. وهكذا حقق رغبة أي رائد، بأن يساهم بعمل يديه في النهوض بصهيون. لم تردعه ظروف الحياة البدائية ولا التعب ولا الجوع، الذي عانى الرواد منه. «كان العمل مكافأته». كانت تلك هي الروح الحقيقية للريادة، التي رأت في اعادة تأهيل اليهود في أرضهم التاريخية الأولوية الاولى في صراعهم من أجل البقاء. كانت الحياة والعمل في فلسطين هما كل الغاية من وجودهم. وذلك كان موقف «سميلانسكي».

قرر «سميلانسكي» أن يترك «ريشون» ليساهم في تأسيس مستوطنة جديدة، أعجب بها نظراً لجدتها وطابعها الريادي. اشترى أرضاً «في السهل»، وانتقل الى «الهداراه» مع أعضاء آخرين من أسرته ممن لحقوا به في فلسطين. جميعهم عانوا من الصعوبات التي واجهت الرواد.

وقد صدر قانون تركي يطلب ترخيصاً خاصاً لكل بناء. وكان على المستوطنين الأوائل في «الهداراه» أن يعيشوا إما في المباني العربية القائمة أو في الخيام. عندما قرر «سميلانسكي» تحدي القانون واقامة بناء بلا ترخيص.أمر الحاكم التركي لبلدة قيسارية المجاورة بهدم البناء. هذا بدوره شجع العرب المجاورين على التآمر ضد المستوطنين اليهود وغزو متاجرهم ومهاجمتهم في الطرق النائية.

وبما أن «الهداراه» بعيدة عن يافا، فقد أصبحت عملية نقل الامدادات، التي كانت تأتي من يافا، محفوفة بالمخاطر. وكان لا بد من حماية المستوطنة الجديدة. ويؤكد «سميلانسكي» أن الروح العالية والاخلاص اللذين تميز بهما اليهود قد ساعداهم على

http://www.al-maktabeh.com

المضي في طريقهم. كانت هناك مشكلة أسوأ في انتظارهم، بسبب المستنقعات الكثيرة في المنطقة فقد هاجم البعوض الحامل للملاريا المستوطنين الجدد. وقد مات كثير منهم لعدم توفر العناية الطبية اللازمة، وأجبر آخرون على المغادرة كما فعل «سميلانسكي» نفسه وشقيقته. هناك وصف تفصيلي لأول هجوم لهذا المرض على «سميلانسكي»، وهو مرض عانى منه معظم المستوطنين مرة أو أكثر:

«في احدى الليالي استيقظ مرتعشاً، وأسنانه تصطك ببعضها. تناوبته الحرارة والبرودة حتى حطمته. في البداية كان يشتعل من رأسه حتى أخمص قدمه، ثم تملكته برودة حادة، أقوى من الاولى. لقد عصرت جسمه بكامله. وعندما كان لا يزال يرتجف من البرد داهمته موجة أخرى من الحر الشديد. كان الوضع يبدو وكأن مطرقة تهبط على رأسه على فترات متقطعة. أحس بوجهه وكأنه يشتعل، وكأن عينيه قد برزت من محجريهما، وأن لسانه قد التصق بحنكه وجف. وسرعان ما هاجمته حالة من الغثيان، وكأن فمه قد امتلأ بالقاذورات». (في السهل ص ١٧٥).

أضف إلى ذلك كارثة «الكوليرا» التي امتدت من سوريا حتى فلسطين، إضافة أيضاً الى خسارة العائلة لما لها، مما أدى بهم الى مغادرة وطنهم، لفترة في البداية ثم عادوا إلى «ريشون». كل تلك المصاعب التي واجهها «سميلانسكي» وأسرته هي نموذج لما واجهه معظم المهاجرين الجدد.

الحصول على الأرض:

خسرت أسرة «سميلانسكي»، التي كانت قد اودعت أموالها لدى لجنة «أوديسيا»، عندما كان صديقه «تيومكين» رئيساً لها. كان الهدف الرئيسي لهذه اللجنة تقديم الدعم المالي للمستوطنات اليهودية، ومساعدة القادمين الجدد على ايجاد عمل. ولكن «تيومكين» استغل هذه الأموال في شراء وبيع الأرض، وعمل وسيطاً بين المضاربين والمشترين في محاولة منه لضبط ارتفاع الأسعار. وقد وصف «سميلانسكي» سوق بيع الأرض بقوله:

«كان مكاناً لالتقاء البائعين المحتملين، والبعثات التي تمثل روابط ما وراء البحار، واليهود العاديين الذين كانوا مهتمين بشراء الارض، والبائعين، من العرب واليهود،

مكتبة المهتدين الإسلامية

والمضاربين من يافا وحيفا وصفد وطبريا. كان هناك عرب يلبسون كاليهود، ويهود يلبسون كالعرب، وكلهم يأملون ألا يتعرف عليهم منافسوهم. كل هؤلاء الناس: بائعين ومشترين، كانوا يجوبون كل زاوية من زوايا البلاد من الشمال الى الجنوب. ومن الجنوب الى الشمال. وأحياناً تتم الصفقات هنا». (في السهل ص ١٢٨).

أقنع «تيومكين» المشترين المحتملين بايداع أموالهم لدى اللجنة التنفيذية لـ «اوديسا»، وعيّن «ي. هانكين»، الذي كانت له علاقات وثيقة مع العرب، وكيلاً وحيداً لشراء الارض، بهدف ازالة التنافس. أعطى «تيومكين» المالكين العرب مبالغ كبيرة من النقود «عربوناً» للأرض التي كان يخطط لشرائها ثم بيعها ثانية. وكان يأمل بوصول عدد كبير من المهاجرين من روسيا كنتيجة لطرد اليهود من موسكو عام ١٨٩١. وكان يأمل أن يبيع لهؤلاء قطعاً من الأرض. ولكن الحكومة التركية منعت المهاجرين اليهود ـ الروس من دخول فلسطين، ومنع بيع أي قطعة أرض لهم. كان احباط هذه الخطة الضربة الأخيرة التي أدت إلى افلاس لجنة «اوديسا» وافلاس كل من أودع ماله لديها. وكان من هؤلاء «سميلانسكي» وأسرته، الذين عادوا الى «ريشون»، حيث واجهوا هناك فساد المسؤولين الذين كانوا يديرون مؤسسات البارون «روتشيلد».

مؤسسات «روتشيلد» الخيرية :

قام المصرفي اليهودي الفرنسي البارون «ادموند جيمس دي روتشيلد» (١٨٤٥ ـ ١٩٣٤) بدور فعال في تأسيس المستوطنات اليهودية في فلسطين. وقد موّل ونظم عملية الاشراف على كروم العنب، وأنشأ مخازن كبيرة للخمور في «ريشون ليتزيون» و«زهرون ياكوف». وقد أنقذت مساهماته المستوطنات من كارثة مالية، إلا أن الأساليب الادارية التي استخدمها كانت لها آثار عكسية. معظم الاداريين اعتبروا المستوطنات هدفاً بحد ذاته لمؤسسات «روتشيلد». لم يهتموا بأفكار المستوطنين، ولذلك قاموا بنشاطاتهم ووزعوا المساعدات المالية حسب حجم العائلات. مثل هذا النظام هدد مثالية المستوطنين، وانتزع منهم المبادرة وفرض عليهم التبعية. وكانت النتيجة نزاعاً مستمراً بين المستوطنين والاداريين.

http://www.al-maktabeh.com

انزعج «سميلانسكي» وشقيقته من هذا الوضع بين المستوطنين ومن لامبالاتهم ازاءه، وحاولوا استثارتهم بتنظيم حركة معارضة ضد المسئولين. وأخيراً قرر «سميلانسكي» الاستيطان في «رحفوت» حيث رأى الناس هناك كعائلة واحدة كبيرة تربطهم مصالح مشتركة. كان اقتصاد هذه المستوطنة قائمًا كلياً على كروم العنب. كل طاقة السكان، وكل الأموال التي في حوزتهم كانت تستثمر في تلك الكروم، وكذلك كل آمالهم تركزت فيها. وبالرغم من رغبتهم في الاعتماد على الذات وبيع منتجاتهم في مكان آخر إلا أنهم أخفقوا في العثور على مشترين آخرين، وأجبروا على قبول عرض البارون بشراء العنب. أثناء زيارته لفلسطين كشف «احاد هاعام» لـ«سميلانسكي» الحقيقة المرة وهي أن البارون قد دعم السعر لعدة سنوات:

«عاد يهودا إلى حجرته وكأنه يمشي نائمًا. وطيلة الوقت عذبته فكرة مخيفة ومزقت شرايين قلبه: وهكذا كل تلك السنوات، ومنذ بدأت كرومي انتاج ثمارها الاولى، وأنا أعيش على الدعم». (في السهل ص ٢١٩).

النزاع في القيادة الصهيونية:

لم ير «سميلانسكي» مستقبلاً مشرقاً لكروم العنب، ولذلك قرر اتخاذ خطوة جريئة. استثمر كل ما يملك في زراعة الحمضيات، التي رأى فيها مستقبل المزارعين في «رحفوت». وبالرغم من حماسه للبدء في هذا المشروع الجديد المثير، إلا أنه أجله بسبب إصابته بالتهاب الزائدة الدودية. ولعدم وجود عيادات جراحة مناسبة في فلسطين في ذلك الوقت، لم يكن باستطاعته اجراء العملية، إلا أنه تحسن في النهاية. ثم انتخب بعد ذلك ممثلا للجنة «رحفوت» في المؤتمر الصهيوني العالمي السابع في «بازل» عام ١٩٠٥. واستغل الفرصة وأجريت له العملية في سويسرا.

كان «هرتزل» هو من نظم المؤتمر الصهيوني الأول، الذي عقد برئاسته في آب (أغسطس) عام ١٨٩٧، والذي حدد برنامج المنظمة الصهيونية العالمية كما يلي:

«إن هدف الصهيونية ايجاد وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام». ومن أجل تحقيق هذا الهدف، تبنى المؤتمر الوسائل التالية:

١ ـ التطوير المنظم للمستوطنات في فلسطين ودعمها بالمزارعين اليهود والحرفيين والفنيين.

مكتبة المهتدين الإسلامية

٢ ـ تنظيم جميع اليهود في العالم في مؤسسات محلية وعامة، بما لا يتعارض مع القوانين المحلية.

٣ ـ تعزيز الشعور اليهودي والوعي القومي.

٤ ـ اتخاذ الخطوات التمهيدية لأنشاء بعض الأجهزة الحكومية الضرورية لتحقيق هدف الصهيونية.

كان أمام المؤتمر الصهيوني السابع عرض «اوغندا» كوطن يهودي قومي بديل. وانقسمت الوفود الى معسكرين إزاء هذه القضية. كان «سميلانسكي» من بين اولئك الذين عارضوا الفكرة. وقد استاء من تفاهة المناقشات، ليقينه من أن هذا النزاع بين قادة الصهيونية لا يفضي إلا إلى الضرر. وقد حلّت المشكلة بخروج مؤيدي اقتراح «اوغندا» من المؤتمر. وكان تعليق «سميلانسكي»: «بالرغم من الانقسام سلمت صهيون».

حضر «سميلانسكي» كذلك المؤتمر التاسع، الذي عقد في هامبورغ. ومرة ثانية اكتأب من روح المناقشات. لم تكن مشاكل «اليشوف» تهم الوفود. وكان معظم الوقت يقضى في الأمور الشخصية وليس العقائدية.

حاول «سميلانسكي» هجر الحياة العامة، واغراق نفسه في إطار العمل، «ولكنه لم يجد ملجأ. لاحقته القضايا المثيرة للجدل وتغلبت عليه».

«لم تجذبه يوماً القضايا العامة. كان يحب مزرعته ونباتاته ومكتبه. وما كان انخراطه في الحياة العامة إلا بدافع عاطفي مشبع بمشاعر النفور». (في ظلال بيارات الحمضيات ص ٥٧).

كانت صديقته، روث، التي تزوجها فيما بعد، بعد وفاة زوجها الأول، تعتقد أنه يخدع نفسه إذا ظن أنه لا يحب الانخراط في الحياة العامة. وقد ركز على الكتابة، وكتب في «هاشيلواح» التي كان يحررها «ي. كلاوسنر»، و«موليديت» وهي مجلة شهرية للصغار، و«هااومر»، التي عمل سكرتيراً لتحريرها أيضاً.

عام ١٩٠٧ صدرت صحيفة جديدة باسم «هابوعيل هاتسعير» (العامل الصغير). وكتب فيها عدة مقالات ومذكرات وقصص. كان يكره صحف القدس التي

http://www.al-maktabeh.com

لم تكن في رأيه ذات مستوى عال، كما كانت متحيزة ضد «اليشوف» الجديد. وعلى الرغم من أن «هابوعيل هاتسعير» كانت الناطقة بلسان حزب العمل، الذي تحمل اسمه، إلا انها جذبت كثيراً من المثقفين من «اليشوف» ممن هم خارج الحزب. كانت «هابوعيل هاتسعير» تعارض كل أشكال حرب الطبقات، وتكره الشعارات العمالية، بعكس «بوعالي تسيون» (عمال صهيون) وهي ناطقة أخرى بلسان عمال «اليشوف». وقد اتحد الفرعان في النهاية ليشكلا «حزب عمال فلسطين»، الذي عرف باسم «الماباي» فيما بعد.

سرّ «سميلانسكي» لرؤيته الاحزاب العمالية وقد اتحدت في منظمة اقتصادية واحدة هي «الهستدروت»، إلا أنه قرر البقاء خارجها، لأنه لا يريد الانخراط في السياسة. واختار بدلاً من ذلك تكريس كل طاقته «لاتحاد مزارعي فلسطين».

كان «سميلانسكي» قد لاحظ تآكل الوعي الاشتراكي للمزارعين خلال السنوات الطويلة من ادارة «روتشيلد»، والتي انتهت بايجاد نظرة أنانية بينهم، جعلت الأفراد يضعون مصالحهم الخاصة فوق مصلحة الجماعة ككل. وكان هدفه قلب هذا الاتجاه.

عام ١٩١٩ أسس مع «ت. ز. ميلر» صحيفة الاتحاد الاسبوعية «بستاني»، وظل، لعشر سنوات، محررها السياسي، وظل يكتب فيها مقالة أسبوعية، وقصصاً ومذكرات. وتوقفت الصحيفة مع بدء الحرب العالمية الثانية.

الأحداث التي قادت الى انشاء دولة اسرائيل:

أدت الحركة الثورية في روسيا القيصرية والمذابح التي أعقبتها في عامي ١٩٠٤ - ١٩٠٥ الى ما يعرف بالهجرة الثانية، التي استمرت حتى عام ١٩١٤. كان المهاجرون هذه المرة أعضاء من كل من حركة «هابوعيل هاتسعير» التي أنشئت عام ١٩٠٥، و«بوعالي تسيون». وقد سعى هؤلاء الى مزج الصهيونية السياسية بالصراع الطبقي للبروليتاريا اليهودية، وتحقيق الاهداف الاشتراكية التي فشلوا في تحقيقها في روسيا. وقد رأوا أن طريق تحقيق هذه الأهداف بالنسبة لليهود الذين قدموا الى فلسطين، الانخراط في العمل الزراعي واليدوي. وقد طلبوا ممن سبقهم من المستوطنين توظيفهم بدلاً من العمالة العربية غير المنظمة والرخيصة الاجر.

مكتبة المهتدين الإسلامية

وعندما واجهوا معارضة بدأوا بشن حملة «فتح العمل» و«العمل اليهودي الخالص» الذي أصبح عقيدة لهم. ومع أن «سميلانسكي» كان يؤيد هذه الهجرة، إلا أنه كان ضد هذه السياسة التي تبناها المهاجرون الجدد، لأنه كان يعتقد أن الزراعة يجب أن تقوم على العمل المشترك. وقد أدرك مدى خطورة تجاهل وجود وحاجات العرب، لأن ذلك سيثير توترات عربية يهودية. ولكن، معارضيه اتهموه، في المقابل، بأنه يسعى الى تحقيق مصالح شخصية من العمل الرخيص على حساب المصالح الصهيونية البعيدة المدى.

وفي هذه الاثناء أدى انفجار الحرب العالمية، الاولى الى تغيير الارضية السياسية لمشكلة العلاقات العربية اليهودية كلياً. كان على سوريا وفلسطين توفير الجنود للجيش التركي الرابع المرابط هناك. وفرضت ضريبة خاصة للحرب، وصادرت الحكومة العربات والطعام وكل مصدر آخر ضروري للحرب. وتم تجنيد كل مواطن عثماني بين سن ٢١ ـ ٤٥. وكان بامكان من يزيد عمره عن ٢٤ أن يتخلص من الخدمة العسكرية بدفع فدية مالية. وقد قام من يملك ارضاً برهن أرضه أو ممتلكاته أو الاقتراض، لدفع تلك الفدية وتجنب التجنيد. وفي ١٩١٤/١٠/١٧ جمع موظفو الاحصاء الاتراك في يافا جميع اليهود غير العثمانيين، ورحلوهم الى الاسكندرية على متن سفينة ايطالية. وقد جاء ذلك عقب الغاء الحكومة التركية، في مطلع اكتوبر عام ١٩١٤، نظام الحماية الذي كان يتمتع به القناصل الاجانب في الامبراطورية العثمانية، والذي كان يطبق على المهاجرين. وقد أدى ترحيل سبعمائة شخص على ظهر السفينة الى هجرة جماعية لليهود من جميع فلسطين.

كان الرجل المسئول عن ذلك هو جمال باشا، قائد الجيش التركي الرابع، الذي اشتهر بقسوته. وقد اعتقل أيضاً ٣٢ من ممثلي «اليشوف» لعدة أيام في القدس، ثم أمرهم بمغادرة البلاد. وقد وجه اليهم عدة اتهامات منها: احتفاظ اليهود بمؤسساتهم المستقلة، وأن معظمهم كانوا لا يزالون يحملون جنسيات أخرى، وأنهم لم يكونوا يمثلون أمام المحاكم التركية، وأن لهم أعلامهم الخاصة، وطوابعهم وعدة رموز وطنية أخرى. وفوق ذلك فقد طردوا العرب من أرضهم وأعمالهم، ولم يحترموا كرامة السلطات التركية، ولم يتعلموا التركية، وأن أولادهم ينشأون على روح وطنية يهودية معادية لتركيا. كان الاتراك حريصين على اخماد أي تطلع وطني، وقد أدى ذلك الى معاناة اليهود في فلسطين.

http://www.al-maktabeh.com

إضافة الى ذلك فان الجماعة اليهودية، التي كانت تعتمد على المعونات المقدمة من الخارج، عانت من انقطاع الاتصال مع الجماعات الاخرى. وقد تسبب ذلك في خسارة كبيرة للمزارعين وزاد «الفقر في اليشوف وأفلست خزائن المستوطنات». في ربيع عام ١٩١٥ تعرضت البلاد لكارثة الجراد الذي دمر محصول ذلك العام بأكمله، بما في ذلك بالطبع بيارة حمضيات «سميلانسكي»، فسادت حالة من التدهور الاقتصادي ونقص الطعام والطوارىء. ويقول «سميلانسكي» ان «اليشوف بدأ يختنق تدريجياً» وأن يهود القدس الذين كانوا يعتمدون على المعونات من الخارج، عانوا اكثر. لقد صدمه فقرهم وحرمانهم.

عندما نشبت الحرب كان على الحركة الصهيونية ان تقرر موقفها من القوى الكبرى. وخلال مؤتمر عقده المجلس العام للمنظمة الصهيونية العالمية في «كوبنهاغن» من ٣ ـ ٦ ديسمبر ١٩١٤، اتخذ المجلس قرارا باتباع سياسة حيادية. وكان هذا المجلس منتخباً من المؤتمر الصهيوني، ليشرف ويقدم المشورة للجنة التنفيذية الصهيونية. يذكر «آي. فريدمان» في كتابه عن تلك الفترة من التاريخ اليهودي ان التمسك بالحياد في الحقيقة كان صعبا جدا في تلك الظروف. ولكن كان الهدف من الحياد الاحتفاظ بمقار الحركة الصهيونية في برلين، من جهة، ومتابعة التحرك الدبلوماسي في دول الحلفاء، من جهة اخرى. في نهاية عام ١٩١٤ ارسل «ناحوم سوكولوف» و«يهييل تشيلناو»، وكلاهما عضوان في اللجنةالتنفيذية، الى انجلترا لاجراء اتصالات هناك. ومع تطور الحرب، اصبح من الواضح ان الحلفاء سينتصرون، وبالتالي لم يعد الحياد في مصلحة الحركة الصهيونية. لم يعد متوقعاً استمرار تركيا، التي كانت تتآكل من الداخل والخارج. هذا ما رآه «سميلانسكي» بوضوح «مهما كان الرداء الذي ترتديه تركيا فسوف تدمرنا، لانها تتآكل من الداخل بفعل الفساد» (في ظلال بيارات الحمضيات ص١٦٠).

اقتنع الدكتور حاييم وايزمان (١٨٧٤ ـ ١٩٥٢)، اول رئيس لدولة اسرائيل وصديق «سميلانسكي» بأن تركيا سوف تخسر فلسطين. وفوق ذلك، كما يشير فريدمان، فقد اصبح واضحاً ان الحكومة الالمانية لن تذهب في تأييدها لليهود اكثر من «الاحسان السلبي» لطموحاتهم الصهيونية. وقد استطاع وايزمان وزملاؤه الحصول على وعد بلفور من الحكومة البريطانية في الثاني من تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩١٧، الذي جاء فيه«أن الحكومةالبريطانية تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين».

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت دوافع بريطانيا سياسية وعقائدية واقتصادية. ولقد فتح الوعد فصلاً جديدا في التاريخ اليهودي، لانه اعترف رسميا بالشعب اليهودي ككيان تاريخي قائم لاول مرة منذ طرد اليهود من فلسطين على يد الرومان عام ٧٠ بعد الميلاد.

وقد دعا «فلاديمير جابوتنسكي» (١٨٨٠ ـ ١٩٤٠)، وهو احد قادة الصهيونية الى انشاء فيلق يهودي كجزء من الجيش البريطاني، وذلك بهدف تقديم تعبير طبيعي للقومية اليهودية، التي ستركز انتباه العالم على الحركة الصهيونية، وسيعود بالفائدة عليها في مفاوضات السلام عندما تنتهي الحرب.

كان اليشوف منقسمًا على نفسه ازاء هذه القضية. وقد عارضها حزب «هابوعيل هاتسعير» لانه كان مهتمًا بشكل خاص بالحفاظ على سلامة المستوطنات اليهودية في فلسطين، وكان الحزب قد أسس في عام ١٩٠٩ منظمة دفاعية سميت «هاشومير»، التي توصلت الى اتفاقيات مع عدة مستوطنات في الجليل الادنى للقيام بحماية ممتلكاتهم ضد اللصوص العرب مقابل رسوم سنوية. كان هدف هاشومير حماية ارواح وممتلكات المستوطنين، وفرض احترام اليهود على العرب، وفي نفس الوقت اقامة علاقات صداقة معهم وتعلم لغتهم وعاداتهم. وقد ادعت هاشومير حق حماية المستوطنات اليهودية لنفسها، وهو الحق الذي انكرته عليها المستوطنات القديمة في يهودا، واجبرت اعضاءها على الانسحاب. ومع ذلك ففي ظروف انعدام الامن في ظل الحكم العثماني، ادت هاشومير خدمة اساسية لليشوف الجديد.

دهش «سميلانسكي» لمعارضة «هابوعيل هاتسعير» لتشكيل الفيلق اليهودي. وقد اعلن بنفسه تأييده الكامل وحماسه للمشروع، وكان واحدا من اول عشرة سجلوا انفسهم للالتحاق به، رغم انه كان في الرابعة والاربعين من العمر. وعندما ارسل المتطوعون في النهاية الى مصر للالتحاق بالجيش البريطاني هناك، شعر سميلانسكي انها واحدة من اكثر لحظات حياته العاطفية:

http://www.al-maktabeh.com

«شعور عميق كالمحيط، عريض كالكون يأتي لانسان ويمسك به مرة في العمر، وربما مرة فقط في جيل. في قلب كل يهودي كان هذا الشعور خامداً لعدة قرون، الى ان انفجر فجأة وكشف عن نفسه» .(في ظلال بيارات الحمضيات ص٢٢٤).

من الطريف ان نلاحظ ان آراء ابن اخيه كانت معارضة تماماً لآرائه، بخصوص هذه المسألة. وقد كتب «زئيف سميلانسكي»، الذي كان عضواً في «هابوعيل هاتسعير»، في واحدة من رسائله:

«انني في حالة اكتئاب شديد، طيلة حياتي وأنا احب السلام والهدوء. والآن وقد وقع كل اصدقائي ومعارفي، الذين كانوا يفكرون مثلي ويحسون نفس احساسي، فريسة لسحر الروح العسكرية، فانني احس بقدر كبير من الوحدة والحرمان، وبأنه لم يعد لي مكان في ارض اسرائيل، افضل المغادرة الى سويسرا او اي مكان خال من السيوف البراقة والاحذية الضخمة».

بعد عام من الخدمة في الجيش البريطاني، سرح سميلانسكي من الخدمة بناء على طلبه، بسبب مرض زوجته، وعاد الى «رحوفوت». عاد الى الحياة المدنية، التي يصفها في الفصل الخامس من سيرته الذاتية، بأنها انتقال من الحياةالشخصية الى الحياة العامة.

لم يعد سميلانسكي بعد الآن فلاحاً بسيطاً كما كان يفضل ان يصف نفسه، بل شخصية عامة تنخرط في كل القضايا العامة التي تهم اليشوف. لهذا السبب كتب قليلا عن نفسه وتجاربه الخاصة في آخر مجلدين من سيرته الذاتية، بينما كتب فقرات ادبية طويلة عن القضايا العامة.

من الجدير بالملاحظة ايضا انه لم يستطع الاستمرار في التخفي وراء اسم «يهودا» في هذين الفصلين، بل صار يخلط بين الكتابة بصيغة الغائب وصيغة المتكلم، واحياناً بصيغة الراوي، كما كان يأخذ احياناً دور الشخصية الرئيسية.

لم تهتز قناعة «سميلانسكي» يوماً بأن تحرر اليهود مرتبط بعودتهم الى ارضهم واستغلالها:

«يجب ان تظل الزراعة اساس الاستيطان في هذا البلد، ليس فقط الاساس الاقتصادي، بل والفكري والثقافي ايضا. بالخبز الذي يصنعه الشعب نفسه يمكن وضع اساس الاستقلال الاقتصادي ومن ثم الاستقلال السياسي. ان العودة الى صهيون لم تكن لتخليص الشعب من قيود المنفى وحسب، بل ولتخليصه من الترحال المخزي الذي

مكتبة المهتدين الإسلامية

ميز حياة المنفى. وهذا يمكن تحقيقه فقط بالعودة الى فلاحة الارض (البناء والهدم ص٢٧).

كرّس «سميلانسكي» وقتاً كبيراً لشراء الارض للمستثمرين من القطاع الخاص، لانه كان يعارض سياسة الحركة الصهيونية بامتلاك الارض لحساب الصندوق القومي اليهودي للشعب اليهودي ككل. كان مهتمًا بالاستيطان في النقب بشكل خاص، وقد استجاب لدعوة «هانكين» بتوفير الاموال اللازمة من الخارج لشراء الاراضي في النقب. ولكن بسبب الحرب الايطالية في الحبشة لم يتوفر قدر كبير من المال، وانهار المشروع. ولكن الصندوق القومي اليهودي تبنى دعوة «هانكين» وبدأ الاستيطان في النقب.

عام ١٩١٥ عندما بدأ الحلفاء يخططون لتقسيم الامبراطورية العثمانية بعد انتهاء الحرب، طالبت فرنسا ان تكون سوريا، بما فيها شمال فلسطين، من نصيبها، بينما يكون نصيب بريطانيا الجزء الجنوبي منها، وعام ١٩١٩ وطبقا لنظام الانتداب الذي اقرته عصبة الامم، كلفت بريطانيا بالانتداب على فلسطين، وعين هربرت صموئيل، الذي بذل جهوداً كبيرة لدى مجلس الوزراء البريطاني لاستصدار وعد بلفور، اول مندوب سام في فلسطين. وقد شمل الانتداب البريطاني المنطقة التي كانت قد اقيمت فيها المستوطنات اليهودية بالفعل. وقد اعتقد سميلانسكي ان صموئيل كيهودي وصهيوني سوف يسعى لجعل اليهود اكثرية في فلسطين.

بين عامي ١٩١٩-١٩٢٣ كانت الهجرة اليهودية الثالثة الى فلسطين. عام ١٩٢٠ انشىء جيش «الهاغاناه» لحماية اليهود وممتلكاتهم، خاصة وان الامتعاض العربي والهجمات العربية ضد اليهود قد تزايدت. وقد تنامى العداء العربي عاماً بعد عام ضد الانتداب البريطاني واليهود معاً، حتى وصل ذروته في الثلاثينات، وبالذات بين عامي ١٩٣٦/ - ١٩٣٩، عندما ادت الاحداث في المانيا الى زيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين، ومنذ ذلك الوقت تعقدت العلاقة بين العرب واليهود حتى وصلت اوجها بقيام اسرائيل عام ١٩٤٨ وقيام اول حرب عربية اسرائيلية شاملة.

http://www.al-maktabeh.com

المجلد الاخير من سيرة سميلانسكي تتعلق بما يسميه بالمشكلة المؤلمة، وبالذات بكيفية التعامل مع العرب. وفيه ايضا كتب عن رحلته الى الولايات المتحدة لجمع الاموال لشراء الارض، الامر الذي اصبح ملحاً مع تدفق المهاجرين من المانيا.

فيما يتعلق بالمشكلة العربية نلاحظ ان سميلانسكي يبذل جهودا كبيرة لفهم العقلية العربية، وللتقريب بين العرب واليهود. انه يسعى بشغف لتسوية مقبولة، الى طريق قد يقود الى السلام بين الشعبين. ويختتم سيرته بصرخة، هي صدى لقصيدة «حاييم نحمان بيالك» الشهيرة، التي كتبها عقب مذابح «كيشينيف»:

لترحم السماء شعبنا اسرائيل
وليحل السلام في ارضنا

مكتبة المهتدين الإسلامية

أثارت اول مواجهة لـ«سميلانسكي» مع العرب في نفسه اسئلة كثيرة حاول فيما بعد الاجابة عليها. عندما رأى العرب لاول مرة على الطريق بين «يافا» و«ريشون»، لم يكن مستريحاً لذلك، بل تملكه شعور بالغضب، دهش لرؤيتهم هناك «ماذا يفعل هؤلاء العرب هنا؟ لماذا هم فقراء على هذا النحو وسخون رغم ان الارض من حولهم جيدة خصبة»؟ ومثل كثير من المهاجرين اليهود الى فلسطين كان يتخيل ان الارض لم تكن مسكونة، ولذلك شعر بالدهشة ليجد ان هناك اناساً يعيشون فيها.

ســـوء فهـــم:

كان أحد أسباب تخلف القرية العربية النظام القانوني المعقد للحكومة العثمانية التي حكمت المنطقة منذ عام ١٥١٧. ذلك النظام ركز ملكية الارض في يد قلة من الاغنياء المتنفذين. كان هناك ثلاثة اسباب رئيسية:

١ ـ قانون ١٨٦٠ الذي صادر الاراضي الحكومية من المزارعين المستأجرين الذين لم يستغلوها لمدة ثلاث سنوات متعاقبة*. وقد ادى ذلك الى حرمان كثير من هؤلاء من الارض، التي باعتها الحكومة الى الاغنياء الذين اجروها بدورهم الى المزارعين.

٢ ـ عام ١٨٥٨ صدر قانون لالزام المزارعين بتسجيل ارضهم رسميا وبسبب التكاليف المرتفعة للتسجيل، وخوف الفلاحين من ان يكون قصد الحكومة ان تفرض عليهم ضرائب باهظة، فقد سعى معظم الفلاحين لتسجيل ارضهم باسم الاغنياء، الذين استغلوا الوضع لصالحهم.

٣ ـ الضرائب الباهظة التي فرضت على الفلاحين مثل دفع عشر المحصول، والضرائب على الارض نفسها والحيوانات والابنية والطرقات، اضطرت الفلاحين الى

* هذا القانون تستخدمه اسرائيل لمصادرة الارض العربية حاليا (المترجم)

http://www.al-maktabeh.com

الاقتراض من الاغنياء، وأوقعتهم في دين من الصعب الفكاك منه. وهذا اجبر الفلاحين في النهاية على تسليم ارضهم للاغنياء، ثم استئجارها منهم مقابل دفع الاجرة او جزء من المحصول.

لم يدرك الفلاحون مدى عجزهم الا عندما صار اليهود يشترون الارض، فوجدوا انفسهم امام مشكلة اخرى. وقد كتب «افراهام مويل» وهو من مواليد فلسطين وعلى دراية بها، الى الدكتور «بنسكر» يقول:

«... ولكن الآن، عندما يرى الفلاحون ان اخوتنا ينوون العمل في الارض بأنفسهم، وانه لم يعد بامكانهم استئجارها، مهما دفعوا في سبيل ذلك، فسوف يقاتلوننا، اذ كيف سيحصلون على لقمة خبزهم؟ لذلك ليس غريباً ان يضع الفلاحون العوائق في طريق تقدم الموشاف، على امل ان يفقد المستوطنون صبرهم، ويبحثوا عن مكان آخر».

يتكلم «سميلانسكي» عن هذا الموضوع حين وصف هجوماً عربيا على قرية «الخضيرة»:

«في تلك الليلة الطويلة المرعبة انتفض الجميع في وجههم، يريدون مسحهم عن وجه الارض، حتى لا يظلوا شوكة في جنبهم» (في السهل ص٥٣).

وفي مكان آخر وصف هجوماً على «رحفوت»، وقد سجل الحادث في مجلده الثاني «كروم يهودا». وقد تحدث عن انقسام القبيلة العربية التي اقيمت «رحفوت» على ارضها، الى قسمين: قسم قبل بالمستوطنين اليهود الجدد، وآخر قرر ازاحتهم وذلك بتخريب مزروعاتهم.

وهكذا فان ملاك الاراضي العرب الذين باعوا ارضهم لليهود اورثوهم كل مشاكل الفلاحين، وخلقوا مشاكل جديدة.

يتحدث سميلانسكي عن حادثة اخرى في «بيرتفيا»، حيث كان الفلاحون يدعون بملكية جزء من ارض المستوطنة التي اشتراها اليهود. عندما بدأ اليهود يعملون

مكتبة المهتدين الإسلامية

في الارض هبّ الفلاحون ضدهم. وربما كان ممكناً حلّ المشكلة بدفع تعويضات ترضي العرب الغاضبين ولكن الرجل المسؤول كان غريباً: «على غير دراية بعادات البلد» ولم تسو المشكلة الا بعد عرضها على المحكمة وبعد خسارة مالية فادحة تحملها اليهود.

من أسباب النزاع بين العرب واليهود ايضا عادات الرعي العربية. كان اليهود يرفضون حقوق العرب في الرعي، يذكر «أ. كوهين» ان بعض المستوطنين اليهود كانوا يمنعون العرب من رعى اغنامهم على حدود المستوطنات، حيث كانوا يعتادون ذلك قبل بدء الاستيطان اليهودي، بل وحتى في المراعي التي كان يعتبرها العرب منحة الهية مباحة للجميع. هذا الانتهاك لما يعتبره العرب حقاً قديمًا مقدساً ادى الى صدامات عنيفة دموية.

فهم «سميلانسكي» نفسه اهمية العادات بالنسبة للعرب، ولذلك كان يحترم عاداتهم ويتسلح بالصبر في مفاوضتهم. وفي كثير من المناسبات، ومهما كانت القضايا ملحة، كان يضبط نفسه وينتظر الفرصة المناسبة. مرة عندما زار مع صديقه الحميم، اليعازر، بعض البدو في النقب، سرّ مضيفهم البدوي من اليعازر لانه جلس على الارض حسب العادات البدوية، ورفض الجلوس على كرسي بلا ظهر، قدمه له البدوي المضيف. وبسبب ذلك اصبح اليعازر صديقاً للبدوي.

هذا الحادث علم سميلانسكي ضرورة ان يدرس العادات العربية. يؤكد الكاتب اليهودي «مـاياهو» المولود في القدس، ايضا على ضرورة اقامة علاقات بين الشعبين، وعلى ضرورة فهم اليهود للعادات العربية، وقد جاء ذلك في مقدمة كتابه الوثائقي الذي يقارن فيه بين حياة الفلاحين واليهود في عصور التوراة والتلمود:

«إذا أردت ان تعرف العرب فتعلم اساطيرهم وطريقة حياتهم، لانها شبيهة جداً بطريقة حياة اليهود القدامى، وبهذه المعرفة تصبح قريباً منهم ويصبحون قريبين منك».

http://www.al-maktabeh.com

يذهب سميلانسكي الى ابعد من ذلك عندما يؤكد على ان المهم ليس فقط معرفة العرب بل واحترام عاداتهم ايضا، كما فعل اليعازر، اذا اردت كسب ثقتهم. ويعترف سميلانسكي ان العادات والتقاليد تحكم النسيج الداخلي للمجتمع العربي.

وجد «الحالوتزيم» (الرواد) صعوبة في سبر غور الشخصية العربية. ويعبر سميلانسكي عن حيرته بقوله:

«انهم بدائيون. عندما يكونون على الارض فهم سعداء وفي سلام، ولكنهم اذا وقفوا كانوا مجرمين. انهم على استعداد ليتقاسموا رغيف الخبز مع الجائع، ولكنهم على استعداد ايضا لارتكاب جريمة في سبيل الحصول على شيء يريدونه ولا يستطيعون دفع ثمنه» (في السهل ص**٣٩**).

يصف احد اصدقاء سميلانسكي العرب بأنهم لا يقلون قسوة عن الصخور. ويتكلم مستوطن من «هاديرا» عن بدائيتهم وقسوتهم وسرعة تهيجهم فيقول:

«انهم ليسوا شريرين، ولكنهم بدائيون سريعو التهيج، تسهل اثارتهم. وهم فقراء ايضا، وعلى استعداد لارتكاب جريمة من اجل رغيف خبز». (في السهل ص**١٣٩**).

يرى سميلانسكي ان على اليهود ان يقبلوا السلوك الاجتماعي والعاطفي للعرب من اجل كسب صداقتهم. ويرى ان على اليهود المبادرة الى ذلك، حتى يكسبوا تجاوب العرب.

ان سوء الفهم الذي نتج عن الافتقار الى لغة مشتركة بين الطرفين، كان عائقاً آخر لنمو العلاقات الجيدة بينهما.

بعد ان قدم الى «رحفوت» بوقت قصير علم سميلانسكي بحظر فرضه المستوطنون على العمل العربي، نتيجة لشجار مع العرب. ولاستيائه من هذا الحظر اخذ يتقصى الاسباب، وصدم عندما وجد ان السبب يعود لسوء تفاهم ناتج عن عدم فهم كل من الطرفين للغة الآخر. وقد شكل على الفور لجنة للتفاوض مع العرب، ولم يمر وقت طويل حتى تم التفاهم بين الطرفين.

مكتبة المهتدين الإسلامية

يسجل سميلانسكي حادثة اخرى عندما قرر طبيب يهودي في «رحفوت» اجراء عملية لفتاة عربية دون استشارة اهلها اولا. ولم يكن على علم بالتقاليد العربية بل ولا باللغة العربية. وقد توفيت الفتاة بسبب العملية، وبالكاد استطاع الطبيب ان ينجو من انتقام الاب.

البـــناء الاجتمـــــاعي:

البـدو هم العـرب الـرحـل الـذين يتنقلون في الصحـراء. ويعتـبرون العرب الحقيقيين، بينما الفلاحون وسكان المدن امتزجت دماؤهم بعناصر غير عربية. هذا ما قاله احد شيوخ البدو لـ«سميلانسكي». وقد حافظت القبائل العربية على نقائها رغم آلاف السنين من الحروب والهجرة من شبه الجزيرة العربية، وهم فخورون باتباع تقاليد اسلافهم:

«نحن عرب نتبع اوامر اسلافنا «لا تسكنوا البيوت المبنية من حجر لان اساساتها تؤذي باطن الارض، اسكنوا الخيام التي تحيكها نساؤكم من شعور الابل. لا تزرعوا شجـراً في ارضكم، حتى لا تحجب وجه الارض المقدسة عن اعينكم. سوف تطول ايامكم على الارض التي وهبها الله لكم، اذا زرعتموها بالحب فقط، الذي تصنعون منه الخبـز، واذا تغذت جمالكم ومواشيكم، التي تعيش معكم، على العشب». يجب أن نحافظ على كلمة اسلافنا ونلتزم بها الى الابد» (في كروم يهودا ص١٤٧).

تتحدد طريقة عيش البدو بضرورة العثور على العشب الذي تتغذى عليه جمالهم. ولأن الصحـراء قاحلة فعلى البدو أن يتنقلوا من مكان لآخر للعثور على العشب. في الربيع يمكن العثور عليه في سهوب الصحراء، ولكن في الصيف يرتحلون الى الوديان حيث ينبت العشب والشجيرات. وفي الخريف ينتقلون بقوافلهم الى مقربة من القرى والمدن حيث يتاجرون ويحصلون على المؤن، وفي الشتاء يعودون الى الصحراء للبحث عن العشب الذي ينبت مع نزول الامطار.

هذه الحياة البدوية صعبة، ولكنها تمنح البدو حرية من القيود التي كان يمكن ان تفرض عليهم من الحكومة المركزية او تفرضها عليهم مقتضيات الاستقرار، الذي

http://www.al-maktabeh.com

يعتبرونه عبئاً. هذه الحياة استولت على خيال اليهود القادمين من اوروبا. لقد اعتبروا البدو غير الملوثين بالحضارة الاوروبية، نسخة عن اجدادهم، يهود التوراة. يتحدث سميلانسكي عن شعور «ابشالوم فينبرغ»، من قدامى المهاجرين، تجاه البدو فيقول: «لقد جذبه سحر حياتهم الوحشية، وسرعان ما قفز الى ذهنه صورة اجداده الاسرائيليين القدامى» (في ظلال بيارات الحمضيات ص١٩٧).

تقوم الحياة البدوية على العلاقات العشائرية، والعائلة الممتدة والمجتمع الابوي. ومجموع العائلات التي ترتبط ببعضها منذ خمسة او سبعة اجيال تسمى «حامولة». والحامولة ترتحل وتخيم مع بعضها، وترتبط مع بعضها في دفع الدية. ومجموع الحمائل تشكل عشيرة. واحياناً تضم العشائر غرباء من الآبقين والهاربين من قبائل اخرى. وتمتلك العشيرة مساحة معينة من الارض. ويوضح سميلانسكي ان الملكية تستند الى تراث شفوي ينتقل عبر الاجيال من الاب للابن ومن شيخ لآخر. ولان هذا النظام يفتقر الى الدقة فان السيف وحده يقر الحق.

قائد القبيلة شيخها الذي يرث ابنه القيادة منه، او يرثها عضو آخر. والشيخ يجب ان يكون غنياً ليستطيع القيام بواجبات الضيافة. وهو يستشير كبار القبيلة في قضايا الرحيل والحرب والصلح في المنازعات. ولكن رأيه في النهاية هو الذي يسود.

البدو مسلمون. ولكن عقيدتهم ليست العقيدة المقبولة في الاسلام. ويعتقد «ج. باير» ان البدو ليسوا على ألفة بعقائد واخلاق الاسلام وانهم لا يلتزمون بأوامره مثل الصلاة والصيام في رمضان والحج الى مكة. وقوانينهم ليست اسلامية ولكنها مرتكزة الى التقاليد القبلية، وتطبق تعسفيا لا قضائيا.

البناء الاجتماعي لدى الفلاحين يقوم على علاقة القرابة العائلية مثل البدو، ولكنها اقل امتدادا. ابناء الحامولة جميعاً يعيشون في قرية واحدة، ويشكلون الاطار الاجتماعي للزراعة. رؤساء الحمائل يختارون عادة من كبار السن، ولذلك لا يحتاجون الى تعيين رسمي. الفلاحون عادة مزارعون مستأجرون وليسوا ملاكاً.

مكتبة المهتدين الإسلامية

بينما احتك المستوطنون اليهود بالعرب الفلاحين منهم والبدو فانهم لم يكونوا على صلة بسكان المدن. ولذلك قلما نجد سميلانسكي يشير اليهم في سيرته الذاتية. كما انه قلما نجد اشارة لهم في كتابات غيره من معاصريه. ولذلك عندما صادفهم استغرب ان يكتشف لديهم صفات راقية، وتجاوباً مع حاجات الجيران اليهود، واستعدادا لارضائهم:

«اعتاد يهودا ان يزور اصدقاءه الفلاحين في القرى، والبدو في مضاربهم. ولكنه لم يزر بيوت الافندية. وهو لم يحبهم ولم يسع لصداقتهم. كانت عادات الضيافة لدى الفلاحين معروفة عنده، ولكنه للمرة الاولى يجرب ضيافة الاغنياء العرب، لذلك شعر كثيراً بالدهشة. لم يتخيّل أبداً أنه سيعامل بهذا الكرم» (البناء والهدم ص٣٧).

عن سكان المدن يتحدث ايضا «يهودا غراسفكي غور» وهو صديق سميلانسكي، وكاتب مثله ومؤلف قاموس، فيقول في وصفه لفلسطين عام ١٨٩٧:

«سكان المدن جميعاً مغرورون وسيئون، مراوغون ومخادعون، وهم بلا رحمة، وعلى استعداد ان يسرقوا اخوتهم اذا استطاعوا. ومن يمتلك منهم أرضاً يؤجرها للمزارعين الذين يستغلهم دون ان يجدوا من يحميهم».

كما أشرنا يعيش ملاّك الارض في المدن وليس في القرى. وهم يلعبون دورا قيادياً في النظام السياسي والخدمة المدنية.

في النظام الأبوي للمجتمع العربي تعتبر النساء أقل شأناً من الرجال في جميع مجالات الحياة. اذا ولد صبي احتفلت العائلة، بعكس ما اذا ولدت بنت. ومسموح للرجل ان يطلق امرأته اذا لم تنجب غير البنات. والنساء مضطرات لسلوك التواضع، اما الرجال فأحرار ان يفعلوا ما يشاؤون.

القانون الاسلامي يضع الرجل في مركز اعلى من المرأة ويفضله عليها، الى درجة ان كل امرأتين تساويان رجلا في معظم الحالات، كما في الميراث والادلاء بالشهادة. انه

http://www.al-maktabeh.com

يمنح الرجل حق تطليق المرأة متى شاء، برضاها او بدون رضاها. وله الحق في الزواج من اربع في نفس الوقت. ويتم تعدد الزوجات، في معظم الحالات بسبب عقم المرأة او انجابها اناثاً فقط. ولكن لدى شيوخ القبائل وزعماء القرى فالتعدد تعبير عن الثروة والمركز الاجتماعي، اما حجاب المرأة فهو عادة لم يفرضها التشريع القرآني، كما يدعي البعض، ولكن ربما كانت في الاصل للتمييز بين المرأة الحرة والامة. ولهذا السبب فان نساء الطبقات العليا يبقين في الحريم. وربما كان ذلك ايضا حتى لا تتصل المرأة بأحد من غير افراد العائلة. وهكذا منعت المرأة من اي نشاط عام علني، وهذا ما اسف له صديق سميلانسكي، اليعازر، الذي كانت تجذبه المرأة العربية، ولكنه لم يكن يرى سوى «العيون السوداء المتوهجة» تختلس النظر من جوانب الخيام:

«كانت العيون السوداء المتوهجة تختلس النظر من فتحات الخيام... وقد أسف اليعازر لان النساء لا يرقصن مع الشباب» (في كروم يهودا ص١٤٨).

يكشف سميلانسكي ايضا عن انجذابه الرومانسي للنساء العربيات، ويروي كيف وقع في حب فتاة عربية جميلة تدعى لطيفة، وقد اصيب بنوبة قلبية بفعل عيونها السوداء:

«من لم ير عيون لطيفة لا يمكنه ان يقدر كيف يكون جمال العيون. كانت عيونها السوداء تشع بالبهجة. كانت الحيوية المشتعلة تتدفق منهما كجدول». (في كروم يهودا ص٤٠).

وقد عبرت لطيفة له عن اشمئزازها من عادة تعدد الزوجات ومن اساءة معاملة المرأة العربية، وكان لديها الشجاعة لتعلن رغبتها بالزواج من سميلانسكي، ولكنها في النهاية خضعت لرأي ابيها واطاعت امره، وتزوجت الرجل الذي اختاره لها. الجدير بالملاحظة انه قبل سنوات، كان سميلانسكي قد ذكر هذه الحادثة في قصة قصيرة له، ومن المفيد دراسة التغير في اسلوب كتابته، لانه يعد تلك القصة اولى تجاربه.

مكتبة المهتدين الإسلامية

القوميـــــــــة :

مأساة العلاقات العربية اليهودية في فلسطين تعزى الى حقيقة تزامن الصحوتين القوميتين العربية واليهودية. كل منهما اراد اعادة مجد ماضيه على نفس الارض. وقد ادى الاضطهاد التركي للعرب، والاضطهاد الاوروبي لليهود الى القومية المتطرفة. يلاحظ السير «ببرلين» في كتابه «ملاحظة على القومية» ان «كلا الحركتين كانتا صرخة من أجل التحرر الفردي والقومي، كانتا رفضا لتدخل الآخرين او املائهم او سيطرتهم، وكلاهما نبع من نفس الاحساس بالكرامة الانسانية المغتصبة».

كنا قد شرحنا كيف تطورت القومية اليهودية وتجسدت في الحركة الصهيونية. والآن نشرح كيف تطورت القومية العربية.

في كتابه «الفكر العربي في عصر التحرر» يشير البرت حوراني الى انه في القرن الحالي فقط وجد من يتكلمون العربية انهم يشكلون امة، وانها يجب ان تكون مستقلة ومتحدة. هذا التطلع اكتسب قوة سياسة.

ويضيف حوراني ان العامل الرئيسي الذي دفع المسلمين العرب نحو القومية العلمانية، كان عاملاً دينياً، كان رد فعل على ادعاء الاتراك للخلافة. كان موقف العرب سلبياً ازاء خلافة الاتراك. كانوا يرون انهم احق بالخلافة لانهم ورثة الاسلام. وقد عبر عن ذلك كاتب عاش في القدس بين عامي ١٨٥٠ ـ ١٨٦٠ فقال:

«لم يستطع العرب الاقتناع بأن يكون السلطان التركي، القادم من بلاد التتر، خليفة لمحمد العربي القرشي، او ان يعين او يبدل شريف مكة».

هؤلاء العرب، كما يرون انفسهم يكرهون ويحتقرون الاتراك. وكراهيتهم قديمة تعود الى مرحلة الفتح العثماني لعربستان. ويعود العداء الى الفرق في الخلقة. وفي كون الاتراك يمثلون الغزاة الفاتحين.

http://www.al-maktabeh.com

ولكن الـولاء للاسـلام قوي ومتفوق على كل ولاء آخر. السلطان هو الخليفة حسب الامر الواقع وحسب القانون او الفقه. وطاعته لذلك تصبح امرا دينيا.

رأى المتنورون المسلمون انه بعد انهيار الدولة العثمانية يجب ان تعود الخلافة الى العرب، وان ذلك سيساعد في العودة الى النقاء الاصلي للاسلام.

كانت ثورة الشباب الاتراك التي اطاحت بالسلطان عام ١٩٠٨ تستهدف انشاء حكـومة دستورية، ولكن مع المحافظة على وحدة الدولة العثمانية، وهذا يتطلب قيام حكومة مركزية يسيطر عليها العنصر التركي، وتسودها اللغة التركية. ولم يكن الاحساس العثماني القومي المصطنع الهش كافيا لاستمرار هذه الدولة، فتحول ذلك بالتدريج الى قومية تركية. هذا الاتجاه دفع العرب الى موقع مضاد، فتبنوا مطلب الحرية والاستقلال الذاتي للعرب ومنحهم مزيدا من المشاركة في الحكومة المركزية. وطالبوا ايضا ان تصبح العربية لغة رسمية في البرلمان التركي والحكومة المحلية، وبمساواة عامة بين المسيحيين والمسلمين.

لم تكن هناك مطالبة بالاستقلال الكامل الى ان اندلعت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤، عندما تبدلت الاوضاع تماما في كل الاتجاهات. وعندما دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا، بدأت دول الحلفاء الثلاث: بريطانيا وفرنسا وروسيا تعد لاقتسام تركيا، على اعتبار ان انهيارها اصبح امرا مؤكدا.

في مايو ١٩١٦، توصل السير مارك سايكس، ممثل بريطانيا، وجورج بيكو، ممثل فرنسا، الى اتفاق سري يقضـي بتقسيم الشرق الاوسط، لم يكن يعلم بذلك الاتفاق الا قليل من الناس. حتى مفاوضات القادة الصهاينة بمن فيهم الدكتور حاييم وايزمان، مع مجلس الحرب البريطاني، كانت تتم بمعزل عن ذلك الاتفاق، تقول «فيرا وايزمان» في مذكـراتها «المستحيل يأخذ وقتاً طويلا»، انه في ابريل ١٩١٧ ذكرت «فيسوم دي كوكس» من مجلة «جورنال دي ديبيه» ذلك الاتفاق للسيد «سكوت» المحرر المشهور في ذلك الوقت في «مانشستر جارديان» وصديق مقرب للدكتور وايزمان. الا انه اما لم يصدق

مكتبة المهتدين الإسلامية

الخبر، او ربما لسبب او لآخر ابقاه طيّ الكتمان. ولم يكشف الاتفاق للعلن الا في نوفمبر عام ١٩١٧ عندما اكتشف ليون تروتسكي الوثيقة السرية جدا، وثيقة سايكس بيكو، فأعلن عنها بهدف تحطيم مصداقية الحلفاء وفضح سياستهم الامبريالية. كانت تلك الاتفاقية مناقضة مباشرة للوعد الذي منحه السير هنري مكماهون، المندوب السامي البريطاني في مصر، للشريف حسين، عام ١٩١٥. ولكن البروفسور ايلي خضوري في تحليله لاتفاقية سايكس بيكو يشير الى ان اتفاقية سايكس بيكو قد صيغت بعناية حتى لا تصطدم، بوعد بريطانيا للشريف حسين، بل لتتناسب معها. ولكن اساءة تفسير الاتفاق كانت بفعل مسؤولين تاهوا في ملفاتهم.

حددت رسالة مكماهون المنطقة التي قد تكون بريطانيا مستعدة للاعتراف بها وتأييدها كدولة عربية مستقلة، او كونفدرالية دول. ولكن يشير «خضوري» الى ان المفاوضات بين الحسين ومكماهون لم تكن دقيقة، ويمكن ان يستنتج من بدايتها الى نهايتها استنتاجات خاطئة مضللة. هذا ما وقع فيه مكتب التاريخ العربي عندما قرأ في رسالة مكماهون ٢٤/١٠/١٩١٥ التزامات اقليمية محددة لم تكن واردة. لم يكن شريف مكة على علم باتفاق سايكس بيكو. ويشير جورج انطونيوس في كتابه «يقظة العرب» الى انها نوع من«التعامل بوجهين»وانه كان«من الغباء تصوّر قيام تسويةدائمة على أساسها». يتفق «خضوري» مع هذا الرأي، ويرى ان الاتفاق كان «دليل كسل وعدم دقة المسؤولين في وزارة الخارجية »، ولكن فيما يتعلق بفلسطين يرى«خضوري»انه«سواء استطاع قادة الفلسطينيين النجاح في اثبات ان فلسطين كانت داخلة في وعد مكماهون الحسين، ام لا، فان ذلك لم يكن ليقدم او يؤخر في السياسة البريطانية تجاهها ومنحها للصهيونية».

كانت الحكومة البريطانية قد اصدرت وعد بلفور الذي هو اخطر من اتفاق سايكس بيكو فيما يتعلق بتعارضه مع التطلعات العربية للاستقلال. يشرح «انطونيوس» اسباب تأثير ذلك الاتفاق على العرب. يقول ان فلسطين هي جزء لا يتجزأ من سوريا والمنطقة العربية، ولذلك كان وجودها في المنطقة العربية المستقلة التي نص عليها اتفاق الحسين مكماهون. تحصيل حاصل. وكونها مقدسة للديانات الثلاث، وتضم المواقع الدينية لها، يعطيها طابعا خاصا، يحترمه العرب ويحمونه. ويضيف انطونيوس انه كان

http://www.al-maktabeh.com

يمكن السماح للاستيطان اليهودي بالاستمرار على اساس انساني، ولكن مع خضوعه لقيود تفرضها مصلحة البلد والحقوق السياسية والاقتصادية لشعبها. والحقيقة ان هذا كان رأي معظم الدوائر العربية.

الامير فيصل ابن شريف مكة، والذي اصبح فيما بعد ملكاً للعراق، كان يعتقد بامكانية التعاون العربي اليهودي في فلسطين. وقد وقع عام **١٩١٨** اتفاقية مع الدكتور حاييم وايزمان الذي اعطاه وعداً بأن «الصهاينة لا يسعون لاقامة حكومة يهودية في فلسطين، وان كل هدفهم المساهمة في تطوير البلد الى اقصى درجة مستطاعة، وبدون تهديد المصالح العربية المشروعة» ولكن هذا الوعد لم يخفف من معارضة العرب السوريين والفلسطينيين. وفي عام **١٩٢٢** جاء قرار عصبة الامم في «سان ريمو» بفرض الانتداب على سوريا وفلسطين، ليضع حداً لاعز اهداف العرب في الوحدة والاستقلال، وليثير استياءهم وازدراءهم للقوى الغربية التي نكثت العهود.

في تحليله للخلفية السياسية للصراع العربي الاسرائيلي، يشير «هركابي» الى ان «المطلب العربي الرئيسي هو ان تبقى فلسطين عربية، حتى ولو منح اليهود فيها وضعا معينا. المهم يجب ان تبقى فلسطين جزءاً من المنطقة العربية. في رأي العرب ان الاستيطان اليهودي في فلسطين وقيام اسرائيل، عدوان يتناقض مع حق الاكثرية العربية في تقرير المصير، وان وجود اسرائيل عمل ظالم لن يصحح الا بازالتها».

ان التسوية التي فرضت بعد الحرب العالمية الاولى على الاقطار العربية، جنباً الى جنب مع شكوك العرب بالهجرة اليهودية وشراء الارض في فلسطين، قد ادى الى لجوء العرب الى العنف. وكانت اولى اعمال العنف ضد الصهاينة عام **١٩٢٠-١٩٢١** عندما قتل «برينر» وعدد آخر من الكتاب. وفي أواخر العشرينات، أثارت السلطات الدينية الاسلامية بقيادة مفتي القدس، الحسيني، مخاوف العرب على اماكنهم المقدسة، **مما ادى** الى اضطرابات ومواجهات اخرى عام **١٩٢٩**، واستمرت الاضطرابات حتى وصلت ذروتها بين عامي **١٩٣٦ - ١٩٣٩** حين بدأ المهاجرون اليهود من المانيا **يصلون** باعداد غفيرة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

حاول البريطانيون تهدئة العرب، وكانت قمة المحاولات اصدار الكتاب الابيض عام ١٩٣٩ الذي نص على ابقاء «اليشوف» كأقلية دائمة وسط الاكثرية العربية الفلسطينية وتحديد الهجرة اليهودية بخمس وسبعين الف مهاجر في الشهور الخمسة القادمة، تتوقف بعدها، وتقييد بيع الارض لليهود. ولكن اليهود مدعومين بالهاجاناه جيشهم السري وبتأييد من يهود العالم، تجاهلوا الكتاب الابيض، وبنوا مستوطنات جديدة، وقاموا بتحصينها ضد الهجمات العربية، وذلك باقامة جدران عالية وابراج مراقبة فيها. وقد حافظوا على الاخلاق اليهودية بعدم سفك الدماء، ولكنهم دافعوا عن انفسهم بافضل ما يستطيعون. يقول سميلانسكي:

«كان مبدأ المدافعين عن «اليشوف»«اذا حاول شخص قتلك فاقتله اولا»، ولكن السماء تمنع الانزلاق الى الثأر وسفك الدماء البريئة بهدف بث الرعب. كل ذلك يعتبر ذنباً وجريمة حسب اخلاق المدافعين عن اليشوف. فقط مجموعة صغيرة من الناس اليائسين الذين يفتقرون الى الضمير الانساني والمثل اليهودية، لطخوا سمعة الهاجاناه، بارتكاب جرائم حقيرة مثل طعن الرجال في الظهر، ونصب الكمائن وقتل الابرياء» (البناء والهدم ص١٨٧).

ادى ذلك الى الانشقاق الحزبي في اليشوف والحركة الصهيونية. فقد خرج التصحيحيون بقيادة «زئيف جابوتنسكي» من الحركة الصهيونية ليشكلوا منظمة «ارغون تسفاي ليئومي» المشهورة باسم «ارغون». وقد رفضوا مبدأ ضبط النفس وتبنوا شعار «الهجوم» ولكن اثناء الحرب العالمية الثانية وافقوا جميعا على وضع خلافاتهم جانباً وعلى التعاون مع بريطانيا ضد المانيا. ولكن فئة قليلة رفضت حتى الهدنة اثناء الحرب واستمرت في هجماتها ضد البريطانيين والعرب. وهؤلاء شكلوا منظمة «شتيرن» التي اصرّت على ان عدوها هو بريطانيا التي تحتل ارضها وتمنع المهاجرين اليهود من دخولها.

عندما انتهت الحرب، ورغم ان ارغون وشتيرن، ظلتا منظمتين منفصلتين، الا انهما صعدتا من هجماتهما ضد العرب والبريطانيين. وقد رد البريطانيون باجراءات قمعية مختلفة مثل فرض حظر التجول والجلد وحتى الشنق. وفي مرحلة لاحقة اعتقل حتى قادة

http://www.al-maktabeh.com

اللجنة التنفيذية للحركة الصهيونية، وهي هيئة رسمية، رغم انها نفسها كانت ضد تجاوزات آرغون وشتيرن.

عارض سميلانسكي بشدة ما سماه استخدام القبضة واعتبر مثل هذه السياسة لا اخلاقية، واعتقد ان موقف التصحيحيين وافعالهم من شأنها ان تزيد التوترات، التى لا ضرورة لها، بين العرب واليهود.

ازدياد التوتر والبحث عن حل:

عزا سميلانسكي ازدياد حدة التوتر الى فقدان المبادأة لدى قادة الصهيونية، واتهمهم بعدم تقدير اهمية المشكلة:

«ربما كنا نحن المخطئين بعدم اختيار الطرق المناسبة والوسائل الصحيحة. لقد كانت طرقنا ووسائلنا تلقي ظلالا على دوافعنا الحقيقية، هل اصبح الوقت متأخرا جدا لتصحيح ما اعوج؟» **(في ظلال بيارات الحمضيات ص٩٦، ٩٧)**.

ولكن سميلانسكي لم يفهم ايضا لماذا اعتبر العرب اليهود غزاة اجانب. الا انه طالب بعمل ايجابي من قبل اليهود لتغيير الوضع. وهو نفسه رأى ان العرب سيستفيدون من قدوم اليهود الذين سيساعدون في احياء واعادة اعمار الارض القاحلة. وهو ما قام به فعلاً المستوطنون اليهود. ولم يفهم الصهاينة سر الرفض الذي يواجههم به العرب. ويصف «عجنون» دهشته لذلك العداء فيقول:

«لقد تلقينا هذا البلد الصغير من يد الواحد العظيم (الله)، لم نأت لفرض سيادة ولا للحكم، ولكن للحراثة والزرع والبذر، من اجل المحافظة على قوانينه وحماية تعاليمه».

تحدث هرتزل ايضا عن المنافع التي حصل عليها العرب من قدوم اليهود، كما اعترف بذلك عربي اسمه رشيد:

«لقد ازدادت ارباحنا منذ قدوم اليهود، وتضاعفت صادراتنا من البرتقال عشر مرات، لان وسائل النقل التي تربطنا بالعالم قد تحسنت. كل شيء هنا ازدادت قيمته منذ قدومكم. لقد كان قدومكم نعمة علينا» (الارض القديمة الجديدة ص١٢١-١٢٢).

مكتبة المهتدين الإسلامية

تحدث وايزمان ايضاً عن يوتوبيا فلسطينية يعيش فيها اليهود والعرب بانسجام، وقد اورد ذلك البروفسور «حاييم ابرامسكي» في كتابه: «وايزمان: نمط جديد في قيادة الحركة الصهوينية»:

«مثل كل قادة الصهيونية رأى وايزمن المسألة العربية عبر منظور لبرالي قديم، وهو منظور احسان السيد للمسود».

رأى وايزمن ان الاستيطان اليهودي في فلسطين سيحسن التطور الاقتصادي فيها، ويرفع مستوى معيشة سكانها العرب. وقاده هذا التفكير الى اعتقاد ان العرب نتيجة لذلك سيقبلون طواعية سيادة اليهود على الارض، حيث يمكن ان يتمتعوا هم بحقوق مدنية، ولكن دون ان تكون لهم قوة اتخاذ القرار في الدولة.

يعتقد جورج انطونيوس أنّ اعتبار النتائج الاقتصادية للمشروع الصهيوني منافع اعتقاد خاطىء جدا لانه «باستثناء الربح الذي حققه بعض الاغنياء من ملاك الاراضي العرب والوسطاء، فان الوضع الاقتصادي للعرب ككل وخاصة القرويين لم يطرأ عليه تغيير لا الى الاسوأ ولا الى الافضل»، وعلى العكس فان تدفق المهاجرين اليهود الى فلسطين تسبب في ارتفاع غير عادي في مستويات المعيشة.

يشير انطونيوس الى اعتقاد خاطىء آخر وهو ارجاع الثورات الفلسطينية الى اسباب تافهة مثل تحريض الافندية بينما اسبابها الحقيقية ارتباط العرب بارضهم وثقافتهم. يقول انطونيوس «لم يكن ممكناً اقامة دولة يهودية في فلسطين دون طرد عدد كبير من الفلاحين العرب الذين ابدوا استعدادا للموت على التخلي عن الارض».

في كتابه «ظهور الحركة الوطنية العربية الفلسطينية» يقول «ي. بورات» ان قدوم اليهود الى فلسطين كان مدمراً من ناحية معنوية دينية. «يقول العرب ان من نماذج ذلك ظهور النساء اليهوديات بملابس غير أخلاقية امام اعين الفلسطينيين الذين لم يكونوا على ألفة بهذه المناظر. هذه العادات الفاسدة تلوث الارض المقدسة».

http://www.al-maktabeh.com

وهكذا فعندما تطورت المشكلة، كان من الواضح ان هناك فجوة حقيقية، ليس فقط في الافكار الاجتماعية والسلوك، بل بين حركتين قوميتين. ولم يبحث كثيرون من «اليشوف» عن وسيلة عملية للربط بين الشعبين. وكان سميلانسكي من بين القلة التي بحثت عن ذلك.

عام **١٩٢٩** اسس البروفسور يهودا ماجنيس، رئيس الجامعة العبرية في القدس منظمة «بريت شالوم» (اي ميثاق السلام)، التي استهدفت تطوير التفاهم المشترك والتعاون السلمي بين القوميتين اليهودية والعربية. وقد انضم اليه سميلانسكي للدعوة الى دولة ثنائية القومية في فلسطين يتساوى فيها العرب واليهود في الحقوق السياسية والمدنية، بغض النظر عن عدد السكان. على هذا النحو كانت ستحفظ حقوق اليهود، ما داموا اقلية، بينما ستحفظ حقوق العرب لو صاروا اقلية. كان هذا بالطبع تخلياً عن الآمال باقامة دولة يهودية في فلسطين. وقد اعتقد دعاة هذه الفكرة ان التشابه الثقافي والعرقي بين العرب واليهود، المبني على تحدرهما من اصل سامي واحد، وكذلك انجازاتهما الثقافية المشتركة في العصور الوسطى، يمكن بل ويجب ان يخدم كأساس لتفاهمها في فلسطين.

من هذا المنطلق انتقد «مارتن بوبر» و«سميلانسكي» ورؤساء حركات الشبيبة اليسارية «هاشوميرهاتسعير» سياسة «الهستدروت» (اتحاد النقابات) تجاه العمال العرب.

عام **١٩٤٢** اسس «ماجنس» منظمة «ايحود» من اجل تفاهم عربي يهودي افضل، والتحق بها اعضاء منظمة «بريت شالوم»، وقد ادلى اعضاء منظمة «ايحود» بشهاداتهم امام اللجنة الانجلو امريكية لتقصي الحقائق في فلسطين عام **١٩٤٦**. وعام **١٩٤٧** اقترحوا امام لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين، اقامة دولة ثنائية القومية في فلسطين واحدة، على اساس المساواة السياسية بين العرب واليهود، وقد اقترحوا فترة انتقالية تخضع فيها فلسطين لوصاية الامم المتحدة التي تنيب بريطانيا عنها في ذلك، حتى تقف الدولة على رجليها. ايد قليل من العرب «ايحود» ولكنهم قتلوا على يد متطرفين عرب.

على اية حال لم يلتفت احد الى اصوات هذه المجموعة. في كتابه «من اليقظة الى اليقظة» يشير «ايسيغ سيلبير شلاج» الى ان فشل هذه المحاولات كان خطأ قاتلا، كان كارثة، واضاف: «الجهل يؤدي الى الازدراء، والازدراء يولد العداوة».

مكتبة المهتدين الإسلامية

خلاصـــــــــــــــــــة :

كما اشرنا من قبل لم تكن سيرة «سميلانسكي» كتاباً ادبياً محضاً، بل ايضا تاريخاً لاحداث واقعية واناس حقيقيين. هكذا يجب النظر اليها، ونحن ونتفحصها ونبحث عن القيم التي ترتبط بآرائه. انه يكشف عن نفسه تحت ضغط ايديولوجيته، حتى تبدو وكأنها عبء عليه، وكأنه يواجه بتحد لتغيير مجرى التاريخ، لم يستطع فصل اهتماماته الشخصية عن ضميره الاجتماعي، وبذلك فهو يمثل الكتاب اليهود في فلسطين في ذلك الوقت.

يلاحظ «س. هالكين» في كتابه عن الادب العبري الحديث ان من بين ملامح ذلك الادب توحيده الشخص بالجماعة. كان هذا الادب دوماً اشتراكي النزعة، هناك اصرار على الاهمية الاجتماعية للادب وقيادته للمجتمع ولا ينبغي ان يكون مجرد انعكاس للحياة.

أشار لينين الى تولستوي على انه مرآة الثورة الروسية. كان سميلانسكي معجبا بتولستوي ومتأثرا به، من الجائز اذاً ان تقول ان سيرة سميلانسكي الذاتية، ومهما كانت الجوانب الشخصية فيها، هي عبارة عن مرآة «للحالوتزيوت» (الريادة). وتأثراً بتولستوي ايضا، حاول سميلانسكي التعبير عن العلاقة الوثيقة بين مصائر الافراد والعالم الذي يحيط بهم، وكما قال «باند» فان «الادب العبري لم يستطع تجنب المواجهة الفنية مع حقائق تلك الفترة، وقد راوح بين العمل الادبي والتأريخ».

اعتمادا على تلك الخلفية التاريخية، سوف يقدم الفصل التالي تحليلاً ادبيا موجزاً للاعمال التي تم اختيارها لدراسة الصورة العربية في الادب العبري.

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثاني

الكتاب وأعمالهم الادبية

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

فيما يلي اسماء الكتاب واعمالهم التي نوقشت في هذا الكتاب:

١ ـ يتسحاق شامي ١٨٨٩ ـ ١٩٤٩
انتقام الآباء ـ طبع لاول مرة ١٩٢٨ .

٢ ـ يهودا بيرلا ١٨٨٦ ـ ١٩٦٩
أ ـ صراعات الانسان ـ طبع اول مرة عام ١٩٢٩ .
ب ـ ظلام المعاناة طبع اول مرة ١٩٢٢ .

٣ ـ موشي ستافي (ستافسكي) ١٨٨٤ ـ ١٩٦٤
ضوء الصباح طبع اول مرة ١٩٣٠

٤ ـ موشي سميلانسكي ١٨٧٤ ـ ١٩٥٣
اطفال الجزيرة العربية طبع اول مرة ١٩١١ .

٥ ـ ناحوم يارو شيليمي ١٨٩٠ ـ ١٩٦١
مركادو ـ سائق الحمار طبع لاول مرة ١٩٢١

٦ ـ ياكوف رابينوفيتش ١٨٧٥ ـ ١٩٤٨
عماسي الشومير طبع لاول مرة ١٩٣٠ .

٧ ـ يسرائيل زارحي ١٩٠٩ ـ ١٩٤٢
قرية سلوان طبع لاول مرة ١٩٤٨ .

قضى أول اثنين من هؤلاء الكتاب طفولتهما في فلسطين، ولذلك كانا على استعداد لتقبل بيئتهم، ولم يكونا بحاجة للمرور بتجارب للتكيف معها.

أما البقية فقد نشأوا في اوروبا الشرقية وجاءوا الى فلسطين ناضجين. وقد صاغوا شخصياتهم وابطال رواياتهم متأثرين بالبيئات التي قدموا منها.

أما أعمال «ستافي» فتعمل كحلقة وصل بين المجموعتين. ومع ان معرفة سيرة حياة الكاتب يجب ألا تؤثر في التقييم النقدي لعمله، الا انها يمكن ان تلقي ضوءاً على المؤثرات التي شكلته والمصادر التي غرف منها اثناء الكتابة. يقول «تشيرنيشوفسكي»، «ما الانسان الا نتاج تربته الاصلية». وهذا القول لهذا الشاعر العبري العظيم هو احد معايير اختيارنا للمجموعة المذكورة من الكتاب.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولد شامي في الخليل. ودرس في «الهيدرا» المحلية، (المدرسة الدينية الابتدائية)، حيث أتم تعليمه الديني. ثم ذهب الى القدس حيث تابع تعليمه المدني في كلية عيزرا لتدريب المعلمين، وقد تأهل للتعليم ومارسه حتى نهاية حياته. وقد درّس في دمشق وعكا وبلغاريا. ثم عاد الى فلسطين عام **١٩١٩** ودرس في الخليل مدة سبع سنوات، ثم في طبريا حتى عام **١٩٣٠**، حين ذهب الى حيفا حيث توفي فيها.

بدأ حياته الادبية بنشر قصة «هاآكرا» (المرأة العاقر). في صحيفة «هاأومر» عام **١٩٠٧**. ولسوء الحظ انه لم يكتب سوى ست قصص اخرى. وقد اورد «آشر براش»، صديق «شامي»، الذي حرّر قصصه السبعة وجمعها في مجلد واحد، في المقدمة، تفسير «شامي» الخاص للقيود النفسية التي منعته من الكتابة:

«انتاجي الادبي هزيل وقليل. هناك حوادث معينة حجبت تدفقي الادبي، الذي بدلا من ان يكون جدولا رائعا منعشا وثريا، كان اشبه بصخرة قاسية لم يتفجر من خلالها الماء. لقد تفجر في الداخل، وبين الحين والحين كان ينقط منه نقطات ترطب وجه الصخر الاملس، ولكنه في النهاية امتص كلياً».

يعتقد «أ. الحناني» ان الصعوبات التي واجهت شامي كانت بسبب عدم الانسجام بين والديه اللذين كان لكل منهما خلفية مختلفة عن الآخر تماماً. أمه هي بنت عائلة سفاردية معروفة وارستقراطية، تدعى «كاستل»، كانت هادئة المزاج ذات تربية اجتماعية لطيفة، اما ابوه «هاهام الياهو»، فكان، من طبقة اجتماعية دنيا، جاء من دمشق الى الخليل، وقد طلق زوجته الاولى، وماتت زوجته الثانية، كان في منتصف العمر حين تزوج ام «شامي»، كان في مظهره الخارجي يشبه العرب. وكذلك كان في سلوكه واخلاقه ورؤيته للامور، لان عائلته قد اندمجت في الحياة الشرقية لعدة اجيال.

كتب شامي عن حياة اليهود السفارديين بعد طردهم من اسبانيا عام **١٤٩٢**، واستقرارهم في تركيا ولبنان وسوريا وفلسطين. لقد اندمجوا في بيئاتهم الجديدة، وكيفوا انفسهم لاساليب حياة الناس من حولهم، وتمثلوا كثيرا من اتجاهاتهم وثقافتهم، ونسجوا ذلك في تراثهم الديني والفكري.

في وصفه لهؤلاء اليهود وسع «شامي» نطاق اهتمام الادب العبري، الذي ظل لسنوات عديدة، مهتمًا بحياة الاشكنازيين، او يهود اوروبا الشرقية. واكثر من ذلك فقد

http://www.al-maktabeh.com

كشف الحجاب عن الشرق، ووصف الخيمة العربية من الداخل. وهذا جانب من كتاباته التي لا زال لها اهميتها الخاصة في حياتنا المعاصرة.

يشير «ح ـ بيساح» الى انه من المفارقات ان يكون اكثر الكتاب الفلسطينيين شهرة وكتابة عن العرب في الفترة التي سبقت الاعلان عن قيام دولة اسرائيل، هو «شامي» اليهودي الذي يكتب بالعبرية.

«انتقام الآباء» هو اطول عمل له، وهو اشبه برواية قصيرة. بصيغة اخرى هو عمل في منزلة بين القصة القصيرة والرواية. فبينما في القصة القصيرة تذكر الشخصيات، فانها هنا تتطور. يرسم «شامي» في روايته هذه حياة الشرق بكل بدائيتها وغرائزها العارمة في اطار حبكة روائية بسيطة، ولكن دراماتيكية.

وقد اشار، في احدى ملاحظاته ان القصة استندت الى حادثة حقيقية وقعت قبل ٤٠ او خمسين عاما. تدور القصة حول موكب يشق طريقه الى النبي موسى، (هو موكب شعبي سنوي يذهب فيه الناس الى قبر النبي موسى). وقد حدث فيه توتر بين مجموعتين احداهما من الخليل والاخرى من نابلس. وادى ذلك الى مقتل واحد من الخليل، شيخ الشباب واثنين من اتباعه، وآخرين من نابلس.

وقد اشار «موشي ستافي» في قصته «القرية العربية» التي يصُف فيها ما يجري في النبي موسى ايضا، الى قصة «شامي» الممتازة، واكد ان هذا الموسم يؤدي الى النزاعات التي تتعلق بالشرف والاولوية، خاصة بين مدن نابلس والخليل والقدس.

بطل قصة شامي «ابو الشوارب» وهو مواطن وجيه من نابلس، يتطوع لقيادة اهل مدينته في الموسم المذكور، وتنشأ الخصومة التقليدية وتصل ذروتها في الجريمة المأساة المذكورة. ابو الشوارب يقتل زعيم الخلايلة، وهو يحاول ان يضع راية بلده اولا على مقام النبي موسى. وعندما ادرك ان ما فعله يجعله عرضة للانتقام حاول الفرار الى القاهرة بمساعدة احد اصدقائه، هذا الصديق اثار الكراهية في قلب البطل واتباعه.

في القاهرة يقع «ابو الشوارب» فريسة تعذيب الضمير، ويبدأ يصارع نفسه ليبرر ارتكاب الجريمة، وقد ادى به ذلك الى الاكتئاب ثم الخبل، الذي لم يجد مهرباً منه، الا باللجوء الى المخدرات، التي ادت الى الموت، لقد انتقم القدر منه، لانه عندما قرر العودة الى حيث يمكن ان يصل اليه خصومه ويقتلوه، قتله تناول العقاقير.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ان الـدور الذي يلعبه القدر في قصة شامي، يجعلنا نستنتج انه يعتبره مهمًا في الاسـلام. وهـو في الحقيقـة كذلـك، مهم جداً، قوة مطلقة، تعرف احياناً بالقسمة والنصيب، لا ترحم ولا تخضع لكل القوانين الطبيعية في الكون. ان كلمة «الاسلام» نفسها تعني «الاستسلام الذاتي لله». والقدرية تأخذ شكل الاستقالة المطلقة، او التخلي عن الاختيار الشخصي في قضايا الموت والحياة. لم يصل بطل القصة الى هذه الاستقالة بسهولة، الا عندما ادرك ان لا مفر امامه: انه يواجه قوة عظيمة لا تقاوم. القدر له قوة كاملة فوق مجرى الاحـداث. ويقـود الكاتب القارىء للاقتناع ان حياة البطل وقدره ماضيا ومستقبلا قد قررا من قبل.

القدر، كما يصوره الكاتب، دائرة، الحركة داخلها محدودة، ولا مخرج منها، هذا المفهـوم يتكـرر عدة مرات، وبعـدة اشكال خلال القصة، وفي كل مرة يتعزز مفهوم الحصار. الدائرة تضيق على ابو الشوارب، حتى لم يعد له، ولا للاحداث من حوله من حركة، الا داخلها. صورة الدائرة تظهر باستمرار في عدة اشكال، في صور مرعبة، كصورة الغربان السود منتوفة الشعر تحيط بالمشهد، وخاتم السحر في انف الشيطان:

«من قعر الوادي ابصروا، وسط تلال اشجار الزيتون، غرابين ينوحان، وينتفان شعر بعضهما، كلما ارتفعا في السماء. وقد تناثر كثير من الريش حول مقام النبي موسى. وبعد التحويم عدة مرات عقدا اتفاقاً مع مخلوقات العالم السفلي والدائرة الداخلية في جهنم. حملا معا خاتم السحر والكارثة، ووضعاه فوق رؤوس الحجيج، وبهدوء وسرعة طارا بعيدا واختفيا الى الشرق وراء الجبال. من تلك الساعة وقع قادة الحجيج في فخ لا مهـرب منه، لقد أوقعهم الشيطان في خاتمة، واخذ يقودهم من انوفهم بارادته لخدمته وتنفيذ مخططاته. كان لا بد ان يفشل الحج والحجيج. كان ابو فارس وأبـو الشـوارب رسولي الشيطان، وبدون علمهما كانا سبب الكوارث والنكبات».

في فقرة اخرى، تظهر صورة الدائرة عندما ينوم البطل مغناطيسيا، بمشاهدته لعدة ساعات الحركات الدائرية للاعبي النرد:

«كـان اللاعبون قد توقفوا عن اللعب منذ زمن طويل، اخذ آخرون، مكانهم ورحلوا، ولكن نمر كان لا يزال غارقاً في افكاره، يحدق بصعوبة فهو لا يرى شيئا، حتى تعطلت حواسه واصيب بدوار، بسبب الاصوات المرتفعة، وقرع الزهر الذي ظل يحس به في رأسـه، كان اشبـه بحصـان الـطاحونة، الذي عندما يعتاد على الدوران حول

http://www.al-maktabeh.com

الارض، وضربها بحوافره، يظل يدور ويدور حول نفسه حتى وهو نائم» . (ص٩٨) .

ولأن الشيطان نشط جدا في مؤامرته لايقاع البطل في خاتم القدر، فما هو مكانه في الحياة الاسلامية؟

في الفكر الاسلامي ،الشيطان هو القوة التي تعارض الله في قلوب الناس، وهو يهمس او يبث ايحاءاته الماكرة في الآذان، ويقدم اقتراحاته المغرية لهم . ويعتقد ان لكل انسان شيطانه، حتى يمكن ان يتحدث كل انسان الى شيطانه . والوحدة بين الانسان والشيطان وثيقة ،وحدة الجسد والدم . ولكن ليس هناك ثنائية، لانه لا سيطرة حقيقية للشيطان على الانسان، ونجاحه يعود الى مكره فقط، وهو لا يستطيع استثمار نجاحه، لانه يخاف الله ويتخلى عن الانسان، بمجرد ان يوقعه في الذنب .

الاعتقاد الشائع ان كل انسان له ملاك، كما له شيطان، وانهما يتصارعان لجره الى الخير او الشر . وهكذا يصبح الدور الرئيسي للانسان دور الصراع المعنوي والاختيار الشخصي .

في هذه القصة يوظف الشيطان، حتى الشمس، حليفا له، مما يجعل دائرة الكارثة تضيق اكثر حول الحجيج، بتحالف القدر والشيطان: وهذا ينبه القارىء ليعرف سر هذه العقدة، مع انتظار الكارثة النهائية .

«عمل الشيطان كل ذلك اليوم بكل الوسائل التي استطاعها، حتى انه اتفق مع الشمس لتحالفه، وبمساعدتها أكمل دائرة الكارثة حول الحجيج، وأثمرت بذور الكراهية التي لم تكن قد نضجت تماماً في **عقولهم**»(ص٦٣) .

وقع ابو الشوارب في فخ الشيطان، وكان نصيبه لذلك جهنم حسب العقيدة القرآنية. يشعر القارىء بتعاطف مع ابو الشوارب، لان الكاتب يجعله يحكم عليه حسب معايير وضعها الكاتب نفسه . لهذا يتعاطف القارىء ويفهم ابو الشوارب، ويضع نفسه مكانه في جهنمه العاطفية بغض النظر عن قيمه الخاصة .

ان العجز عن الهرب من المصير يؤكد في القصة بتكرار صورتين اضافيتين، رسمتا باحكام داخل السياق العام، انهما صورتا الماء والحيوانات .هاتان الصورتان مثلهما مثل صورة الدائرة، تستخدمان لاثارة الاحساس، الا انهما ككل الرموز، يشيران الى شيء مجرد او باطني . الماء والحيوانات هنا رمزان لقوى خارج قدرة الانسان على التحكم .

مكتبة المهتدين الإسلامية

ابـو الشـوارب نفسـه يدرك الخطر الذي يواجهه، عندما يفقد سيطرته، ويبدأ صراعه الحقيقي مع الشر والامواج والافواه التي تريد ان تبتلعه. حتى الحجيج الذين تبعـوه لم يستطيعوا العمل ضد الطبيعة، ضد مياه الجداول العاتية التي اخفت البطل الملاحق، ولكنها في نفس الوقت قلصت امامه فرص النجاة، هذه الصور تظهر لدى «شامي» على النحو التالي:

«هرع ابو الشوارب وسط جمهور من الشباب والاطفال الذين كانوا يتجهون نحوه من كل الجهات، مثل كتل غبار في زوبعة... اجتاز ابو الشوارب الموجة البشرية التي كانت تتحرك ببطء بسبب ضيق بوابة المدينة... واندفعت مواكب الحجيج موكبا اثر موكب من القرى المجاورة الى الوادي وكل الطرقات المؤديةالى المدينة، واتجهت نحو المسجد تنشد اغاني الموسم» (ص٣٠).

ثم: «كانت موجات متواصلة من الناس تظهر في اعالي التلال، تتجه الى الامام لا يظهر منها الا رؤوسها، واحيانا تظهر كاملة حتى اقدامها، ثم لا تلبث ان تندفع نحو المنحدرات ثم ترتفع الى الاعالي ثانية، وكأنها تسبح في الماء. ومن خلال اعمدة الغبار التي تثور امامهم، امكن للمرء ان يلحظ رقاب الجمال واسراجها على ظهورها، تتحرك من جانب لآخـر وكأنها سفن تتهادى فوق الامواج، وفوقها الركاب يلوحون براياتهم وسيفوهم ورماحهم، تمتزج وتنفصل، وشفراتها تبرق وتلمع مثل اكليل من النار»، (ص٤٣).

ان استخدام «شامي» الرمز الحيواني مميز في جميع الكتابات الطبيعية، ويمكن ان يشير الى مدى تأثره بهذا الاسلوب من أساليب الكتابة.

مذهب الكتابة الطبيعية يؤكد على علاقة الانسان بالحيوانات الدنيا، وايضا على قوة القـوى الخارجية الاجتماعية والطبيعية، التي تعوق الحرية الانسانية، بينما القوى الداخلية، الوراثية واللاشعورية، تحدد المسؤولية المعنوية والعقلانية الانسانية. والكتاب الـطبيعيون يؤكـدون الـطبيعة المادية (الفسيولوجية) للانسان اكثر من صفاته العقلية والمعنوية، ويصورون الشخصيات كأفراد لا حول لهم ولا قوة، كنتاج للبيئة والوراثة، لديهم دوافع غرائزية قوية من الداخل، بينما يئنون تحت ضغوط اقتصادية واجتماعية من الخارج. وهكذا فليس لديهم الا القليل من الارادة او حرية التصرف بمصائرهم.

http://www.al-maktabeh.com

هناك ميل لدى الكتاب الطبيعيين لتصوير الحياة على انها صراع نحو الانحدار، نهايته الموت، كما حدث لبطل الرواية التي نحن بصددها. وقد مزج «شامي» افكار المدرسة الطبيعية في الكتابة مع المفهوم الشرطي للقدر. ولكنه مزج ايضا عناصر من الكتابة الطبيعية مع عناصر غريبة عنها: وخاصة الرصد النفسي. لقد حلل المشاعر التي رسمها، واكد مع ذلك على الصفات الحيوانية لشخصياته. هكذا اوجد «شامي» روايته عالماً حقيقياً ومقنعاً مرتكزاً الى فلسفة متكاملة.

يستخدم «شامي» عدة انواع من الحيوانات لتحقيق غرضه، كما يظهر من القائمة التالية: الفيل والنسر، والقط، والماعز، والديك، وابن آوى، والنمر، والذئب، والنملة، والضبع، والعصفور، والسمك، والجمل، والدودة والبوم والحصان والكلب.

والجمهور ايضا يوصف اوصافاً حيوانية مثل: البعوض والجراد والنحل والغنم والخنافس والتنين والديك والنسور والطيور والسمك والثيران والذئاب والافاعي.

يستخدم شامي الطيور والحيوانات التي تعيش فعلا في المنطقة، وهي دائمًا تصور في حركة مستمرة.

يهتم شامي كثيرا بالتفاصيل الحقيقية لخلق احساس بالواقعية في شخصيات روايته. وهذا يشمل وصف عادات الاكل، والسلوك، والوصف الدقيق للانسان والحيوان، وتأثير المخدرات على البطل في منفاه في القاهرة.

يوحد الراوي نفسه مع قيم واتجاهات الشخصيات العربية. وكمثال يشير الى المزارعين اليهود كـ«ابناء الشيطان»:

«هؤلاء السادة، لا يقومون حتى باقتلاع الباقلاء بأنفسهم. انهم يذهبون الى القرى يدفعون اجورا مرتفعة. . . وهل غريب ان يوجد من يبيع روحه لابناء الشيطان»؟ (ص ١٠).

وهو يعرض اليهود من وجهة نظر عربية خالصة، بشكل يوضح محل تعاطفه. ويعتبر ذلك سمواً انسانياً وادبياً، وانجازاً من انسان خارجي. ويعزز اندماجه (توحده) مع شخصيات روايته وقيمهم باستخدام تكنيك ادبي مميز: انه يصطنع لغة عبرية يمزج فيها المصطلحات العربية التي تستخدمها شخصياته ويعبرون بها عن معتقداتهم وعاداتهم وما يكرهون وما يحبون. الراوي يتكلم مباشرة الى القارىء، ويربط مجرى الاحداث في تسلسل معلومات مستقاة من مصادر يعتمد عليها، ليحظى بثقته.

مكتبة المهتدين الإسلامية

مع ذلك فالقارىء يصبح مهيأ لموت ابو الشوارب، ويزيد الكاتب من معدل التوتر باطلاق التلميحات وهو يقود الاحداث الى الكارثة التي توشك ان تقع. من البداية يعد هذا الحج ان يكون مختلفا وغير عادي من كل الوجوه حتى في احداثه اللاحقة. هذا الاسلوب يثير فضول القارىء ويرفع درجة التنبه عنده ويجعله مصمماً على معرفة ما سيحدث في المراحل التالية:

بعد ان يتسلم ابو الشوارب مهمته كقائد للحجيج، يحس بروح شريرة تنمو داخله كل دقيقة. يقتل كلباً بريئاً، صادف ان كان بجواره في وقت من الاوقات. هكذا كان الكلب ضحية الظروف، وهذه الحادثة المزعجة في مطلع القصة، نذير بالاحداث التالية التي ستنتهي بموت البطل نفسه.

كذلك فان وصف اضطراب الرجل البدوي الفقير، في مطلع القصة، يشير الى النهاية المحزنة عندما اكتملت دائرة القدر، واصبح البطل نفسه ضعيفا لا حول له ولا طول. كذلك الاشارة الى الظلام المخيف في صمته، واغصان الكروم التي ترمز الى الترنح والموت، وتكرار ظهور منظر جهنم، كل ذلك يهيء القارىء للمأساة النهائية.

يهودا بيرلا:

ولد يهودا بيرلا في القدس. وهو وحيد اسرة من ازمير في تركيا، استقرت في القدس قبل ١٥٠ عاماً. كان اسلافه حاخامات، الا ان والده، رغم حبه للتوراة، لم يكن عالماً دينياً.

تحملت كل اجيال عائلته مسؤولية العناية التقليدية بقبر «راشيل» قرب بيت لحم، وكان ابوه آخر من قام بهذه المسؤولية. يذكر «بيرلا» في سيرته الذاتية ان أمه هي ابنة رابي الخليل المشهور: «ياكوف تيرجمان»، وقد درس هو في كلية «دورشي صهيون»، وفي «تيفريت ياروشاليم» وهي مدرسة دينية سفاردية. ولكن عندما وصل الثامنة عشرة من عمره، وكان على وشك ان يكمل دراسته الدينية ويصبح حاخاماً، غير مجرى دراسته وذهب الى كلية «عزرا» لتدريب المعلمين (كما فعل شامي ايضا). وظل هناك ست سنوات حتى تأهل وأصبح مدرسا ممتازا، كما قال عن نفسه.

خلال الحرب العالمية الاولى عمل مترجما في الجيش التركي، واحيانا عامل طرق، واحيانا مراقبا واخرى مشرفا صحيا. عام ١٩١٩ عين «بيرلا» مديرا للمدارس العبرية

http://www.al-maktabeh.com

التابعة للاتحاد الصهيوني في دمشق، حيث اسس هناك حركة صهيونية. عام ١٩٢٢ اغلقت تلك المدارس، وعاد «بيرلا» الى القدس، حيث درّس في «زهرون ياكوف» من عام ١٩٢٥ حتى ١٩٢٧، ثم في مدرسة «ريلي» في حيفا من عام ١٩٢٨ حتى ١٩٣٠.

في عامي ١٩٣١ و١٩٣٢ عمل «بيرلا» رئيسا للدائرة العربية في منظمة العمال العامة، ثم في عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤ عاد للتدريس في تل ابيب.

بعد تأسيس دولة اسرائيل عين مديرا للدائرة الثقافية في وزارة الشؤون الدينية، ثم اصبح في آخر سني حياته رئيساً لمعهد المخطوطات. وقد كتب سلسلة مقالات عن الادب العربي الحديث وترجم اعمالا ادبية عربية الى العبرية. سلّم قصته الاولى وعنوانها «لونا» الى «يوسف برينر» الذي شجعه على الكتابة. وبعد قراءة روايته الثانية «ظلام المعاناة» صاح «برينر»، حسب ما يقول «بيرلا»، «تشيكوف! تشيكوف العبري»، ثم اصبح «بيرلا» بعد ذلك غزير الانتاج، ونال جائزة «بيالك» الادبية، عن قصتيه «بيكدوشاه» و«ماراحوت».

تكمن اهمية «بيرلا» الادبية، في الادب العبري المعاصر في مقدرته على تصوير حياة الطائفة السفارية، التي يعرفها جيدا، والتي اهملت كثيرا من قبل. وهو نفسه يوضح ان لديه دافعاً داخليا للكتابة عن حياة السفارديين والطوائف الشرقية الاخرى لانه عاش معهم في القدس وغيرها من الاماكن، وكما يقول هو نفسه «إن لم اتحدث انا عنهم، من غيري سيفعل ذلك». لقد اصبح الكاتب الاول في «وصف قلب القدس» بما فيها من تنوع عرقي وديني. كان يأخذ شخصيات رواياته من الواقع. في مقالته القصيرة عن طفولته وطفولة «بيرلا»، يتحدث «عيزراها مناحيم» عن «الادب الذي كان ممزوجا بالحياة، والحياة التي كانت ممزوجة بالادب. كان عالماً غريباً مثيراً للاهتمام والخوف في نفس الوقت. كان عالماً تسير في شوارعه شخصيات «بيرلا» الروائية، تعيش امام أعيننا».

لم تكن شخصياته حية واقعية وحسب، بل كان الحديث الذي خصصه لها صادقاً ايضاً، اللغة في الشرق لها خاصية فذة يتقن «بيرلا» استخدامها في رواياته. وقد اعتبر النقاد الادبيين ذلك مصدر قوته الرئيسية. اسلوبه منمق متقن فيه اطناب. وهو يستخدم الحوار تهيئة لذكر الكلام الرئيسي الذي يريد ان يقوله. وعادة ما يأخذ هذا الكلام شكل حكمة او مثل.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ينظر «بينليس» الى الشرق كله في اطار اللغة، والى «بيرلا بالذات على انه خير ممثل لها. حتى الراوي في قصصه يستمتع بالانصات الى صوته، وتصبح كلماته بديلا عن الفعل. يمكن اعتبار قصصه تشخيصاً نفسياً لابطالها.

يعتبر «ي. بن جوريون» «بيرلا» «فنان الحوار والمناجاة»، ويعتقد ان قدرة «بيرلا» الرئيسية كانت في اعادة الحياة الى الحياة عبر حوار الشخصيات.

هكذا فان افكار «بيرلا»، وطريقة ايصالها تنبعان من البيئة المحلية المباشرة، ومن الثقافة المحلية التي تشربها من الطفولة. ومع ذلك فان اعماله وصلت الى مستوى انساني عام، ولم تقيد بحدود او اعتبارات جغرافية.

الفكرة الرئيسية في قصص «بيرلا» هي الحب، وخاصة الجانب الجنسي منه. هذا الجانب المادي من الحب لا يعرف بالطبع حدوداً وطنية او اجتماعية. انه جزء رئيسي من الحياة نفسها، محكوم برغبات طبيعية لا تقاوم. ومع ذلك فالحب الذي عني «بيرلا» به له نكهة شرقية. المفاهيم الغربية عن الجنس والشبق والفجور لا تعامل في الشرق بالازدراء والرفض، بل على انها امر مقدس ونعمة من الله للانسان ليستغلها الى اقصى درجة ممكنة. يجدر بنا هنا ان نتذكر ملاحظة «روبنسون» انه على العكس من هذا الاتجاه، كان الحب في ادب حركة التنوير في روسيا، يلعب دوراً خاصاً، ولكنه دور تعليمي وعظي، دور حامل افكار الثقافة الجديدة التي يسعى الكتاب لاذاعتها.

كانت شخصيات «بيرلا» ايضا محكومة بالقدر. هنا يلعب نفس الدور الذي يلعبه في الاسلام. واحد اهم ملامحه تلك اللامبالاة الكاملة بالظروف المادية: الانسان يقبل بهدوء الرخاء او سوء الحظ، كقانون من قوانين القدر.

في روايتيه، موضع بحث دراستنا هذه، سوف نتتبع بقدر كبير من التفصيل كيفية تصويره للحب والقدر. ولانه يكتب عن بيئته الخاصة فقد دخل العرب ايضا في عالمه الروائي، ليس في هاتين الروايتين فقط. وقد اخترناهما لان بطل الاولى «ظلام المعاناة»، عربي بدوي، بينما البطل في الثانية «صراعات الانسان»، يهودي، مما يتيح لنا الفرصة لمعرفة اوجه الشبه والاختلاف في طرق تصويره للعرب واليهود على السواء.

«ظلام المعاناة» هي اولى روايات «بيرلا» وقد صدرت عام **١٩٢٢**. الشخصية الرئيسية فيها «عبد»، البدوي الوحيد الذي ظل على قيد الحياة من قبيلة «قطيفة»، التي

http://www.al-maktabeh.com

ابادتها قبيلة «حنيفة» عن بكرة ابيها. السبب الذي جعل حنيفة تبقي على «عبد» حياً، هو اتباع وصية النبي **بالا تفنى** قطيفة عن وجه الارض.

لم يكن عبد يدري عن اصله الحقيقي شيئاً. ولكنه يعرف من ملاحظات الناس الذين يعيش معهم انه غريب بينهم، ويلاحظ ان هناك تحاملاً منهم ضده. كذلك كانت طفولته وشبابه المبكر مليئين بالمعاناة والاذلال، وهو معذب بالبحث عن حل للغز الذي يحيط بأصله. لقد نشأ كزعيم محترم، وتقبل ذلك تقبلاً قدرياً، وقد وقعت «نورة»، الفتاة الجميلة ابنة قبيلة حنيفة في حبه. هذا الحب وسط جو الكراهية الذي يحيط بعبد، تمزق بين الرغبة والواجب، بين البطولة والهرب، وانتهى الى مأساة: قتل الشيخ فرحان ابنته وطفليها، ولكن «كمال» الشرطي من قبيلة خليفة قتل الشيخ فرحان وابنه الاصغر.

تلقى شخصية اخرى في الرواية، وهي «أبايهيا»، مصيراً مأساوياً. وهو اليهودي الوحيد في الرواية، اضافة الى الراوي. **كان «أبايهيا»** قد نجا من مذبحة في اليمن، ذبح فيها كل **افراد** اسرته. وقد فقد بسبب ذلك اية رغبة في الحياة، وهرب الى الجنون حيث **الصمت** الذي يتجاوز خيبة الامل. وجده «عبد» ذات يوم وهو يرعى قطيعاً من الجمال، وبمساعدة الشيخ زيدان الطبية بدأ «ابايهيا» يرجع ببطء الى الحياة. ولكن عودته كانت تدريجية تتخللها النكسات، **لأنه** كان يتهرب من اي اتصال انساني. بعد شهور من الصمت روى «ابايهيا» قصته:

«تعال انظر ماذا يفعل بنا المسلمون الاغيار. ماذا حرقوا وخربوا، ماذا فعلوا بي. لقد ذبحوا ابنائي امام عيني، وشرخوا رأس زوجتي بالسيف، وقتلوا ابي وامي واناساً آخرين...» (ص**٣٩**).

وبيأس تطلع «ابايهيا» لقبيلة خيبر اليهودية ليحذرها مما حصل لابنائها وليستثيرها للثأر، وعندما ادرك انه لن ينجح في دعوته هدأ وبدأ يساعد منقذيه. في الصيف كان يعمل مع «عبد» الذي تعاطف كثيراً معه، واباح له بحبه لـ«نوره».

شعر «ابايهيا» بتقارب مع «عبد»، وساعده على الهرب من غضب الشيخ فرحان عندما اكتشف هذا الاخير ان «عبد» و«نوره»، في حالة حب. وفي النهاية ضحى «ابايهيا» بنفسه في سبيل الابقاء على حياة الشخص الوحيد الذي احبه في هذا العالم.

إن اقحام «ابايهيا» في هذه الرواية مقصود لاثبات وجود العنصر اليهودي في فلسطين. ومأساته هي نتيجة لقسوة العرب ضد اليهود. لا شك ان هناك هدفاً محدداً لدى

مكتبة المهتدين الإسلامية

«بيرلا» من وراء تسليط الاضواء على مثل هذه المأساة التي عاشها اليهود في اليمن. وعلى الرغم من ان مأساة «ابايهيا» قد تكون فردية او عرضية، الا ان عرضها على هذا النحو يمثل صرخة موجهة للقراء اليهود ليفتحوا اعينهم على ما يجري. وحادثة «ابايهيا» لا تلقي اي ضوء على بقية الشخصيات، كما لا تضيف شيئاً لفهم العقدة.

كتبت الرواية بضمير المتكلم، وكأنها مناجاة (مونولوج). وهو اسلوب مناسب يتمكن البطل من خلاله بث آلامه واحزانه. وقلما يدخل البطل في حوار مع الراوي، الذي هو في نفس الوقت احد الشخصيات. هذا الاسلوب الادبي متأثر باسلوب «المقامة» العربية.

في مطلع الرواية يقدم الراوي نفسه كضابط الماني، خلال الحرب العالمية الاولى. وهذا يدل على ان الراوي هو الكاتب نفسه. يصف الراوي مهمته في فرقة عسكرية شرق نهر الاردن، مكلفة بنقل العتاد والتموين الى القواعد العسكرية البعيدة لاستخدامها اثناء الحرب. وقد عين بدوي، يعرف الصحراء جيداً، مرشداً للفرقة. وخلال تلك الرحلة على ظهور الجمال اقنع الراوي الدليل بعرض قصة حياته. هكذا نجد انفسنا في قصة داخل قصة.

يخبرنا الراوي انه يتكلم العربية «باللهجة البدوية». ويحاول الكاتب ان يثبت للقارىء صدق روايته باستخدامه اسلوبا في الحوار المباشر، مختلفا عن اسلوبه في الفقرات التي يتكلم فيها عن نفسه، او الفقرات التي يتحدث فيها للقارىء، وهو يدخل كلمات عربية وجملاً عربية اثناء الحوار، ويضع لها ترجمة بين اقواس. كما انه يستخدم الخيال الشرقي. كذلك فهو يستخدم طريقة التملق في الكلام، وهي طريقة مقبولة عربيا. وحتى يقرب نفسه اكثر من المصطلح العربي فانه يجعل المتكلم يكرر الضمائر والافعال، حتى يظهره بريئاً متخلفاً، كذلك يستخدم كثيرا من الامثال العربية.

ذكر الكاتب نهاية القصة في بدايتها واستخدم اسلوب الارتجاع الفني Flashback لملء التفاصيل. هكذا يثير الكاتب فضول القارىء ليعرف كيف حدثت النهاية.

الاحداث التافهة تعترض تدفق **الرواية**، وتحول انتباه القارىء، وهي تتيح للكاتب فرصة لتغيير الموضوع عندما يرغب، **وتتيح** له المجال لشرح العادات والمفاهيم التي في اعتقاده، تحتاج الى توضيح.

http://www.al-maktabeh.com

تأثر «بيرلا» بالادب الفرنسي والايطالي، وفي نفس الوقت كان من اتباع المدرسة الواقعية الروسية. ويرى «م. أفيشاي» ان «بيرلا» تأثر بشكل خاص بـ«جوركي»، ورأى نفسه مراقباً مهمته النظر الى الحياة عبر «مرآة واضحة»، وتصوير الاشخاص والاحداث كما هي. ولكنه مع ذلك لم يقتصر على الواقعية، بل كتب الروايات الرومانسية، واثبت قدرته على التخيل بروح شرقية حقيقية. ويوضح المثالان التاليان هذا المزيج من العناصر الادبية المتناقضة:

تحدث «عبد» عن الاسد والذئب اللذين اعتادا ان يهاجما الغنم. ولكن من المعروف ان هذين الحيوانين لا يسكنان الصحراء. ان ذكر «عبد» لهما كان بهدف تلخيص الاخطار التي يواجهها. المثل الثاني عندما يذهب «عبد» للبحث عن عراف ليعرف حقيقة ماضيه، ولكن العراف لم يستطع مساعدته. في تلك اللحظة التقى «عبد» مع رجل كبير من قبيلته قطيفة. وبدون تردد وضع «عبد» ثقته فيه. هذه القصة البسيطة تنتهي بتلميح من الكاتب الى وجوذ احداث لم تذكر مثل «عودة عبد الى الصحراء والمرأة التي تزوجها بعد «نورة». هذه امور يتركها الكاتب ليبقى القارىء على فضوله.

رواية «بيرلا» الثانية، «صراعات الانسان». الشخصية الرئيسية فيها «رحمو حب» ابن عائلة ثرية من دمشق. تمرد في شبابه على مدرسته ولم يجد مدرسة عبرية تقبله. تحول الى بائع متجول، يبيع الالبسة والمجوهرات لبنات المزارعين في القرى العربية. مزاجه ساخن ولديه تعطش للحب. ولذلك فقد كانت النساء تسعد به. كان قد تزوج بضغط من ابيه في سن التاسعة عشرة، ولكن الحياة العائلية لم تشبعه. ومع ذلك كان يتعامل بمنتهى الاحترام مع زوجته. ولم يكن يشبع رغباته مع غيرها بأكثر من حركات او كلمات عابثة في بعض الاحيان اثناء تجواله. كانت تلك الحركات كافية لاشعاره بالسعادة. ولكنه في النهاية وقع في حب فتاة مسلمة اسمها «شفيقه». وبسبب ذلك الحب طلقها زوجها، ولكنها خافت انتقام اسرته، لذلك فهي لم تستطع الزواج من «رحمو»، وقد اخفيا حبهما مدة سنتين. ثم قررا الهرب والزواج.

كان على «رحمو» ان يطلق زوجته، وعلى شفيقة ان تعتنق اليهودية. ولكن خطتها تكتشف، ويهاجم المنتقمون «رحمو» ويقلعون عينيه. تصاب شفيقة بالخبل وتقتل نفسها، بينما يبني «رحمو» حياة جديدة على انقاض احلامه، ولكنها حياة فوضوية تماماً يجعل «رحمو»

مكتبة المهتدين الإسلامية

من نفسه فيها حكماً على القيم الاخلاقية، متجاهلاً المجتمع الذي قاده الى هذا السقوط، فهو في رأيه لا يستحق الاهتمام.

هناك شخصية اخرى مهمة في هذه القصة، اضافة الى رحمو وشفيقة، تلك هي شخصية عبدالكريم الشيخ التونسي الذي يقدم الدعم والحل للحبيبين، من خلال آرائه الفلسفية والدينية. شعار عبد الكريم بسيط «لاشيء في الحياة غير النفس الانسانية. لذلك عليك ان تكون كل شيء». الحياة الانسانية محدودة. السرمدية فقط تبقى الى الابد. الله منحوت من الابدية، وبعض ومضات منه فقط تصل الانسان ليجمعها، ولكن لا يستطيع اي انسان العثور عليها، واي انسان لا يستطيع ذلك عليه ان يقبل ان تكون رسالة حياته، مساعدة من يستطيع العثور عليها.

هذه الافكار، المتأثرة بالبوذية، لا تبدو عند «رحمو» متناقضة مع عقيدته، وهو يجد نفسه يستريح اليها، ويقوم «بيرلا» بالمزج بين النمطين من الافكار دون تساؤل حول امكانية حدوث ذلك.

كما في رواية «ظلام المعاناة»، فان تدخلات خارجية تقطع تدفق الاحداث، تلك التدخلات تذهب بالقارىء اماماً وخلفاً. والمناجاة التي يقوم بها البطل، تكاد تبعث على الملل لولا هذه التدخلات، والحوار الذي يجري في الماضي. تسير القصة ببطء في البداية. ولا يوجد استبصار نفسي حول شخصية «رحمو» خلال فترة فقدانه لبصره مثلا. كذلك لا يوجد شعور بالتوتر خلال وصف حالة اليأس النهائية **وفقدانه**الامل. كما في «ظلام المعاناة» يستخدم «بيرلا» هنا ايضا كثيرا من الكلمات والمصطلحات العربية، ويترجمها احياناً عندما يرى ذلك ضروريا، يخبرنا الراوي انه اخبر بالقصة كلها بالعربية. وهو يهتم بالجانب الانساني اثناء رواية الاحداث، وهو يقلل من الجوانب السياسية والاجتماعية والدينية، التي تؤدي وظيفتها فقط **كخلفية** للصراعات التي تدور حول الشخصيات. همه الرئيسي رواية طرق حياة الناس، ولذلك فان قصصه لا تتناول العلاقات العربية اليهودية. ويشعر بحرية في معاملة شخصياته بنفس الطريقة، بغض النظر عن كونهم عرباً او يهوداً.

http://www.al-maktabeh.com

موشي ستافي (ستافسكي).

ولد «ستافسكي» في لتوانيا، حيث كان ابوه زعيمًا للجماعة اليهودية. وقد عاشت اسرته بسلام في بلدة «انتوبول» في قلب الريف، وقد غادرتها عندما بلغ موشي السادسة عشرة من عمره، وتنقلت بعدها في عدد من المدن.

كان المتوقع ان يصبح «ستافسكي» تاجرا، الا ان التجارة لم تجذبه، وبدأ في سن الثانية والعشرين كتابة القصص في عدد من الصحف الناطقة باليديشية. وقد جمعت قصصه فيما بعد في اربع مجلدات، وترجمت الى العبرية. هاجر الى فلسطين عام ١٩١١، ومنذ ذلك الوقت اخذ يكتب بالعبرية. يقسم «ح. تورين» **قصص «ستافسكي» الى ثلاث مجموعات:**

أ - قصص حول قرى ومدن بلده الاصلي، وفيها يعكس اساليب الحياة اليهودية البسيطة الرعوية. هذه القصص كتبت باليديشية وترجمت الى العبرية.

ب - قصص قصيرة تصف حياة «الحالوتزيم» في فلسطين. ويظهر هؤلاء «الحالوتزيم» او الرواد في هذه القصص اناساً شجعاناً جاءوا للعيش في ارض اجدادهم، لانهم يريدون ان يرموا وراء ظهورهم حياة الجبن المخجلة التي ميزت حياتهم في المنفى.

حـ - الخرافات والقصص الشرقية.

خلال هذه المجموعات الثلاث، يقدم ستافسكي، الحيوانات. وهو يصف المظهر الخارجي والعواطف الداخلية **ويحللها** نفسياً. ومع ان معظم قصصه قد كتبت للمراهقين، الا انها ايضا تصلح للبالغين. وهي تتميز ببساطة الاسلوب، ووجود عناصر فولكلورية فيها، وبالتعاطف مع شخصياتها المكتئبة.

ان جعل الحيوانات شخصيات رئيسية في الادب العبري الحديث قد ظهر لاول مرة على يد **«مندل»** (١٨٣٥ - ١٩١٧). وقد اخذ منه ستافسكي عنوان كتابه «كتاب الوحوش».

هذا الكتاب يدور حول الحياة في «الدياسبورا»*، ولكن في «ضوء النهار» يستخدم «ستافسكي» «ارتز اسرائيل»، مسرحاً لاحداث قصصه، ومعظم الاحداث تدور في

* كلمة انجليزية تعني المهجر او الشتات او المنفى المترجم.

مكتبة المهتدين الإسلامية

المستوطنات اليهودية في فلسطين، وحياة «الحالوتزيم». ولكن من بينها قصتان حول القرية العربية، وهما اللتان تعنياننا هنا، ولانهما قصيرتان، فاننا نتعامل معهما بطريقة مختلفة عن الطرق التي تعاملنا بها مع القصص الاخرى.

من هذه القصص نرى موقفاً محدداً للكاتب تجاه جيرانه العرب، مختلفاً تماماً عما رأيناه لدى «شامي» و«بيرلا»، ولهذا السبب نرى «ستافسكي» كحلقة ربط بين المجموعتين من الكتاب، المجموعة التي ولدت في فلسطين، والاخرى التي هاجرت اليها.

من اول قصتي «ستافسكي» وهي «الضيف» ندخل عالم الحيوانات. يصل كلب مريض غير مرغوب فيه من الجنوب الى قرية عربية، (الكلب هو الضيف) بحثاً عن الماء. ولكنه يستفز غضب الكلاب المحلية التي لا تستطيع تجاهله ولكنها تبدأ**تجاربه.ان** الانتصار يصبح ضرورياً للمحافظة على المركز. لذلك يستمر الصراع. ومع انه يمكن ان يموت**الكلب** عطشاً بمنع الماء عنه، الا ان موته يأتي قضاء وقدراً، ولم يكن له مهرب منه. يمنح «ستافسكي» الكلاب **مظهراً**وطبيعة انسانية: «كان لكبير القوم كلب اخرق كبير، ليس له شعر في مؤخرته، اما **عيناه فاصبحتا باهتتين خاليتين من اي بريق»** (ص١٧).

«خلال رحلته الطويلة كانت الامواج تترقرق امام عينيه المريضتين نصف المغلقتين، **كانتا تتكونان** من آلاف الالوان المتداخلة التي اثارت انفعالاته وادت به الى الجنون الكامل» (ص١٨).

«زمجر سكان القرية بغضب على الغريب، وكشفوا عن فم ذي اسنان صغيرة حادة، وكأنهم يقولون «انصرف وابحث عن مكان آخر» (ص١٩).

«كان التعب قد بلغ بالضيف مبلغه، واللعبة قد طالت كثيرا الى ان كرهها. في بعض الاحيان، كان يريد وضع حد لها، ولكنه على الفور فهم، عندما نظر الى هؤلاء الذي كونوا حوله شبه دائرة، وبدا له انهم سيواصلون القتال، فهم ان وضع حد للعبة معناه **نهايته»(ص٢١)**.

من السهل جداً ان نحول الحيوانات الى شخصيات انسانية، ونقرأ القصة كما لو كانت عن البشر. من الواضح ان الكلاب المحلية هي العرب، ومن الواضح ان

http://www.al-maktabeh.com

الصفات التي منحها للكلاب هي صفات انسانية، ومن الواضح ان موقفه لم يكن تجاه القرية العربية، بل تجاه سكانها.

في كتابة غير روائية بعنوان «القرية» يظهر «ستافسكي» معرفة جيدة بالقرية العربية. وهو يستخدم التفاصيل التي يعرفها في حبك قصته، **ويشير الى** المغزى من ورائها: كان يمكن للكلاب ان تعيش لولا مزاجها المنفلت وغضبها غير العقلاني. وفي هذا اشارة واضحة وانتقاد للخصائص العربية الغريبة على عقليته الغربية، والتي يعتبرها حاجزاً يحول دون تفاهم العرب واليهود.

اما وصف القرية فهو واقعي ورومانسي في آن واحد، كما يظهر من المثال التالي: «رائحة الخروف الغريب المصاب بالاسهال من كثرة اكل القمح، خوار العجل وجواب امه، الحمار الذي ينقل الماء للحصادين، رائحة المحاصيل الجافة، والجمل ينقل المنتوج الى المخازن، والسرج يصطك من الحمل **الثقيل**» **(ص١٧)**.

القصة الثانية موضع اهتمامنا في هذه الدراسة هي «في النقب»، وقد اعتبرها «ي. ليختنبوم» تقليدية في تصويرها للحياة العربية:

«نجد هنا مشاهد فنية ساحرة. **عملا فنيا حقيقيا**، صورة حقيقية للجفاف وايقاع الحياة في النقب، والحقول والسماء والناس والقطعان، مقابل قسوة الطبيعة والقدر. خلال القصة تلامس روح الشعر النفس الانسانية وترجع صداها».

تدور احداث القصة في قرية عربية خلال عام من الجفاف تكتئب فيه السماء ولا تستجيب لصلوات الاستسقاء، ولا يسمح للناس ان يأخذوا حصتهم من المحصول البسيط حتى يأتي جامع الضريبة الذي ترسله السلطات ويأخذ حصة الحكومة، يصف «ستافسكي» بشكل مخزن حيرة وسلبية اهل القرية:

«مرة ثانية خيم الصمت على القرية، صمت طويل يبعث على الوهن ولا يؤدي الى نتيجة، الناس يتجشأون ويبحثون عن ظل عند حائط الى جهة الغرب. اشتدت حرارة الشمس، بدأ **الحديث** يصبح مملاً متقطعا مفككا، كأصداء اصوات تأتي من بعيد ثم تتشظى، **افترش** احد الرجال عباءته وسيطر عليه النعاس، وآخر أسند ظهره للحائط وجلس متربعاً ونام، وهكذا ثالث ورابع **بدا** القوم وكأنهم سكارى بالنوم، متعبون الى درجة الموت، حتى اذا طلعت اول خيوط الشمس كانت القرية بأكملها لا زالت نائمة» (ص ٢٢-٢٣).

مكتبة المهتدين الإسلامية

اسلوبه لايجاد الجو الذي يريده، هو اعادة الكلمات وتكرار الاصطلاحات التي يفيد كل منها معنى ما قبله. بهذا يصبح الاسلوب مؤثراً في ايجاد الجو المطلوب. مثلا في مطلع القصة ترد عبارة «ينتظر رحمة السماء»، هذه العبارة تبقى تتكرر بصور مختلفة، تؤكد المعنى وتعمق الانطباع، يستخدم «ستافسكي» هذا الاسلوب عندما يريد وصف «التوتر» بين هؤلاء الذين جاءوا باسم السلطة، والفلاح الفقير الذي يضطر للخضوع لهم.

بهذه الطريقة ايضا يحاول تصوير مواقف الفلاحين المنافية للعقل وهم يستسلمون لكل ما يحدث لهم، دون اي محاولة للتحدي، حتى الشيخ الصغير الذي كان يتوقع منه ان يثور او يتخذ **موقفا** ما، يظهر مثل دون كيشوت، وفي النهاية يقبل مصيره صابرا، دون تساؤل. يعتبر «ستافسكي» هذا «الصبر على الخضوع» بلادة كاملة، وعائقاً امام اي تقدم يمكن ان يحققه القرويون لو غيروا اتجاهاتهم. الوضع الاقتصادي واحد من مجموعة عوامل تحدد هرم السلطة في القرية. هذا ما نلاحظه في العداء بين زعيم القرية الذي يدعى «مختار» ونائبه الذي يعتبر نفسه احق بالزعامة لولا انه اصبح فقيرا، ولكنه على اية حال قبل قدره بالكرامة التي تلائم رجلا من سلالة راقية.

في المسيرة التي تشكلت لاستقبال جامع الضرائب، يمكن للقارىء ان يلاحظ تمييزا دقيقاً بين طبقات الفلاحين، انهم يسيرون بنظام يعكس مكانتهم الاجتماعية، في المقدمة يسير المختار وكبار القوم، ثم رجال الدين، ثم المهنيون والخدم ثم الصبيان الصغار. **اما النساء فيتبعن المسيرة بعيونهن فقط**، يلفت «ستافسكي» الانظار الى الاطفال، وهو ما لم يفعله غيره من الكتاب. ويتحدث عن مأساتهم:

«عبثاً تتطلع اعينهم الى اعلى، لقد وهنت من شدة الحر ووطأة الجوع، عبثاً يتطلعون الى اعلى نحو السماء بصلاة صامتة، رغم ان الطريق الى الله وكلماته كانت غريبة بالنسبة لهم، عبثاً...» **(ص١٦)**.

بينما كان منظر الاطفال المحرومين مألوفاً بالنسبة لـ«شامي» و«بيرلا» لانهما عاشا في فلسطين، لم يكن ذلك مألوفاً لـ«ستافسكي» القادم من اوروبا.

http://www.al-maktabeh.com

موشي سميلانسكي:

عرضنا بالتفصيل لسيرة سميلانسكي الذاتية في الفصل السابق اثناء الحديث عن الخلفية التاريخية لهذه الدراسة. كانت قصة حياته الخيط الذي نسجنا به المادة التاريخية، هنا سوف نستعرض مجلدين يضمان خمسين قصة من قصصه «اطفال الجزيرة العربية» التي تتناول جوانب مختلفة من الحياة العربية في فلسطين.

هناك امران تجدر الاشارة اليهما قبل تحليل القصص، الامر الاول اختياره لاسم مستعار وهو «خواجا موسى»، وكلمة خواجا يطلقها العرب على الاشخاص الممتازين، التجار الاغنياء، السادة، الملاك... وباختياره هذا الاسم يكون «سميلانسكي» قد وضع نفسه في موضع متفوق، ينظر منه من **علٍ** الى العرب، وهذا ما فعله بالفعل في كتابته، وهو يخبرنا ان اصدقاءه العرب قد اطلقوا عليه هذا الاسم، **بهدف اظهار محبتهم** له. رغم ذلك يوحي اللقب بعدم التكافؤ بينه وبين اصدقائه.

الامر الثاني اختياره «اطفال الجزيرة العربية» عنواناً لروايته، وهذا يعني انه لم يفهم المعنى الكامل لهذه الكلمة، كما يقول «أ.ب. بولاك» في دراسته المثيرة للجدل حول أصل العرب في فلسطين. والعرب انفسهم **يستخدمون** هذا التعبير للدلالة على العرب البدو الذين يتحدرون من العرب الاصليين تمييزا لهم عن العرب الذين استقروا في المدن، ولكن «الحالوتزيم» الذين جاءوا الى فلسطين، ومنهم «سميلانسكي»، يشيرون الى كل العرب باعتبارهم «عرب الجزيرة العربية»، وقصص سميلانسكي، التي تحمل هذا العنوان، تتعامل مع العرب البدو والحضر في آن واحد.

سوء الفهم هذا، الذي قد لا يبدو مهمًا، كان مظهراً لاكثر من سوء فهم آخر بين العرب واليهود، الذين يعيشون متجاورين، وقد ادرك سميلانسكي ذلك، وعزا في سيرته الذاتية سوء الفهم بين الطرفين الى اربعة اسباب: أ ـ قوانين الارض، ب ـ العادات. حـ ـ العقلية د ـ اللغة.

وقد اعتبر سميلانسكي تلك الاسباب عوائق في طريق التفاهم بين **الشعبين**، وكصحفي، في غير مجال الرواية، فقد سعى **لفهم افضل بين الطرفين، وهذا نفس** اهداف رواياته، ومع انه يدعي ان قصصه «اطفال الجزيرة العربية» هي روايات تخيلية واساطير، الا ان الناقد **لايستطيع النظراليها من زاويةقيمتها الأدبيةوحسب**، بل كامتداد

مكتبة المهتدين الإسلامية

لكتاباته غير الروائية، لهذا قسمت قصصه الى اربع مجموعات، بهدف العثور على الافكار المهمة التي تتضمنها، ولتتبع موقف سميلانسكي منها..

في المجموعة الاولى نرى قسوة العادات والتقاليد العربية، وهذه المجموعة تضم قصص: لطيفة، عطا الله، محمد مسماري، محمد عذرا، رشيد العجوز، جندي، محمد ابو حدبة، كبش الفداء، فيصل، بنات الشيخ، رجب، بسبب امرأة، حسن، حمد وخالد، غزال **وغزالة**، الطفل، سخرية الشيطان، بكاء صالحية، حاج ابراهيم، برغش، المنفي وورق البردي.

ويمكن ان نضيف لهذه المجموعة سبع قصص اخرى، تصرخ ضد هذه القسوة الاجتماعية، وهذه القصص هي: خضرة، حطيط، زوجة الشيخ والمهر، شيطانه، فلاحين، انتظام الدم، موت قبلة. ولكن هذه القصص السبع تدور حول الفرد والحب.

يبين **سميلانسكي** ان الحب، المهدد من قوى خارجية، هو تجسيد لصراع الفرد ضد الظلم والظروف غير المعقولة التي يفرضها المجتمع من حوله. في جميع هذه القصص يعاقب الفرد على التمرد ضد الخضوع ورفض اوامر اولئك المتمسكين بالتقاليد، في معظم الحالات الراوي مستمع يهودي سلبي يتعاطف مع اهداف البطل.

قد يبدو ان تعاطف الكاتب هو اشارة الى اعتقاده بأن العرب بحاجة الى اصلاحات دينية واجتماعية. بذلك فقط يتحرر الفرد من القيود المفروضة عليه. ولكن الجرأة مطلوبة لتحقيق مثل هذا الاصلاح.وسميلانسكي لا ينفي عن العرب الجرأة، وهو يهاجم المجتمع الذي يسعى لقمعها، طبعا هو يعرف ان قراءه هم من اليهود، ولم يكن يأمل ان تصل كتاباته الى العرب، لان معظمهم كان اميا في ذلك الوقت، او على الاقل لم يكن يعرف العبرية. لذلك فاننا نفترض انه كان يريد ان يقول لقرائه اليهود انهم اذا كانوا مستعدين للاستماع الى مشاكل المجتمع العربي والتعاطف معها، فانهم سيكتشفون عناصر ايجابية، التي ان حظيت بالتشجيع، سوف تحقق الاصلاحات الضرورية.

من الجدير بالاهتمام ان نقارن بين موقف سميلانسكي من المجتمع العربي وبين رؤيته لمدى تطور حركة «**الحالوتزيم**».لقد حقق سميلانسكي **ومعاصروه** تغييرا جذريا في حياتهم في المنفى قبل هجرتهم الى فلسطين. لقد تمردوا على تقاليدهم وقوانينهم الاجتماعية والدينية، واتخذوا خطوات جريئة قادتهم الى فلسطين، وكان سميلانسكي

http://www.al-maktabeh.com

نفسه، كما رأينا في الفصل الاول، نموذجا لذلك. لذلك فقد تصور ان العرب قادرون بل ويجب ان يكونوا مستعدين، لتغيير مجرى حياتهم، كما فعل «الحالوتزيم»، وقد اعرب عن رأيه هذا في كتاباته غير القصصية، وفي سعيه الشخصي لتحقيق تفاهم بين العرب واليهود. ولذلك يحق لنا ان نفترض ان ذلك كان ايضا مغزى قصصه.

المجموعة الثانية من قصصه هي: ابو الكلب، حطين، محمد، محمد الراعي، ابو حوا، الشيخ والمهر، سعيد البدوي.

في هذه القصص يتعامل سميلانسكي مع شخصيات غريبة، في مظهرها وسلوكها، عمن حولها، القوانين العربية الخاصة بالسلوك الانساني، لا تزال بدائية غير مصقولة، ولذلك فهي لا تتسامح مع ما تعتبره ظواهر غير عادية، خارج الانماط المقبولة والمألوفة، والناس الغرباء عن العرب مرفوضون لا لشيء الا لانهم مختلفون عنهم.

من الجائز جدا ان يكون هدف سميلانسكي من وراء ذلك اقناع قرائه اليهود ان العرب **يعادونهم** لا لأنهم يهود، ولكن لانهم يختلفون عنهم في كل شيء. الراوي في هذه القصص ايضا متعاطف مع العرب وقادر على فهمهم. ومع ذلك هناك مسافة كبيرة بينه وبين بقية الشخصيات، لانه المتعلم **والمتنوربينهم**، والكاتب يوحي بذلك انه من خلال التعليم يمكن للعرب الاقلاع عن شكهم البدائي في الاجانب الذين يعيشون وسطهم، بما في ذلك اليهود. هذه القصص يمكن مقارنتها بقصة «ي. شامي» بعنوان «جمعة المغفل» حيث يرفض البطل لان الناس اساءوا فهمه.

في المجموعة الثالثة، يرى سميلانسكي ان وجود اليهود في فلسطين ليس امرا مرغوباً فيه وحسب، بل **وامرا حيويا** للعرب اذا قدر لهم ان يتقدموا. تضم هذه المجموعة قصص: مبروك، بسبب الارض، منتصف الليل، حسن عبد الهادي **ابو عيد**، رحيل رمضان، الضيوف، الشيخ عبدالقادر، والوثاق. هنا ايضا يعتبر سميلانسكي استيلاء اليهود على الارض منفعة للعرب. المجموعة الرابعة والاخيرة فولكلورية وهي: عائشة، عبدالهادي، ابو واوي، **ابو شعبان**، **انتقام حمدي**، **تل المحبة**، والنبي موسى.

لا شك انه ما كان لسميلانسكي ان يكتسب هذه المعرفة بالفولكلور العربي لولا اتصالاته الشخصية بالعرب، كما اشرنا في الفصل الاول. لم يكن «الحالوتزيم» يعرفون الكثير الكثير عن العرب وفولكلورهم قبل ان يأتوا الى فلسطين. واعتقد سميلانسكي ان

مكتبة المهتدين الإسلامية

معرفة الفولكلور العربي **ضرورية** لفهم الثقافة والعادات العربية. ويمكننا ان نفترض ان هدفه **اذاً** كان تعليم جماعته من «الحالوتزيم» والتأثير عليهم.

يمكن ان نجد سبباً آخر لاستخدام سميلانسكي للفولكلور العربي، وذلك من ملاحظات «م. ريجيف» حول تصوير العرب في كتب الاطفال. وفي رأي «ريجيف» ان استخدام الفولكلور وبطريقة غريبة يجعل من غير الضروري قيام علاقة وثيقة بين الكاتب والشخصيات، وعلى النقيض من ذلك فانه يؤكد على المسافة بين الطرفين. والواقع ان قصص سميلانسكي تترك القارىء على وعي بالفجوة الثقافية والاجتماعية والدينية التي تفصل بين العرب واليهود. ومع انه لا شك في ان هدف سميلانسكي التقريب بين العرب واليهود، الا ان هذه المجموعة تؤدي الى عكس الهدف.

ان المكانة التي يحتلها الفولكلور لدى معاصري سميلانسكي، يعبر عنها «ميوهاس»:

«العرب مهمون لنا، نحن اليهود، لان روحهم وطريقة حياتهم مشابهة لاجدادنا في عصور التوراة. الفلاحون احفاد الكنعانيين هم اقدم سكان «ارتز اسرائيل»، وهم الذين حافظوا تماماً على العادات والخصائص القديمة التي نسيناها بسبب طول اقامتنا في المنفى، وبمعرفة هذه التقاليد يمكننا فهم كثير من المقاطع الغامضة في كتاب الكتب، لهذه الاسباب نعتقد انه يجدر بنا ان نعرف القارىء اليهودي بشكل عام، والصغير بشكل خاص، بتفاصيل الحياة العربية، وبالاساطير والقصص العربية، من خلال ذلك يمكننا ان نرى مدى قربهم منا نحن اليهود».

ان نظرة الى **النقاد** الذين كتبوا عن سميلانسكي تفيدنا بأنهم قيموا كثيرا مواقفه من العرب، ولكن احداً منهم لم يشر الى هدفه التعليمي كما اشرنا اليه. قال «بن اور» عن اسلوب سميلانسكي في «اطفال الجزيرة العربية»انه انساني، وفي رأيه ان «هذه القصص تفتح بوابات العالم العربي للقارىء اليهودي الغربي».

ولقد اشاد «موريس سيمون» لدى تقديمه للترجمة الانجليزية من قصص سميلانسكي، بقدرته على تصوير الحياة العربية بهذه الدرجة من الفهم:

«لقد تعرف عن قرب على الحياة العربية في فلسطين، ووصفها في كثير من قصصه بتعاطف نادر، واستبصار، ومهارة ادبية، يندر ان نجدها عند العرب انفسهم».

http://www.al-maktabeh.com

وفي كتابه «تاريخ الادب العبري» كتب «واكسمان» عن سميلانسكي وقصصه ما يلي:

«. . . ان قصص **«اطفال الجزيرة العربية»** هي انتاج فلسطيني رائع بطابع الروح الشرقية. لقد صور وحشية الحياة العربية من كل جوانبها، حياة الفلاحين والبدو، بشكلها البدائي، الذي لم يتلوث بالحضارة الغربية، اما العلاقة مع اليهود فقد صورت بشكل سلمي، حتى ان العربي يعبر عن دهشته لانجازات اليهود. اسلوبه حيوي مرن متكيف جيدا للوصف ويزيد من قيمة قصصه».

يعتقد «هالكين» من ناحية اخرى ان لدى سميلانسكي دافعا **ضميرياً** لاستغلال الغرابة كهدف في حد ذاته وليس كتوحد ابداعي مع الشخصيات. حتى **«احادهاعام»** صديق سميلانسكي الكبير، في رد فعله على نية سميلانسكي جمع اعماله الصحفية مع مذكراته، **ادرك ميل صديقة للمبالغة:**

«ان هدفك من جمع مقالاتك ومذكراتك في مجلد واحد، يتحدث عن ارض اسرائيل ومستوطناتها، امر جيد، ولكن اياك والميل الى المبالغة. اتذكر انك يوما وقعت في هذا الفخ. ان ما لا يعتبر جريمة بحق الصحفي يعتبر كذلك في حق كاتب المذكرات، لانها قد تعتبر يوما مصدر بحث تاريخي».

في معظم هذه القصص هناك راوٍ يعرض القصة ويدعو القارىء الى المتابعة والاستماع. هذا يعني ان القارىء مدعو لرؤية ما يراه الراوي، لان الاخير يضعه في احدى زوايا المشهد ولا يستطيع ان يرى اكثر من القصة التي يراها من ذلك الجانب، كما لا يستطيع ان يرى اكثر من ملامح **او** يسمع اكثر من حديث الناس هناك. ويتدخل في مجرى القصة ويعمل كمرشد يعتمد عليه الى عالم القصة التي يظهر فيها، والى الحقائق الاخلاقية خارجها. والمناجاة تقطع من وقت لآخر **بالحوار:** الشخصيات العربية تستخدم الكلمات العربية في حديثها، وقد وضع قائمة بها وبترجمتها في نهاية كل مجلد من المجلدين.

من بين المشكلات الرئيسية التي تشغل كتاب العبرية **المحدثين** انتاج حوار يومي باللغة العبرية الفصحى، ولكن سميلانسكي يتخلص من هذا المأزق، لانه في المراحل الاولى للاستخدام اليومي للعبرية، لم يكن الفرق كبيرا بين الكلمات المكتوبة والمحكية، كما هو الحال اليوم. كانت اللغة المحكية على مستوى رفيع، ولذلك لم تكن كتابة حوار

مكتبة المهتدين الإسلامية

باسلوب ادبي رفيع تبدو افتعالا، لذلك فان لغة سميلانسكي التوراتية كانت منسجمة مع العصر، وهو لم يكتف بذلك، بل استحضر الظروف التوراتية ونثرها عبر قصصه.

تأثر سميلانسكي بالحركة الادبية الرومانسية. كان ابطاله في العادة متمردين على مجتمعهم، اما هو فمراقب. تتضمن المادة الرومانسية**عناصرمثل الماضي القومي** والغرابة، واللون المحلي، وتقدير بل عبادة الطبيعة. الطبيعة تلعب دوراً خاصاً في الرومانسية اذ انها تؤثر على المشاعر الداخلية للشخصيات، كما ان طريقة عرضها تساعد على التنبؤ بالاحداث.

خلاصة القول ان تحليل المجموعات الاربع من القصص يشير الى **أن** الهدف من ورائها كان تعليمياً. في معظمها يكون الراوي بجانب العرب بهدف المقارنة بين الطرفين، ومع ان الحكم على قصص سميلانسكي كامتداد لآرائه التي عبر عنها في كتاباته الصحفية، ليس الطريقة الوحيدة للنظر اليها، الا انها تسمح بهذا التفسير. ان اتجاهات سميلانسكي نحو العرب **معروفة**جيدا في كتاباته غير القصصية، ومع انها قد لا تكون بالضرورة متماثلة مع مضمون قصصه، الا ان القاء الضوء على واحدة منها يمكن ان يساعد في القاء الضوء على**الاخرى**.والدراسة المتأنية لكليهما يقود الى استنتاج منطقي يقول بانسجامهما.

ناحوم ياروشاليمي:

ولد في روسيا. اثناء دراسته العلمية اصبح نشيطاً في حركة «تسيري تسيون»، هاجر عام **١٩٠٥** الى فلسطين، حيث تأهل اولاً كمدرس، ثم كمحام. عمل مدرساً في القدس لعدة سنوات، ثم في تونس فترة من الزمن، وفي عام **١٩٤٥** نظم اول مجموعة صهيونية من اليهود التونسيين للذهاب الى فلسطين. تدور كتاباته حول حياة اليهود الشرقيين، وهو امر غير مألوف بالنسبة لكاتب اشكنازي، وقد عبر «عيزرا هامناحيم» في مقتطفاته عن دهشته لذلك، سيما وان هناك كثيرا من العداء بين الطائفتين السفاردية والاشكنازية. ولم يكن في ذلك الوقت مجال للتقريب بينهما. والجدير بالذكر ان سميلانسكي قلما اشار الى هذه المشكلة الاجتماعية بشكل خاص في سيرته الذاتية.

http://www.al-maktabeh.com

أهـدى «ياروشاليمي» قصته «ميركادو سائق **الحمار**»، الى الجماعة السفاردية التي طردهـا العـرب، كما يشـير الى ذلـك العنوان الفرعي «قصة حياة اليهود الشرقيين في الخليل». (عام **١٩٢٩** ذبح العرب اليهود في الخليل وطردوهم نهائياً من المدينة).

هذه الـرواية القصـيرة هي قصـة حب. البـطلان فيهـا «اليجرينا» ابنة الرابي «شبتاي»، الطيب اللطيف، و«ميركادو» اليتيم الفقير الذي يحقق حلمه الذي عاش معه منذ الصغر بالزواج ممن يحب، وممن بقي لها مخلصاً طيلة حياته.

توفي والد «ميركادو» عندما كان صغيرا، وتمردت امه على تقاليد «الجيتو» اليهودي في الخليل، ورفضت ان تصبـح عالـة على المسـاعـدات المالية البسيطة التي تخصص للأرامـل من قبل «كوليل». (**الكوليل** منظمات كانت تقدم الاعانة للرجال **المتزوجين** الذين يستمرون في دراساتهم التلمودية).

في فترة مبكـرة كان يهود «اليشـوف» يعتمـدون على المسـاعدات التي تتبرع بها الجماعات اليهودية في الاقطار التي قدموا منها، وتدعى «حالوكاه»، ولكن اليهود الشرقيين لم يكونوا يعتمدون على ذلك الى نفس المدى.كانت منظمات «الكوليل» الشرقية تقتطع جزءاً من الـدخـل لاغـراض الانفـاق العام، بينما «الكوليل» الغربية كانت تخصص المساعدات لطلاب الدراسات الدينية فقط.

تركت ام «ميركادو» واسمها «**سارينة**» الجيتو لتعمل في غسل الملابس لدى بعثة مسيحية، رغم معارضة جماعتها اليهودية، وعندما ماتت ورث عنها ابنها الاعتماد على الذات، واصبح سائق حمار، مخالفا بذلك ايضا التقاليد اليهودية، التي تعتبر هذه المهنة مهينة لانسان من عائلة دينية.

بسبب فقره اعتبر الناس حبه لـ«اليجرينا» وقاحة. وعندما عرف بذلك توقف عن مقـابلتها لمصلحتها. كانا **صديقي** طفولة. والد «اليجرينا» درس «ميركادو» مقابل ان يخدمه هذا في اعمال البيت، كان يساعده في اعمال الشراء، ويصاحبه على الطريق. كان والدها قد كبر في السن، واصبح نصف اصم.

«اليجـرينـا» مغنية رائعـة، وقـد اظهـرت موهبتها للمرة الاولى امام «ميركادو» واصبحت صداقتهما حباً جميلاً بريئاً.

تبدأ القصة مع مطلع الحرب العالمية الاولى. لذلك فهي تحدثنا عن معاناة اليهود في فلسـطين وهم ينتـظرون ان يحررهم الجيش البريطاني من نير الامبراطورية العثمانية.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الخليل تعتمد على القدس لتوفير السلع الاستهلاكية. وكان «ميركادو» ينقل تلك السلع على حماره بين المدينتين. وبذلك كان يعرض حياته للخطر، ولكنه في نفس الوقت كان يوفر مبلغا من المال يمكنه من الزواج من «اليجرينا». حتى بداية الانتداب البريطاني كان النقل مقتصراً على سائقي الحمير. كانت الخليل تزود القدس بالسلع الغذائية وفي المقابل تشتري منها السلع المصنعة والمستوردة، والسلع الكمالية. كان اهل الخليل يعتبرون قرويين. كانوا ينظرون نظرة حسد الى القدس «البلدة الكبيرة». حتى المغنون كانوا يأتون من القدس. المشاهد التي يصفها الكاتب، والتي يقابلها «ميركادو» في طريقه تشكل افضل اجزاء القصة. لا يتعمق «ياروشاليمي» بعيداً داخل شخصياته، ولكنه يصف بالتفصيل حياتهم وعاداتهم ومعتقداتهم وخرافاتهم.

اسم «ميركادو» نفسه مثال على الخرافة. اسمه الحقيقي «يوسيف»، ولكن، بعد وفاة والده اسمته امه هذا الاسم. كانت اعادة التسمية في ذلك الوقت **تهدف الى تضليل ملك الموت، الذي اذا جاء ليقبض روح انسان معين، احتار في امره لانه يجد انساناً آخر.**

من الخرافات ايضا قيام جدة «اليجرينا» بجمع الصدقات من ثمانية عشر يهوديا كلهم يسمون «موشي»، بهدف شراء حلقة انف للطفل الجديد، وبذلك تؤمن استمرار بذرة ولدها. من ذلك ايضا استحمام النساء العواقر في ماء غدير «المزروق» الذي كان يعتقد ان لمياهه اثراً سحرياً.

يوضح الكاتب هذه الخرافات، من خلال تدخله اثناء السياق. ينتقد «ياروشاليمي» في قصصه الممارسات الفاسدة التي كان زعماء الجماعة اليهودية يقومون بها اثناء اشرافهم على اموال «الكوليل». وهو يردد تذمر الفقراء والمحرومين، خاصة الارامل الصغيرات، اللواتي يعتمدن فعلا على ذلك الدعم. كانت النساء خاضعات كلياً للرجال في ذلك المجتمع الابوي، وكان ذلك هو السبب الذي جعل **«سارينة» ترفض الزواج ثانية، بعد ان جربت الاستقلال:**

«رفضت ان تسلم نفسها ثانية لزوج جديد، لانه قد يصبح اميراً عليها حاكمًا سيداً يخضع جسدها وحياتها لرغباته» (ص١٠).

http://www.al-maktabeh.com

كانت الحياة في «جيتو» الخليل، كما يصورها «ياروشاليمي» خاضعة لقيود دينية واجتماعية قاسية. وفوق ذلك لم يكن هناك خصوصية للناس، فالكل يعرف الآخر من الطفولة، حتى انهم يظهرون كعائلة واحدة:

«في جيتو الخليل قد يعرف كل شخص ما يجري بالضبط في بيت جاره».

هذا الاحساس بالتقارب يغذيه الاحساس بالحصار الذي يوحي به وجود الحائط والبوابات التي تغلق كل ليلة. داخل جدران الجيتو شبكة من الطرقات الضيقة المتعرجة، والبيوت المتقاربة. معظم البنايات تتكون من ثلاث طبقات، وعلى السطوح تنشر النساء الغسيل. هذا هو المسرح الذي يقص منه «ياروشاليمى» افراح واتراح الناس الذين يكتب عنهم. انه يخبرنا ان الحياة داخل الجدران منفصلة تماماً عن حياة العرب خارجها، رغم ان الشوارع في كلا المكانين ضيقة متشابهة، وحركة الناس والحيوانات في كليهما سريعة.

معظم اليهود الشرقيين كانوا يتكلمون «اللادينو» بين انفسهم، وهي لغة اسبانية مكتوبة ومحكية، وقد طورها اليهود من اصل اسباني، كما يؤكد ذلك «أ. كوهين». ولكن يهود الخليل كانوا يتكلمون العربية ايضا، لانهم يحتاجون اليها في تعاملهم مع العرب، كانت العلاقات بينهما جيدة في البداية، كانت تصل احياناً درجة الصداقة الحقيقية، كما حدث مثلا بين الحاخام «شبتاي» والشيخ الغني صاحب النفوذ «عبد الحافظ» احدى الشخصيات المسؤولة عن قبر الآباء.

يحاول «ياروشاليمي» اظهار صدقه باستخدام كلمات غريبة بالاسبانية والانجليزية والعربية والتركية. وهو يوضح ويترجم تلك الكلمات في الهوامش.

هناك تشابه بين قصة **«ياروشاليمي»** هذه وروايته الاخرى «ارملة سلفر سميث». في كلتيهما البطل يتيم وامه مظلومة من المجتمع، وفي كلتيهما البطلة مغنية، وكلتاهما جرت احداثهما في الحرب العالمية الاولى، وبالتالي فهما تدوران حول معاناة اليهود في تلك الفترة. في تقديمه لقصة «ميركادو سائق الحمار» يشير «ياروشاليمي» الى ان بقاء اليهود يعتمد على قوة مشاعرهم القومية. وهو يحاول اثارة هذه المشاعر من خلال تصوير التقاليد القديمة التي تقيد المجتمعات اليهودية في الخليل، حيث جرت احداث القصة الاولى، وتونس حيث جرت احداث القصة الثانية. وهو كان يعرف المكانين جيدا، لذلك فقد كتب بالتفصيل عن حياة الناس الداخلية فيهما.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ياكوف رابينوفيتش:

ولد في «فولكوفيسك» في لتوانيا، في عائلة دينية. درس في البداية في كليات التلمود (اليشيفوت) ثم ذهب الى سويسرا لدراسة **الآداب** الالمانية والفرنسية والسكندنافية، وذلك من عام **١٩٠٠ - ١٩٠٤**، هناك بدأ حياته الادبية. كتب بالالمانية اولا ثم بالعبرية، في معظم الدوريات، ومن سويسرا ذهب ليعيش في روسيا حيث اصبح عضوا نشطا في حركة محبي صهيون «حوفيفي زيون» واستمر في الكتابة.

زار فلسطين عام **١٩٠٥** ثم عام **١٩٠٧**، واستقر فيها نهائياً عام **١٩١٠**، وفيها التزم **بالعمل** مع حزب «هابوعيل هاتسعير»، واصبح واحدا من الكتاب الدائمين في مجلته الادبية، كما كتب في مجلات اخرى.

وقد اسس مع صديقه «اشر براش» مجلة تصدر كل شهرين واسمها «هيديم»، التي اصبحت منبراً ادبياً لافكار **الهجرتين الثالثة والرابعة**. الى جانب الكتابة، ترجم «رابينو فيتش» كثيراً من الاعمال الادبية ذات التأثير الخاص عليه وعلى عمله، كما كتب الشعر باسم مستعار هو «ن. زوتاري».

عاش حياة خاصة منفردة، لم يتزوج ولم يهتم بتكوين ثروة خاصة، كانت الامانة والاخلاص اهم مميزاته. والى هذا اشار «اشر براش» في رثائه:

«كان قلبك نقياً، كنت رجلا مستقيمًا لانك كنت صريحاً في حبك وكراهيتك. لم تكن تتقبل الكذب، لا في الحياة ولا في الادب، ولا في الشؤون العامة والقومية».

كان «رابينو فيتش» قد قتل في حادث طرق عند تل ابيب.

يبدو اخلاصه في روايته «عماسي الشومير»، التي ينتقد فيها بحدة الحياة في فلسطين. هذا الاسلوب على نقيض تام مع التحيز الذي ابداه **معاصروه**. في كتابه عن «ي. ج برينر» يشير «د. بن ناحوم» الى ان كل شيء كتب قبل ان ينشر «برينر» وصفه المثير للجدل لليشوف (يعني بذلك قصص بعض الكتاب من امثال **«يابيتز»** وبارز بلاي وسميلانسكي) كان رومانسياً معجباً بحياة اليشوف. «عجنون» ايضا لاحظ تشابه وجهات النظر بين «رابينو فيتش» و«برينر» عندما كتب كلاهما عن اليشوف.

يلاحظ «ج. شاكيد» ان هجوم «برينر» على الفساد الاجتماعي المنتشر في اليشوف يصل الى درجة تصبح معها شخصياته غريبة غرابة الخيال، انهم يتنقلون باستمرار سعياً وراء مصير افضل. واثناء **ترحالهم** يواجهون واقعاً مزعجاً يثورون ضده، ولكنه يظهر ان

http://www.al-maktabeh.com

تنقلهم من مكان كريه الى آخر لا يخلصهم من التعاسة، هذه الشخصيات قريبة الشبه من شخصيات «رابينو فيتش» في روايته التي اشرنا اليها. بالمناسبة هناك ست عشرة رسالة، لا زالت موجودة، كتبها «برينر» الى «رابينو فيتش»، تهتم معظمها بجوانب معينة من كتاباته المختلفة.

تغطي رواية «عماسي الشومير» عشر سنوات تمتد من الهجرة الثانية الى مطلع الحرب العالمية الاولى (من ١٩٠٤ - ١٩١٤). ولكنها كتبت بعد خمسة عشر عاماً من ذلك التاريخ. بطل الرواية من منظمة «هاشومير»، واسمه «عماسي» من الاسماء التوراتية. كان احد محاربي الملك داود، وقد قتل على يد «يؤاب». وقد رأى اعضاء «هاشومير» انفسهم كمقاتلي الملك داود، يقومون بعبء الدفاع عن النفس في اطار المسيرة التاريخية نحو عودتهم للاستقرار في ارض الاجداد. كانوا يعتقدون ان العمل العسكري لا بدّ منه، ولكنهم املوا ان يكون ذلك اجراء مؤقتاً، وان العرب في النهاية سيقبلونهم. ولكن حتى يأتي ذلك الوقت فقد اتبعوا نظاماً متشدداً، قال احدهم لـ«عماسي»:

«انت احد اعضائنا. هل هناك نظام في العالم ام لا؟ باسم جميع الاعضاء آمرك ان تذهب معي غداً الى «السامرة».

. . . قال «عماسي» وقد ادى التحية العسكرية: «اذا كان الامر كذلك فأنا ذاهب»، (ص ٩٩).

لم يستطع «عماسي» ان يتكيف تماماً، وحاول الهروب مرتين الى الصحراء، ليواجه احباطاً جديداً. لقد ارتحل بحثاً عن حل مثالي لوضع مقلق. واعتقد ان ذلك يمكن ان يتحقق فقط «اذا حملت يد المحراث والاخرى السيف». وهذا تعبير عن فكرة «رابينو فيتش» حول ضرورة اقامة توازن؛ بين السعي اليهودي للدفاع عن النفس وبين العمل اليهودي. ولكنه وجد الواقع بعيدا عن هذه الفكرة، ولذلك ذهب بعيدا في احلامه ورغباته. كان «عماسي» متأثراً بيهود «خيبر» الذين عاشوا بالسيف في صحراء الحجاز. واعتقد ان ما يحتاجه اليهود في اليشوف هو «تطبيع الحياة اليهودية حتى يظهر اليهودي البدوي»:

«نحن نعيش على حواف الصحراء. وحسب معلوماتنا ان هناك كنوزاً تنتظر من يكشف عنها . . يحتاج اناس امثالنا الى الوحشية والمتوحشين، نريد ان نجدد دماءنا . . . البدوي اليهودي هو المطلوب . . . وبدون ذلك لن نتحرر» (ص١٠٠).

مكتبة المهتدين الإسلامية

يصل «عماسي» درجة الانجذاب الصوفي وهو يسعى في الصحراء، الى حد التخيل انه عثر على البدوي اليهودي فعلاً:

«عدة مئات ممن يركبون الجمال طاروا كالنسور، مروا كالغيم في الرياح. شعورهم الطويلة وطيات عباءاتهم كانت تسبح في الفضاء، ورماحهم تلوح، وجمالهم تصم الآذان بشخيرها **المزعج**»(ص١٩٦).

لقد عرف انهم من البدو العرب. وتبددت اوهامه عندما اخبر ان «يهود خيبر» هو اسم اطلق على الغزاة المسلمين في الصحراء. عندها لم يجد بداً من العودة الى مشاكل «اليشوف» الذي حاول الفرار منه.

مثل هذا البحث عن مقاتلين يهود اسطوريين يخلصون يهود اليمن وجد عند «بيرلا» في قصة «**ظلام** المعاناة»، عندما تبددت احلام «آبايهيا» اذ لم يعثر على قبائل بدوية يهودية. ويمكن ان نستخلص من القصتين مغزاهما وهو ان التحرر عملية داخلية **يحققها** الانسان بنفسه وليس عن طريق الآخرين.

يشير «ي. **بن عيزر**» الى ان ذهاب «عماسي» الى الصحراء قد استند الى رحلة حقيقية قام بها عالم الحيوان «ي. اهاروني» الذي رافقه **الصياد**«حزقيال» بحثاً عن الحيوانات النادرة. في قصة «رابينو فيتش» فقط، يصبح «عماسي» هو الشخصية التي تتبنى احلام «هانكين» حول يهود خيبر:

«كانت رحلة الحجاز طموحاً لدى حزقيال هانكين منذ التقينا لاول مرة. في اكثر من مناسبة اسر بأفكاره لي: ان نكون عصابة من اليهود البدو نسكن الصحراء كما يفعل العرب، ونحمي حدودنا. وقد اصطحبني ليس فقط للمساعدة في البحث الحيواني، بل ربما ليتعلم اسلوب الحياة القديمة الرومانسية، حياة المحاربين في الصحراء، البدائيين الاحرار، الذين لم يخضعوا يوماً لسلطة دولة. . . . تلك القبائل حافظت على نمط حياة اسلافها منذ عهد ابينا ابراهام حتى اليوم. وما من شيء يقربنا الى ايام اسلافنا مثل ذلك. هل هناك اكثر مثالية من هذا: ان نتعرف على جذور هؤلاء الناس الرحل، ان نفهم سر اعتمادهم على النفس، وان نلاحظ عن قرب عاداتهم، وان نعمل، ربما، على مضاهاتهم، ان نجدد «روابط العائلة الاولى» بين ابناء السيدة والخادمة».

لقد اوردنا هذه الفقرة الطويلة لانها تكشف عن حادث واقعي استندت اليه رواية «رابينو فيتش». لقد قيل ايضا ان شخصية «عماسي» لم تستند الى «حزقيال هانكين» وانما

http://www.al-maktabeh.com

الى «موردخاي يجآل» (المولود عام ١٨٨٠) من كيبوتز «حفتزي باه». بغض النظر عن ذلك كله، كثير من الناس يعتقدون ان قصة «عماسي» هي من القصص الرئيسية التي توصف فيها شخصيات واحداث واقعية ولكن بأسماء مختلفة.

هذه الفقرة المذكورة سابقاً تعكس ايضا معتقداً كان سائداً وقتها، وهي ان العرب هم في الحقيقة قبيلة يهودية قديمة، ويجب ان يذوبوا تدريجيا في المجتمع اليهودي العائد. وفوق ذلك كان اعتقاد بأن العرب هم اخوة اليهود من ناحية عرقية. يشير «ي. بن عيزر» في مقابلة حول المشكلة العربية في الادب العبري الحديث، الى ان «اسرائيل بلكانيد» احد مؤسسي جماعة بيلوم، وممن هاجروا الى فلسطين قبل الهجرة الثانية، كان هو اول من طرح فكرة ان عرب فلسطين هم من نسل اليهود القدماء، ولكنهم اعتنقوا الاسلام فيما بعد. ولذلك فقد اعتبرَ ان من واجب اليهود القادمين ان يعيدوهم الى اليهودية.

هذه الاسطورة وجدت عند اكثر من اديب من ادباء تلك الفترة. وقد تضمنتها نبوءة الرابي «بنيامين»:

«وعندما تأتي لتسكن ارض آبائك، لن تأتي اليها كخصم او عدو، بل يجب ان تسعى الى السلام مع سكانها لانهم اخوانك لحمًا ودماً، يجب ألا تتجاهلهم. وفيما سيأتي من ايام سيكونون مثلك وكأنهم عنصر واحد. يجب ان تأخذ ابناءهم ويأخذوا ابناءك. ويجب ان تمتزج دماء ابطالهم بدمائك، وستتكاثرون وتصبحون اقوياء».

على اية حال، رغم ان «عماسي» شخصية روائية، الا انه يعتبر نموذجا لاولئك الذين يستطيعون اجتياز عملية التمثل. لقد ولد في «ارتز اسرائيل»، واندمج جيدا في بيئته، يبدو كعربي لباسا وحديثا، وصديقه المقرب، بدوي عربي، وعلى النقيض من المهاجرين اليهود فهو يقبل المنظر العربي كأمر طبيعي. ولكن هل يجسد الصفات الحقيقية التي يريدها الكاتب لليهودي الجديد؟ كل الدلائل تشير الى ان الجواب بالنفي.

«عماسي» تهزمه احلامه، والواقع يبدد اوهامه. يخفق في الالتزام بمبدأ «الهاشومير» طيلة الوقت، يخفق في العثور على يهود خيبر، يخفق في العثور على الاسلوب المثالي للحياة، يخفق في متابعة حبيبته «همدال»، واخيرا يخفق في توضيح القضية الصهيونية. يقضي حياته كلها في الانتقال من حلم لآخر، ولكن لا يقوده اي منها الى اي شيء ايجابي او بناء. حياة «عماسي» هي تلخيص لعجز الاحلام عن ايصال الانسان الى نتائج ذات

مكتبة المهتدين الإسلامية

معنى. وهذه دعوة صريحة من الكاتب لليهود للتوقف عن احلامهم الرومانسية، كما عبر عن ذلك احد ابطال الرواية:

«آه، لقد انفجرت كالبالون كل تلك الاحلام والآمال وقصور الهواء. جئنا هنا مليئين بالتوقعات والاحلام والخيال والوعود والطموح..العمل! هكذا صرخت ارواحنا للارض. الالتحام بالطبيعة في الارض الموحشة. كم عمل الشباب وكم عانوا! والآن يقول «بارازون» كل ذلك كان حلمًا فارغاً» (ص٨٨).

يستخدم «رابينو فيتش»، شأنه في ذلك شأن «برينر»، الهجاء والسخرية للتعبير عن انتقاده للاسلوب الرومانسي الذي يأسف له. ويترك القارىء ليكتشف بنفسه التناقض بين الواقع والمظهر الخارجي. في البداية يقدم البطل كرمز للبطولة، ولكن الراوي يتقدم بعد ذلك ليكشف ان ذلك كان مجرد اسطورة وهو يخلق بطولته الاسطورية لان اليهود بحاجة الى ابطال، ولان حياته غير عادية فمن السهل ان تمنحه صفات البطولة:

«لم يكن احد ليتصور بطولة «عماسي» مبالغاً فيها او غير حقيقية، لان القلب اليهودي كان متعطشاً للبطل وللمعجزات... الشعب يريد اسطورة، والناس لا يعيشون بلا ابطال» (ص٣٤).

وبأسلوب هجائي يصف «رابينوفيتش» الهالة التي احيط بها «عماسي»:

«نظر اليه الشباب بوجد صوفي، وحتى بحسد، ونظرت اليه النساء والفتيات بحب وامتنان. كل دقيقة يكتشفن فيه جمالاً جديداً. عيونه كانت ساحرة، ويداه نبيلتان، ووجهه كريم، اما ملامحه فهي كبطل قديم. يمتطي حصانه كفارس رشيق، ويقفز بسرعة كنمر. كان بشكل عام كبدوي الصحراء. اي عبرية يتكلمها! اي سحر في لهجته! ضحكاته كانت تأسر القلوب. لقد التهموه بأعينهم، لو مدّ يده ليقطف من شجرة الحياة، لسقطت في راحته كل ثمارها قبل ان تصل يده اليها. تشكك في ذلك كثير من الناس، ولكن كثيرا منهم صدقوا بذلك. اخيرا اعطت الارض محصولها، وظهر بطل في ارض اسرائيل. اي بطل متواضع! كأنه احد الاتقياء الـ«٣٦». من يدري ماذا مخبأ لنا ايضا في هذه الارض؟ تفكر، ان ارضنا ذات امكانيات غير محدودة، قال احد الكتبة الذين يفضلون استخدام التعبيرات الحديثة» (ص٣٠-٣١).

http://www.al-maktabeh.com

في الحقيقة ان اصل «عماسي» وخلفيته وشخصه امور مبهمة. في الفصل التاسع عشر فقط نعثر على اول وصف لمظهره. هكذا تمتزج الحقيقة بالاسطورة في حياة «عماسي»، وتمتزجان في القصة نفسها: تعبر الشخصيات عن عقيدتها بطريقة واقعية، ولكن الكاتب يسلح البطل بادوات اسطورية خيالية.

في تحليلهما لاعمال «رابينو فيتش» يرى «تورين» و«روبنسون» انه بقدر ما كان عقلانياً في كتاباته غير الادبية كان رومانسياً في رواياته. ولكن العقل والخيال يمتزجان في هذه القصة بالذات، ربما لذلك لم يذكر اسم اي مستوطنة من المستوطنات التي كتب عنها، انها تقدم كنماذج وليس كأماكن حقيقية، كذلك الشخصيات. وقد يرى البعض رابطة منطقية بين فصول قصته، الا ان بناءها موضع تساؤل. انها حول المجتمع ومشكلاته وليس حول افراد وهمومهم. ولا يقلل من صدق ذلك مزجها الحقيقة بالخيال.

آمن «رابينو فيتش» بأهمية الدور الاجتماعي للكاتب. وقد اكد ان مهمته تحريك القارىء ليحارب انحطاط حياة المنفى، ويعتبر العمل اليهودي عاملاً رئيسياً نحو تحقيق ذلك الهدف:

«**المهمة الاجتماعية** لكاتب مثلي، كرس حياته للادب، هي **تجديد** حيوية الشعب التي افسدتها حياة المنفى، وغرس فكرة العمل اليهودي بين اليهود».

عالم «رابينو فيتش» عالم هجائي ينتقد فيه، ويكشف القناع عن فساد عالمنا. وفيما يلي الميادين التي شن عليها هجماته:

١ ـ انحطاط بعض اعضاء الهاشومير. **لقدافتتنوا** كمعاصريهم الروس بالشبق الجنسي، وانحطت معاييرهم الاخلاقية نتيجة خيبة املهم بالثورة الروسية.

٢ ـ التمييز بين السفارديين والغربيين الاشكنازيم، الذي ادى **الى ظلم الطائفة** الأولى.

٣ ـ الخصومة بين المزارعين المستقرين والعاملين القادمين حديثاً.

أما اسلوب الكتابة فهو يعكس المراحل الاولى للكتابة بالعبرية قبل ان تصبح لغة الحياة اليومية. وفي الفقرات التي يدخل فيها الكاتب افكار معاصريه، يستخدم اساليب متنوعة بما في ذلك استخدام كلمات غير فصيحة، **للتأكيدعلى** العناصر الواقعية. ومعظم اساليبه تعتبر الآن قديمة مهجورة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

يقدم الراوي نفسه ككاتب، ويعطي لنفسه الحرية في التدخل في مجرى القصة. في اول ١٤٣ صفحة يتكلم عن احداث حدثت في الماضى. تشكل الفصول القصيرة **سلسلةمترابطة**، تقود الواحدة منها الى الاخرى.

تلخيصاً لذلك نقول: باعتبار اليشوف محور القصة في تلك الفترة، ليس غريباً أن تكون اشارة «رابينو فيتش» الرئيسية للعرب، في معرض علاقتهم بالعمل اليهودي. وهو لم يعارض عمل العرب لذاته، ولكن لانه ينظر الى المسألةمن زاوية **عملية**، **وبشكل متحيز** لجانب واحد ملتزم به. انه يفعل ذلك كعضو في اليشوف يعيش مشكلاته.

على صعيد آخر، فان اعجابه باسلوب الحياة البدوية العربية، اعجاب رومانسي يرتبط باعتقاده ان العرب واليهود من اصل واحد في الماضى ويواجهون مصيراً واحداً في المستقبل.

اسرائيل زارحي:

ولد في بولندا حيث تلقى تعليمًا دينياً وعلمانياً. ولكن مرضاً شديداً حال بينه وبين متابعة الدراسة، عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. ذهب الى ايطاليا لمدة عام واحد ليعوض الخسارة. بعد عودته الى بولندا اصبح «حالوتزا» وذهب الى مزرعة للتدريب في «جيروكوف» قرب وارسو، حيث امضى عاماً قبل هجرته الى فلسطين.

بالرغم من مرضه السابق عمل في بيارات الحمضيات، وفي كيبوتز «جيفات هاشلوشاه»، حيث بدأ في سن الثالثة والعشرين، حياته الادبية.

قبل نصيحة الشاعر «بياليك» ودخل الجامعة العبرية، وبعد اكمال دراساته عمل في سكرتارية الجامعة حتى وفاته.

كان غزير الانتاج، وخلال السنوات الخمس عشرة من ابداعه، نشر اربعة عشر كتاباً ادبيا، منها ست روايات طويلة، لذلك اعتقد بعض النقاد انه ضحى بالنوع من اجل الكم، «وان رغبته الجامحة في مقاومة الزمن، قد كانت على حساب الانجاز الادبي الجمالي».

موضوع رواياته هو الصعوبات التي واجهت المهاجرين اليهود في سعيهم للاندماج. والى جانب ذلك فقد اهتم بموضوعين آخرين: العلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة، والثاني القدس. هذان الموضوعان يظهران في «قرية سلوان».

http://www.al-maktabeh.com

في هذه القصة يكتب «زارحي» عن معاناة اليهود الذين قدموا الى فلسطين من اليمن في نهاية القرن الماضي. وقد قرأ «زارحي» من اجل الكتابة عن ذلك الموضوع، الكثير من المادة التاريخية، كما اشار هو بنفسه الى ذلك في احدى يومياته ١٩٤٥/١/٢٤:

«لقد غمرت نفسي تماماً في دراسة حياة اليهود اليمنيين ومراقبة عاداتهم... ان ايامهم الاولى في «آرتز اسرائيل» مغلفة بسحابة كثيفة.لم يحتفظوا هم ولا اصدقاؤهم بسجلات اجتماعية، وكان من الممكن ان ينتهي كل شيء الى النسيان، لولا ان تصديت لتلك المهمة في اللحظة الاخيرة... بدأت بجمع تراثهم قبل ان يضيع الى الابد» (ص١٦).

جدير بالذكر ان «حاييم حزاز» وهو كاتب يهودي اوروبي، قد ركز ايضاً على حياة اليهود اليمنيين ودرس طرق حياتهم وممارساتهم ليسجلها في رواياته الاخيرة. لقد انجذب اليهم «حزاز» لانه اعتقد انهم يمثلون جوهر الطبيعة اليهودية الاصيل، بكل براءتها واعتقادها النقي بالخلاص النهائي. وقد جعل «زارحي» اهمية كبيرة للخلاص كعامل رئيسي في التاريخ اليهودي، قائلا انه بالرغم من ظروف الاضطهاد الصعبة التي تعرض لها اليهود اليمنيون، الا ان تشوقهم للخلاص هو الذي ابقى عليهم:

«الفقر جعلهم منفرين. تسبب في انحناء اجسامهم وفي اذلالهم. ولكن في عيونهم توهج الضوء؛ نار مقدسة ابدية ما كانت كل اجيال العبودية والاذلال والاضطهاد قادرة على اطفائها» (ص١٦).

في دراسته حول التاريخ الاجتماعي لليهود اليمنيين، يعتقد «ي. بيريس» انهم تعرضوا للاضطهاد منذ تعرضت اليمن للفتح الاسلامي. كان وضعهم القانوني والسياسي اقل من وضع العرب، الغريب ان سميلانسكي لم يهتم بهم في سيرته الذاتية.

بدأت الموجات المهمة من المهاجرين اليمنيين الى فلسطين عام١٨٨٢، متزامنة مع معاصريهم من جماعة «بيلو» من اوروبا الشرقية. حتى عام ١٩٠٧ اتوا من المناطق الحضرية، من صنعاء ووسط اليمن،واستقروا في القدس، لانهم كانوا حريصين على بقائهم الروحي، وطقوسهم الدينية. وقد اشتغلوا بمهن البناء، وخاصة في المحاجر في قطع الحجارة، وفي القصارة واعمال البناء الاخرى. وقد استقر بعضهم في قرية «سلوان» القريبة من القدس، وهي عنوان الرواية التي نحن بصددها.

مكتبة المهتدين الإسلامية

هذه الرواية تهتم بصراع اليهود اليمنيين للوصول الى فلسطين، وبناء قرية خاصة بهم على ارضها. وقد دمرت هذه القرية بعد نشوب الحرب العالمية الاولى، ونشوب اعمال عداء بينهم وبين جيرانهم العرب عام **١٩٢٩**.

تتضح معرفة «زارحي» بجميع جوانب حياة اليهود اليمنيين في الرواية: فهو يصور عاداتهم والتزامهم بها، وانواع مأكولاتهم، وخرافاتهم، وفولكلورهم، وتقاليدهم الدينية، والفجوة بين اجيالهم، ودور الاب والام، وبراءتهم والفرق بينهم وبين اليهود **الاشكنازيم**.

من اجل تقديم فهم افضل لهم، يوظف «زارحي» الاساليب الادبية التالية:

أ - يقدم راوياً واسع المعرفة يروي القصة من وجهة نظر يمنية. وهكذا يتقدم للمثقف الاوروبي او الاشكنازي ببراءة متميزة واستغراب:

«**جماعة** اثر جماعة من الفتيان والفتيات وصلوا. كانت لهم شعور كثيفة وملابس بيضاء مطرزة عند الرقبة والاردان، ومربوطة حول الخصر برباط اسود. كانوا يلبسون احذية خشبية ثقيلة. ليس الفتيان فقط بل والفتيات، وكانوا يشبكون اذرع بعضهم بعضاً في وحدة كاملة» **(ص٢٤٤)**.

ب - يستخدم الصور كما يراها اليمنيون، بهدف ايجاد انطباع بوحدة الشكل والمضمون.

حـ - يسعى لاستخدام لغة اليمنيين في الكلام المباشر وغير المباشر.

تتضمن القصة فقرات طويلة من المعلومات التاريخية. وبسبب اهتمامه بتقديم صورة حقيقية، فانه يقدم عدة شخصيات حقيقية وأماكن مثل «دوف فرومكين» وصحيفة «هافاتزليت»، والسيدة «فن» زوجة القنصل البريطاني، والبعثات المسيحية ونشاطها في اوساط الفقراء. ولكن هذه التفاصيل، رغم انها حقيقية، الا انها ليست كافية في ذاتها لاثبات اصالة الشخصيات، **او جعلها مقنعة**، وتبدو الرواية وكأنها تغطي مساحة واسعة متنوعة من الاهتمامات، وعدة شخصيات. وهذا يقلل من الاثر الذي سعى «زارحي» لايجاده باستخدام الاساليب الثلاثة المذكورة.

كذلك فان الوصف الطويل للمشاهد والقدس بشكل خاص، رغم جماله، الا انه يقطع كثيرا من تدفق الاحداث، حتى تبدو غير مترابطة.

http://www.al-maktabeh.com

تتكوّن الرواية من ثمانية فصول مرتبة زمنيا. وينقسم كل فصل منها الى فصول فرعية غير مترابطة على الاطلاق، لان كلاً منها يبدأ بمجموعة من الشخصيات والاحداث المختلفة. هذا الاسلوب يتسبب في التشويش، خاصة وان هناك اكثر من عشرين شخصية مهمة في القصة على النحو التالي:

من الجيل الأول:

سليمان، صبي صغير عمل خبازاً.

روميا، أمه.

أفراهام محفوظ

ماري سالم حمدي

يعيش بديحي

لانيادو (الخباز)

ماري يهودا حوطر

يهيا حبشوش

الرابي اسرائيل.

الجيل الثاني:

زاهاريا وزوجته (اللذان عاشا في كيبوتز في (النقب).

يوسيف (صائغ الفضة)

يونا، ابنته، (كانت مغنية جميلة)

حاييم عروسي (حمال)

نسيم، ابنه (حاول الظهور بشكل اشكنازي).

سعيد محفوظ

شيمون داماتي

هارون (ابن يهيا حبشوش).

سيديا

افراهام (ابن سعيد).

من الواضح انه من الصعب على القارىء ان يحافظ على اهتمامه بكل هذه الشخصيات، ومن الصعب عليه ايضا ان يتعمق في نفوسهم، في اطار هذا العمل

مكتبة المهتدين الإسلامية

المعقـد. لذلـك يبقى القارىء مع سلسلة من مقاطع مفككة تتسم بالعمومية. جميع الشخصيات الفاعلة رجال. ومع انه صحيح ان النساء اليهوديات اليمنيات كان لهن دور ثانـوي، الا ان تجاهلهن الى هذا الحد يقلل من اصالة الصورة التي يقدمها. يعرض «زارحي» تطور العلاقة بين قرية «سلوان» اليهودية والقرية العربية المجاورة، كما يتتبع تدهورها. وهو يعرض كيف انتهت عداوة العرب الى التدمير الوحشي لتلك القرية.

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثالث

العربي كفرد

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

سوف نستعرض في هذا الفصل الطريقة التي يصوّر فيها العربي كفرد وليس كعضو في جماعة او مجتمع معين.

الملامـح الجسمانيـــة:

في رواية «شامي» «انتقام الآباء» هناك اشارة بسيطة للملامح الجسمانية للبطل:

«بدأ يفك ازرار صدريته ببطء، واخرج كيس مال مخملياً من حول رقبته السمينة المغـطاة بعبـاءتـه. انكشف صدره الاسود ذو الشعر الطويل الخشن الشائك... ثم استدار بجسمه العريض باتجاه الباب المؤدي الى الممر» (ص٢٠).

بدون وصف مفصل من الصعب تخيل الملامح الجسمانية لـ«ابو الشوارب». ان الشعر الاسود الخشن الطويل على الصدر يوحي بالقوة التي تتلاءم مع صفاته الداخلية. الا ان الكاتب لم يخبرنا عن اية ملامح خاصة بالبطل. كانت الصدور العارية شائعة مألـوفـة في ذلك الوقت، كانت تعتبر أمراً عادياً. وقد وردت اشارة لها في فقرة اخرى «مجموعة من عراة الصدور الغاضبين المخبولين...» (ص٢٠).

كان من المألوف ايضاً ان يكحل الناس عيونهم. وقد ورد ذلك في سياق القصة، في محاولة من الكاتب لاثبات صدق عالمه الروائي.

نجد اشارة اخرى في القصة للتكوين الجسماني لبدوي، بصفته عضواً في جماعة، وليس بصفته فرداً:

«لقد انعكس جفاف الصحراء ووهج شمسها في وجوههم الواهنة السوداء. وقد برزت انـوفهم الحـادة المعقوفة، وكأنها مناقير طيور مهاجمة، وتوهجت عيونهم وكأنها وضعت في النار» (ص٤٧).

ان استخدام «شامي» للرموز الحيوانية يشير الى وقوعه تحت تأثير المدرسة الطبيعية في ذلك الوقت، التي اكدت على صلة الانسان بالحيوان. ووصفه للملامح الجسمانية جاء بهدف ربط العالم الخارجي بالعالم الداخلي. يلاحظ ذلك في عدد من الاستعارات، مثل «العيون المتقدة» للبدو، التي تتناسق مع «النار» المتقدة في داخلهم، والتي تتناسق بدورها مع «النار» التي تتقد في الصحراء.

إننا نلاحظ انه رغم ان «شامي» كان من اتباع المدرسة الطبيعية في الكتابة، الا انـه اهمـل وصف الملامح الجسمانية لشخصياته، وركز بدلا من ذلك، على عاداتهم

مكتبة المهتدين الإسلامية

وسلوكهم ونفسيتهم. وكل ما ذكره عن ملامحهم الجسمانية يبدو وكأنه جاء على الهامش بهدف وصف عالمهم الداخلي.

لا يشير «بيرلا» في «روايتيه» المشار اليهما ابداً الى اية ملامح جسمانية، سواء للعرب او اليهود. ويبدو ان الاسلوب، الذي اختار ان يعالج به فكرتيه الرئيسيتين «الحب والكراهية» لا يتطلب مثل تلك الاوصاف.

انه يستخدم الكلام والحوار، ويكون عالماً من الاحلام والاساطير ليكون الارضية الخارجية التي يقوم عليها العالم النفسي لشخصياته.

انه لامر غريب، بعض الشيء، ان يهمل «بيرلا» وصف الملامح الجسمانية لشخصيات روايته؛ خاصة وانه يعتبر دوره ككاتب، كدور المراقب الذي ينظر من الخارج، ويعتبر ان مهمته تقديم الناس والاشياء من حوله، على حقيقتها.

على عكس «شامي» و«بيرلا» فقد اهتم «سميلانسكي» بوصف الملامح الجسمانية للعرب في كتاباته.

ينقل «ي. حركابي» عن «ابراهيم العابد» اتهامه للكتاب الصهاينة امثال «سميلانسكي» بالمبالغة في الاعجاب بالقوة الجسمية، **متأثرين** في ذلك بالنزعة **«النيتشوية»**. ولكن يمكن ان نعزو ذلك الاعجاب الى احباط اولئك الكتاب وعدم رضاهم عن البنية الجسمية لليهود الناتجة عن الظروف الطويلة غير الطبيعية التي عاشوها في المنفى.

في قصصه القصيرة، يشكل وصف «سميلانسكي» للملامح الجسمية للعرب، جزءاً رئيسياً من وصفهم كأفراد. الجدير بالملاحظة انه على النقيض من ذلك، لم يقدم «سميلانسكي» في اعماله الاخرى مثل «شمس الربيع» اي وصف جسمي تقريباً للشخصيات اليهودية. يشير «سميلانسكي» في كتاباته عن العرب باستمرار الى نفس الملامح «العيون».

في قصة «لطيفة»، أول قصة نشرت له، يصف «سميلانسكي» اعجابه بفتاة عربية في سن الرابعة عشرة كانت تعمل لديه، ويبدي أسفه واشفاقه عليها، لانها مضطرة لقبول تقاليد قومها والزواج ضد رغبتها. تصف الجملة الاولى في القصة جمال عيون «لطيفة»:

«من لم يرَ عيون لطيفة، لم يرَ قط عيوناً جميلة».

http://www.al-maktabeh.com

وبعد فقرات قليلة يحدد اكثر:

«وجه جميل اسمر صغير تطلع الّي، وشعّت منه عينان سوداوان» (ص٥).

هذه هي الاشارات الوحيدة لملامحها الجسمية. في قصة «محمد ابو حدبة» يقص الراوي اليهودي بأسى حكاية فتاة عربية:

«كانت فتاة طويلة نحيفة، حدباء قليلا، **يداها خشنتان عريضتان وطويلتان كأنهما قضيبان معدنيان. رأسها كبير مستدير كبطيخة، شعرها كستنائي تتدلى منه خصلة رفيعة على جبهتها. عيناها صغيرتان خاليتان من التعبير**». (ص٦١).

نلاحظ هنا ان الكاتب يقدم وصفاً مفصلاً اكثر مما فعل في قصة «لطيفة».

في قصة «مبروك»، نجد الراوي اليهودي ايضا حزيناً من اجل فتاة عربية صغيرة فقيرة، صادف ان التقت عيناها السوداوان بعينيه، بينما كانت هاربة من بيت سيدها، مختار القرية المجاورة. اننا نقرأ عن معاناتها، ولكننا لا نجد الكثير عن ملامحها الجسمية.

قصة «عايشة» قصة فولكلورية، وبعكس الروايات السابقة، نجد البطلة تقاوم بيئتها وتنتصر. هنا نجد وصفاً اكثر للملامح الجسمية:

«كانت طويلة منتصبة القامة كنخلة.جسمها صلب كالرخام **ونهداها بارزان**، عبر ثوبها المطرز. وجهها اسمر مستدير ناعم، وشعرها اسود متجعد». (ص١٠٧).

في قصة «بنت الشيخ»، نجد الفتاة، بعكس عائشة، **لا تقاوم بيئتها، وتكون** نهايتها الموت. مرة اخرى نجده يصف عينيها السوداوين وشعرها الاسود:

«**كانت** عيناها سوداوين غائرتين... كان شعرها اسود ايضا كغراب، **ناعماً كالحرير**» (ص١١٧).

في القصة الرومانسية «حطيط» ينتصر الحب على كل **التقاليد** الاجتماعية. هنا نجد أيضا وصفاً للعيون السوداء والقامة المنتصبة لابنة المختار:

«كانت حيوية الشباب لا تزال ظاهرة على وجهها الجميل المشع. كانت **عيناها** سوداوين كالليل **متلألئتين بالارادةوالفرح**. كانت**منتصبة** كشجر النخيل في بستان والدها» (ص١٢٥).

في قصة «رجب» تشبه عيون النساء السوداء بالليالي الداكنة. من الصعب على «رجب» واصدقائه ان يعثروا على عيون زرقاء. لا يمكن ان تمتلك فتاة عربية اصيلة **عينين**

مكتبة المهتدين الإسلامية

زرقاوين. واذا وجدت مثل هذه الفتاة فهي بالتأكيد غير أصيلة. يضطر رجب للخضوع للتقاليد ويموت أسى.

في قصة «بسبب امرأة» نجد المرأة راقصة، تظهر في القرية، مع رجل كبير يضرب على طبل ويمسك بسعدان. وصفت المرأة في القصة بأنها «جميلة مفعمة بالسحر... وعيناها سوداوان كالليل».

في قصة «انتقام حمدي» تشتهر بنات قبيلة البطل بالجمال. وملامحهن لا تختلف عن الملامح الواردة في القصص السابقة:

«عيونهن عميقة كالبحيرات، سوداء كالليل، مشعة مفعمة بالسحر، يتطاير من بأبثهن الشرر. وجوههن جميلة، ووجناتهن زهور متفتحة على الاشجار. شفاههن كشرائط ارجوانية. اسنانهن صغيرة مستقيمة بيضاء مشعة. شعورهن سوداء كالغربان ناعمة كالحرير... اعناقهن ناعمة كالحرير، مزينة بالخرز. ونهودهن كتفاح طازج صلب مستدير. قاماتهن طويلة منتصبة كأشجار النخيل، ورؤوسهن مرتفعة الى اعلى».

مثل هذه الملامح نجدها لدى المرأة الاسطورية الجميلة، «شيطانة»، وهي نصف انسان ونصف شيطان:

«فجأة ظهر امام عينيه خيال امرأة قادمة من بين قصب المستنقعات، وقد اضاءت خيوط الفجر الاولى وجهها، ووصل شعرها الطويل الكثيف الاسود الى ركبتيها، وغطى جسدها العاري... كان وجهها واضحاً نقياً كالثلج، مشعاً حيويا... ومن خلال رموشها السوداء الطويلة ظهرت عينان سوداوان كالليل... ومن بين طيات ثوبها الكثيف، الذي غطى كامل جسمها، رأى ابراهيم جسداً ابيض نقياً، ونهدين بارزين ناعمين مستديرين» (ص٥٨).

في قصة «تل المحبة»، تشبه الفتاة التركية التي سلبها بدوي عربي من زوجها. النساء اللواتي يظهرن في الحكايات الفولكلورية:

«انشق الثوب الذي كان يغطي جسدها، وسقط على الارض. ظلّت واقفة في تنورة طويلة تصل القدمين. قدماها فقط مكشوفتان. قدما طفل صغير. جلدهما جميل ابيض شفاف، واصابعهما صغيرة. كان نهداها ظاهرين من خلال فتحات الثوب،

http://www.al-maktabeh.com

ابيضين كاللؤلؤ، ناعمين كالحريـــر، أشـــبه ببراعم الصباح الباكر الصغيرة» (ص١٠٧).

الاشـارات الاخرى الخاصة بالنساء في بقية القصص، تتعلق بصفات الطول والعيون السوداء، كما ورد في قصة الحاج ابراهيم، وبطلتها «راجية»، كما تتعلق بالوجه الابيض والعيون السوداء في قصة «سعيد البدوي».

هكذا نرى ان «سميلانسكي» يركز بوجه عام، اثناء تصويره للملامح الجسمية للنسـاء العربيات على الوجه، وعادة ما يشبه العيون السوداء بالليل، والشعر الاسود الناعم بالحرير. اما الملامح الاخرى فهي الطول وانتصاب القامة، التي عادة ما تشبه بشجـر النخيل، اضـافة الى النهود المستديرة البارزة. وباستثناء المرأة الغريبة في قصة «محمد ابو حدبة»، فان كل تلك الاوصاف لا تتعلق بامرأة معينة.

على نفس المنوال نجد الملامح الجسمية للرجال العرب متشابهة في قصصه. في قصـة «لـطيفـة» يشير الى الشيخ «شوربجي» والد البطل على انه «رجل كبير ذو لحية بيضاء، يلبس طربوشاً طويلاً على رأســه، يركـــب مهراً ابيض يقفز تحته وكأنه يرقص».

يخرج القارىء لهذه القصة بانطباع ان الملامح المميزة لذلك الشيخ تدل على مركزه الاجتـماعي. اللحية البيضاء والمهر الابيض والطربوش الطويل، تعتبر كافية لتكوين الانطباع العام الضروري عن هدف **القصة**.

في قصـة «عطا الله»، يصف «سميلانسكي» الفلاحين اللذين يساعدان شيخ القـرية في توزيع الارض على المزارعين، على النحو التالي: «طويلان كالشجر قويان كالحـديد» (ص١٢). ان صفتي الـطول والقـوة هما الصفتـان الجسميتان الرئيستان مطلوبتان لاداء مهمتهما. لذلك لم يشر ابدا الى اية صفة اخرى.

في قصة «محمد مسماري» يصف «سميلانسكي» البطل الذي يحمل نفس الاسم بأنه «اسمر اللون يعتز بالتقاليد ويتزوج ابنة فلاح **جميلة**»كما يصفه ايضا بأنه «طويل نحيف». وهذا الوصف يتناسب مع هزالته وحياته المزرية.

اما «محمد عذرا» فيوصف بالقوة والتأثير:

«كان محمد في الثلاثين من **العمـــر، متوســـط** الطول، قوي **البنيـــة، صـــدره**

مكتبة المهتدين الإسلامية

عريض بارز بعض الشيء، وكـانت اطـرافه جميعها صلبة. كان وجهه اسمر لوحته الشمس. **عيناه سوداوان مرهفتان** . كان شاربه صغيرا اسود» (ص٢٤).

هذه الاوصاف تتناسب مع شخصية البطل وتصميمه على الزواج من فتاة لا تحبه.

في «ابو الكلب» يصف «سميلانسكي» الملامح الزنجية للبطل، ولكنه، كما فعل لدى وصف النساء، ركز على الوجه:

«كأبيه وابنه كان عبدالله **أسمراً**، وكان وجهه مشعاً كحذاء ملمع. كانت جبهته مرتفعـة عريضة، وكان رأسه مغطى بشعر قصير مجعد اشبه بسياج. كان بؤبؤا عينيه سوداوين، وبياض عينيه **كالشمع**. كان انفه عريضا وفتحات انفه واسعة. كانت شفتاه كثيفتين صلبتين، **يشع من بينهما صفان** من الاسنان البيضاء الصغيرة».

ورغم ان مأسـاة حياته تكمن في اختلافه عمن حوله، الا ان هذه الصورة لا تتضمن اية ملامح فريدة، كافية لوصفه كفرد، اذ يمكن ان يوصف بها اي زنجي.

كذلك كان «حطين» غريباً مختلفاً عن الآخرين: «كان خشناً طويلاً بديناً كبيرا كالجمل... كانت يداه واسعتين خشنتين كمخالب خنزير... كان وجهه فظاً وجلده خشناً. ووسط وجهه العريض انف كبير، له فتحات واسعة، وعينان صغيرتان في **محجرين عميقين**».

هذا المظهر الخشن يجذب اليه النساء الناعمات الضعيفات، انه تجاذب الاضداد. نجد الراوي هنا يدخل في تفاصيل دقيقة عن الملامح الجسمية للبطل، **وكأنه لا** يريد ان يترك لدى القارىء، اي شك حول من يكون. مثل هذا الوصف نجده للمرأة الغريبة في قصة «محمد ابو حدبة».

في قصة «محمد ابو حدبة» يبدو محمد وجيهاً فقيراً من الجنوب، يتجول في الشمال بحثاً عن الطعام والماء:

«كان محمد طويلاً اسمر ذا وجه طويل نحيف. كانت لحيته سوداء وشعره اسود، وكانت عيناه سـوداوين تقرأ في اعماقهما اليأس والارهاق».

يبدو الراوي الذي يعمل البطل لديه، متعاطفاً مع كبرياء البطل الجريحة وسعيه للاستقلال. ويبدو ان هدف الكاتب اثارة تفاهم وتعاطف القارىء، واقناعه ان مثل هذه الاشياء يمكن ان تحدث لغير البطل ايضا.

http://www.al-maktabeh.com

يصف «سميلانسكي» البدوي الصغير من بدو النقب ويدعى «جندي» بأنه «صبي صغير طويل، نحيف شاحب الوجه، اسود العينين، اسود متجعد الشعر». مرة ثانية نجد ان الاهتمام في القصة يتركز على الكبرياء الجريحة، وليس على الشخص نفسه، الذي يبدو اقل اهمية.

هناك وصف آخر قصير للملامح الجسمية لأحد الفلاحين:

«كانت ذراعاه عاريتين حتى الكتفين. وقد زرّر ثوبه واحكم ربطه فوق الركبتين ليظهر رجليه وشعرهما الكثيف».

في قصة «محمد الراعي» اشارة الى راع متخلف عقليا: «كان قصيراً ذا رأس كبير يكاد يتصل بالكتفين، وقد سكن عينيه خوف ابدي، وغمره شعور **بالامتهان**».

في قصة «الشيخ والمهر» ينبىء طول ابو رمضان، الزنجي وكبير القبيلة، عن **قوته**:

«كان ابو رمضان ينوف برأسه وكتفيه عن كل من يقف معه. كانت عيناه مشعلين متوهجين غائرين في **محجريهما**، لم يكن له لحية ولا شارب، ولا شعر على الوجه. لقد حرمه الله من الشعر. ولم يكن من السهل معرفة عمره. كان لا يزال يبدو شاباً، مع انه لم يكن هناك من هو اكبر منه في كل منطقته». (ص١٢٣).

في قصة «الحاج ابراهيم» يتلو الراوي قصة رجل يحمل نفس الاسم، كان متديناً مستقيمًا، يتحدث عنه وجوه القوم:

«كانت عيناه سوداوين، وكان انفه من الاستقامة حتى يبدو وكأنه نحت نحتاً. كان شاربه صغيرا اسود. وقد زين ذقنه بلحية خفيفة. وعندما كان يمر في السوق، كان طوله يجذب عيون الجميع» (ص١٤٠).

هكذا نلاحظ ان تصوير الصفات الجسمية للرجال العرب في هذه القصص، شبيه بتصوير الصفات الجسمية للنساء العربيات: العيون السوداء، القامة المنتصبة، الشعر. هناك ملمحان اضافيان وهما: الانف العريض للزنجيين في قصة «ابو الكلب» و«حطين»، والصدر في قصة «محمد عذرا». ولكن بشكل رئيسي، فان تصوير الرجال والنساء، يفتقر الى الملامح الفردية المتميزة. اي يمكن وصف ذلك التصوير بالنمطية.

رغم ان «سميلانسكي» قد اظهر اهتماماً في تصوير الملامح الجسمية، كما يظهر ذلك من اشاراته المتعددة اليها، فان من المثير للدهشة، انه يفعل ذلك لتكوين الانطباع

مكتبة المهتدين الإسلامية

او بغرض التعبير، وليس بهدف تصوير ملامح متميزة حقيقية. ويبدو ان اسلوبه رومانسي، ولذلك فهو لا يتطلب تصويرا واقعيا.

في قصة «الحاج ابراهيم» وصف «سميلانسكي» لباس العرب، ويمكن ادراج ذلك ضمن ملامحهم الجسمية، هنا يجد الراوي اليهودي ان من الضروري ان يشرح للقراء اليهود انواع اللباس المختلفة لدى العرب، والمناسبات المختلفة التي ترتبط بها:

«كانت طرابيش الدروز الحمراء مزينة بشريط أبيض، مما يجعلها تشبه اكليل الزهر. كانت سراويلهم ضيقة من اسفل، فضفاضة من اعلى.

أما ملابس «المتاولة»، المزارعين المتحضرين في البلاد، فكانت سراويلهم عريضة، كثوب المرأة، اما صدرياتهم فكانت ضيقة... كانت نساؤهم مكشوفة الوجوه، **وسراويلهن** ضيقة. وكن يلبسن صدريات لها جيب صغير في الوسط لاخفاء النهود...

أما سكان الجنوب فكانوا يلبسون ثياب الفلاحين، واحزمة البدو واغطية لرؤوسهم...

اما الفلاحون، سكان السهول والوديان، فكانوا يلبسون الطرابيش البيضاء الكبيرة، واغطية الرأس الصوفية الكثيفة المخططة بخطوط رأسية سوداء وبيضاء، مثل خطوط الشال اليهودي.

أمّا تجار المدن، في حيفا وعكا، والمسيحيون العرب، فكانت ألبستهم نصف شرقية ونصف اوروبية» (ص١٤١ ـ ١٤٢).

الجدير بالملاحظة ان المجلد الثاني من قصص «سميلانسكي» لا يكاد يتضمن اي وصف للملامح الجسمية. هذا الفرق مهم ولم يكن مصادفة. اذا تفحصنا جميع القصص نجد ان هناك ٣٧ قصة قصيرة في المجلد الاول و١٣ قصة طويلة في المجلد الثاني. ليس حجم القصة هو الفرق الوحيد بل محتواها ايضا. في المجلد الاول نجد الاهتمام الرئيسي بالمعتقدات والعادات، مع اهتمام بسيط بالشخصيات نفسها. في المجلد الثاني نجد الاهتمام بالاساطير والفولكلور، ويزداد الاهتمام بالشخصيات، ولا تعود هناك حاجة الى تصوير ملامحها الجسمية.

لا يهتم «ن. يروشاليمي» في قصته «ميركادو، سائق الحمار»، كثيراً، بتصوير العرب. لقد تركز اهتمامه على تصوير الحياة اليهودية في «جيتو» الخليل، كما يمكن

http://www.al-maktabeh.com

استنتاج ذلك من العنوان الفرعي، بين جدران الجيتو، الحياة مختلفة تماماً عن حياة العرب خارجها. في هذه الرواية القصيرة تعتبر الشخصيات المحور الذي ترتبط به العقدة وليست اناساً مستقلين تحدث لهم اشياء معينة. انهم تابعون ثانويون للحدث، ومصممون بشكل رئيسي لاخبار القارىء عن اسلوبهم في الحياة، اكثر من وصفهم لانفسهم كأفراد. من خلالهم يقدم «يروشاليمي» تقاليد حياة المجموعة وعاداتها وانماط معيشتها. لذلك فالشخصيات منمطة وليست واقعية. الام «سارينا» مثلا تمثل الارملة اليهودية في صراعها من اجل البقاء، وفي مهانتها بسبب اعتمادها على صدقات «الكوليل». كذلك الرابي «شبتاي» هو رمز لليهودي الارثوذكسي النبيل المتسامح. وزوج اخته هو نموذج لليهودي الذي يصبح غنياً بسبب الصفقات المشبوهة مع الانجليز.

لان اهتمام «يروشاليمي» تركز على تصوير الحياة نفسها في القصة، لذلك ليس عربيا ألا نعثر على اكثر من اشارة واحدة في القصة لابن الشيخ عبدالحافظ، المدعو، جميل افندي:

«كان مظهره الخارجي جذاباً يبعث على السرور. وقد غطت وجهه الاسود البيضاوي لحية مصففة جيدا، وشارب مصفف بعناية. وقد علت جبهته كتلة من الشعر الاسود، كان يزينها ويعطرها باستمرار، ويتألق في تدليتها الى الامام من تحت الطربوش». (ص٦٤).

هذا وصف لاي شاب انيق صغير من شباب المدينة، ولا يقدم الكاتب اي وصف لوالد الصبي، عبدالحافظ، وعندما اطلق الحرس البريطاني سراح «ميركادو» في رحلته من القدس الى الخليل، ذاب «عبد الحافظ» في جموع العرب الهاربين الى اريحا، لان مظهره لا يختلف عن مظهرهم.

على الرغم من ان وصف «زارحي» للمظهر الجسمي للعرب في قصة «قرية سلوان» كان قليلا، الا انه ليس كذلك الوصف الذي نجده لدى «يروشاليمي». وصف «زارحي» الحنين الذي كان يدفع اليهود اليمنيين، عبر اجيال من المهانة والمعاناة، الى الاستقرار في الارض المقدسة. وقد اسسوا قريتهم في فترة من التوتر المتصاعد بين العرب واليهود، وصل ذروته في الهجمات العربية عام ١٩٢٩، عندما اضطر اليهود الى هجر قريتهم.

مكتبة المهتدين الإسلامية

يحكي الراوي القصة من وجهة نظر اليهود اليمنيين، ويصور العداء بين العرب واليهود من تلك الزاوية. يبدو ذلك العداء في المظهر الجسمي للعرب. وهو يصورهم في اوصاف قاسية، على نقيض وصف اليهود المهاجرين حديثاً، بالضعف الذي يستثير التعاطف. ركز «زارحي» على قوة العرب الجسمية، بشكل يثير الرعب، وكأنه يصور شيطاناً:

«كان الملاح العربي القوي، قويا كثور. كان له مساعدان. وكان ثلاثتهم يحركون باذرعهم القوية عوارض خشبية، ويقودون القارب بين الصخور». (ص١٣).

صور «زارحي» ايضا العداء بين العرب واليهود اليمنيين، من خلال استعماله لبعض المفردات مثل «الاغيار» وقصد بهم هنا العرب:

«**لا يطرز** الاغيار هنا جميع ملابسهم كما في اليمن. والمطرزة الصغيرة التي تزين ملابس النساء الجبليات هنا موجودة في بيت لحم، ولا احد يريدها في القدس». (ص٣٥).

من الواضح ان الكاتب غير معني كثيرا بالعرب. والمشهد الغامض الذي يقدمه عن العرب، مشهد ذاتي، لا يتضمن شيئاً يمكن رؤيته بشكل موضوعي. وينطبق ذلك ايضا على عدد من الشخصيات اليهودية في القصة. وهي جميعها شخصيات غير واقعية.

هكذا نرى من خلال جميع الاعمال التي اختيرت هنا، ان العربي لا يظهر كشخص فرد بمظهر متميز. لقد اشار اليه «شامي» بالقدر الذي يخدم هدفه الفني المتمثل بربطه العالم الذي تعيش فيه شخصياته، بالعالم الخارجي. اما «بيرلا» فلم يقدم اي وصف للملامح الجسمية للعرب، ربما لان قصصه خيالية رومانسية، لا تتطلب شخصيات حقيقية. اما «**سميلانسكي**»، فرغم اشاراته العديدة الى الملامح الجسمية للعرب، الا انه فعل ذلك من خلال التنميط. اما «يروشاليمي» فقد تركز اهتمامه على نمط الحياة نفسها، ولم تتطلب معالجته الرومانسية لها ظهور ملامح جسمية محددة. اما «زارحي» الذي **كان دافعه تاريخيا في كتابةروايته**، فلا يكاد يشير الى الصفات الجسمية للعرب على الاطلاق، مع ان المرء يتوقع ان يراهم يملأون الرواية، كما كانوا بالفعل في العالم الحقيقي الذي كتب روايته عنه. وقد صور كل شيء من خلال **نظرة اليهود اليمنيين**.

http://www.al-maktabeh.com

لم يميز اي من الكتاب، الذين اخترناهم، في معالجاتهم الادبية، بين الشخصيات العربية واليهودية. وبينما الملامح السائدة يمكن ان تتغير من واحد لآخر، الا ان الاسلوب الادبي الذي وظفه الكتاب واحد لكليهما.

التكوين النفسي والعقلي:

صورت هذه المجموعة من الكتاب العالم الداخلي والتكوين العقلي لشخصياتها، مثلما صورت ملامحهم الجسمية.

في «انتقام الآباء» تتركز القصة حول«ابو الشوارب»،الذي يقود الحج المأساوي، وقد تركز اهتمام «شامي» على حالته النفسية، كما يصفها بالتفصيل، وكما تظهر في سلوكه، كما مضى في تصوير وضعه العقلي بشكل مماثل. وقد مثلت صفاته السلبية، الموروثة منذ الولادة، من جهة، ووفاته من جهة اخرى، اساسين لذلك التصوير. وبينهما يتابع القارىء حركة البطل الصاعدة منذ انتخابه زعيمًا ثم امتلاكه للثروة والنفوذ، وحتى ارتكابه جريمة القتل. هنا، بعد وصول الاحداث الى ذروتها، يبدأ هبوط البطل، ويصبح اسيرا لخجله وتوبته. يزداد انحداره،ويفقد قوته حتى يصل مرحلة الانهيار الكامل، ثم الموت المحتم.

كان ابو الشوارب اسير رغباته، التي كانت تسيره وتقيد عقلانيته ومسؤوليته المعنوية. لم يستطع ابداً الافلات من سيطرة تلك الرغبات:

«كان ضحية الغباء الذي يؤدي الى ظلام العقل الانساني ويشل الدماغ»، (ص٧٢).

سيطرت على«ابو الشوارب»رغبة الانتقام، كما استحوذ عليه حرصه على شرفه. ومن اللحظة التي تعرضت فيها كرامته للايذاء على يد عدوه، اصبح ضحية لمزاجه: «اصبح ضحية لمزاجه السريع العاصف» (ص٤٩).

بدأ التوتر يتصاعد بين الوعي واللاوعي فيه، بين عواطفه وعقله. كان الصراع، في البدء، متقطعا. وفي تلك المرحلة، عندما كان عقله لا يزال صافياً كان لديه احساس برغبة للتخلص من نفسه:

«عندما توقف ذلك الضجيج في رأسه، وعاد الصفاء الى ذهنه، خفض رأسه

مكتبة المهتدين الإسلامية

خجلاً وحرجاً، وداعب شاربه بعصبية، وعضّ عليه ندماً، وارتجفت شفتاه كما لو كان مذنبا. . . رغبة قوية للهرب من هنا». (ص٥٠).

مع ذلك، بدا عاجزاً عن كبح جماح نفسه: تصاعد التوتر حتى تغلبت عليه تلك العواطف الداخلية تماماً. هذه العواطف يصفها الكاتب بأنها «ظلام» مختلف الظلال. وهو يكرر هذه الاستعارة كلما اشار الى تلك العواطف:

«اشتعلت الرغبة للدفاع عن شرفهم والانتقام لانفسهم، في قلوبهم بعنف، حتى حجبت صفاء التفكير لديهم، وحاصرتهم ودفعتهم من خطأ الى آخر، وجعلتهم يتصرفون كما لو كانوا مجانين غير متزنين». (ص١٦٢).

ان العنصر الاساسي الذي يميز التكوين العاطفي للبطل هو عدم قدرته على ضبط عواطفه المتنامية. وكما اشرنا من قبل، فان هذه الفكرة تنسجم مع المدرسة الطبيعية في التفكير، التي تأثر بها «شامي». ومع ان المرء قد يميل للاعتقاد بأن هذه الصفات موجودة عموماً في الجنس البشري الا ان علينا ان نضع في الذهن ان لها مكاناً معيناً في العقيدة القرآنية، حيث يسيطر القدر على مجرى الاحداث، ويحاصر بواسطة الشيطان، البطل ويملي عليه تصرفاته.

هكذا يمكن ان ننظر الى ابو الشوارب في ضوء احد العناصر الاساسية للعقيدة الاسلامية. وهذا لا يعني، على اية حال، ان الكاتب قد خلق شخصية مسطحة تدور حول فكرة او صفة واحدة. على النقيض من ذلك فانه قد سحب البطل بشكل طبيعي من مجرى الاحداث، كفرد معقد مليء بغرائز تطارده.

يكشف راوي القصة ان البطل ذو مزاج ثائر. من السهل اغضابه. وهو مثير للمشاكل لا يتسامح مع آراء الآخرين. كل تلك صفات سلبية. هناك صفة ايجابية واحدة يتسم بها ابو الشوارب، وهي حمايته للمظلومين والمضطهدين والفقراء واليتامى. وهو يقبل دوره كزعيم بجدية، ويمارس مسؤوليات دوره بمهارة.

بعد مصرع خصمه يحاول ابو الشوارب الهرب من معاناته والعقوبة التي تنتظره، بالفرار الى القاهرة. هناك يصبح مدمناً على المخدرات في محاولة يائسة منه لنسيان آلامه وفقدان مركزه. وبذلك يفقد عقلانيته ويصبح واهناً موجوع الرأس:

«كان حريصاً جداً على ان لا ينكشف الاضطراب الذي يمزق قلبه». (ص٩٦).

http://www.al-maktabeh.com

تملك ابو الشوارب الخوف، وصار يتراءى له منظر مرعب لثلاثة آباء وثلاثة طيور ذات اصوات عالية غير طبيعية. هذا المنظر ادى به الى الانهيار النهائي «ظهر اضطراب الدماغ في عينيه». ولفّ روحه ظلام دامس. هكذا وصلت رحلة الانحدار الى نهايتها، وانتهى القارىء من متابعة البطل في صعوده وهبوطه.

الشخصيات الاخرى في القصة وصفت بشكل موجز، وقد امتزج فيها التوتر والكراهية التي اثارها ابو فارس، زعيم الخلايلة الذي يتصف بعدم الاخلاص. اما شخصية بائع عصير الفواكه فهي مجهولة تماماً، ولم يظهر من صفاته سوى اثارته للكراهية، وهي جزء رئيسي من العقدة. وهنا لا تظهر اية شخصية يهودية.

لا تختلف صفات ابطال قصص «سميلانسكي» عن صفات ابطال «شامي»:

المزاج المتوتر والغضب السريع والسعي للانتقام والحرص على الشرف، كلها صفات مشتركة بين ابطال الكاتبين، مع انهما يختلفان في طريقة العرض والمعالجة.

في قصص «سميلانسكي» و«شامي» يكون مصير الشخصيات، في معظم الحالات، الموت. وبينما تنمو الشخصية عند «شامي»، وتتطور فانها تكشف عند «سميلانسكي»، ويتلاءم ذلك مع الاساليب الادبية التي يستخدمها كل منهما. بعض قصص «سميلانسكي» القصيرة، بمكن اعتبارها «مشاهد Sketches»، كما يشير هو نفسه الى ذلك في سيرته الذاتية. وهي في الحقيقة تفتقر الى عمق القصة القصيرة. في مثل هذا الاسلوب الادبي يسعى الكاتب لتحقيق اثر فريد وحيد، ولا يهدف الى التعقيد الروائي. انه يختزل اتساع الحياة في ادنى قدر من المساحة الكتابية. فيما يلي نماذج من الشخصيات التي تتصف بسرعة الغضب والمزاجية: عبدالله، ابن الشيخ، في قصة «عائشة»:

«شخص قميء صغير، روح شيطانية، حسود، مملوء بالكراهية والعواطف المبتذلة، يطارد المال والمركز، غير اهل للثقة، ولم يحترم ابدا كلمته. يحتفظ بكراهية لكل انسان يقف في طريقه» (ص١٠٨).

حتى البدوي الصغير في هذه القصة، الذي لم يرتكب يوماً اي عمل سيء، يتصف بالمزاج، وفي حالة الغضب يمكن ان يقتل عدوه لمجرد التسلية. هذه الصفة لم تقلل محبة المحيطين به له.

مكتبة المهتدين الإسلامية

كذلك ابن الشيخ في قصة «بسبب امرأة» سريع الغضب. لقد قتل اباه بالسيف لانه منعه من معاشرة راقصة قابلها في اليوم السابق: «لقد قتلت ابي في لحظة غضب، وسأكون ملعوناً الى الابد» (ص١٤٨). كذلك الشيخ في قصة «زوجة الشيخ ومهره» سريع الغضب:

«كان الشيخ سريع الغضب، وفي ساعة غضبه يصـــرخ كوحش مفترس». (ص١٦٣).

اما ابن الشيخ في قصة «عبدالهادي» فكانت وسيلته للانتقام لشرف ابيه ان يحتقر نوعية بندقية عبدالهادي. وقد ادى ذلك الاحتقار الى وفاته.

في قصـة «الـطفل» لم يستطع حمدان، «الذي كان قلبه رقيقاً كقلب امرأة ان يتحكم في غضبه على سيده الذي احبه وخدمه مدة ٤٥ سنة، لقد قتله بسبب قتل طفله».

وفي «تيه رمضان» لم يشعر رمضان بوخز ضمير لانه قتل امه بعد ان علم ان اباه الماني «استل رمضان سكيناً كبيرة من البيت وقذفها على وجه امه». (ص٢٧٨).

في قصة «تل المحبة» سأل حمدان اخاه عن البندقية والسيف والسرج التي ورثها عن ابيه، ولما رفض اخوه ان يجيبه قتله على الفور.

في قصة «الفلاحين»، «لم يعرف حسن الغضب»، وكان يعاني من المهانة من اجل محبوبته، ولم تكن له اية نية لقتلها، الا ان جنونه دفعه الى ذلك: «اصبح مضطربا، وتملكته رغبة جنونية لضربها وضربها» (ص١٧٧).

والعروس الصغيرة في قصة «برغش» يدفعها غضبها ايضا للقتل، فتحمل السيف وتضرب زوجهـا الـذي كان قد شهـد زوراً ضد ابيها. وعندما شك الشيخ في قصة «شيطانة» باخلاصها، قرر على الفور قتلها، ولم يمنعه من ذلك الا نصيحة هادئة من ابن الصياد.

يورد كل من «شـامي» و«سميلانسكي» صفـات للعرب تدفعهم للقتل، وهما يتركان القارىء ليستنتج ان هناك شيئاً ما في التكوين العقلي للعرب يدفعهم لارتكاب الجـريمـة دفعاً. حتى صفة الاخلاص للسيد وهي صفة ايجابية كما تبدو في قصص «الطفل» و«مبروك»، لا تستطيع كبح جماح الرغبة في الانتقام، التي تقود عادة الى القتل.

كما اشرنا من قبل، فان القدر في الاسلام يأخذ شكل الاستقالة الكاملة من الحياة وعدم التدخل في مقتضيات الحياة والموت. هذه الفكرة كانت غريبة على غالبية الجمهور

http://www.al-maktabeh.com

الاوروبي، وهو الجمهور الذي كتب له «سميلانسكي» ويبدو انه كان يوضح تلك الفكرة لهم ويجذب انتباههم لها.

يعتبر «رشيد» في قصة «رشيد الرجل العجوز» نموذجاً لذلك، فقد رضي تماما بحظه السيء قائلاً «كل شيء من الله» (ص٣٠). هذا التعبير عن الاستسلام الكامل نجده في قصة «محمد»، حيث رضي البطل بحظه السيء وفقره الى درجة انه رفض طلب المساعدة قائلا: «هكذا خلق الله الحياة: اعطى الكثير لقليلين، ولم يعط الكثيرين الا القليل... كل شيء من الله» (ص٤٩).

في قصة «غزال وغزالة» نجد الشيخ العجوز غاضبا على امرأته لانها تذمرت مما يحصل له:

«شيء ما حدث. انه من الله، فلماذا تغضبين؟ هل انت غاضبة على الله في السماء؟ كل ما يفكر به الشيخ خليل ويقرره، مقرر من قبل السماء. لذلك لماذا تنظر زوجته تلك النظرات الغاضبة». (ص٢٢٣).

في قصة «منتصف الليل»، لا يتذمر الحاج لانه لا يستطيع الزواج، ويقول «من يدري: هذا الشيء من الله، فمن يستطيع تغييره»، ويعبر البطل في قصة «حسن عبد الهادي ابو عيد» عن استسلامه للقدر بطريقة مشابهة «هل يستطيع تغيير مقدار شعرة مما قدر في السماء العليا» (ص٢٧٠).

اما حسن في قصة «الفلاحين» فهو:

«لايستطيع الاعتراض. انها ارادة السماء. وقد استسلم لتلك الارادة، كما اعتاد الفلاح دائما ان يستسلم لضربات ابيه، والشيوخ والجنود وضربات السماء: الجفاف والبرد والفيضانات والطوفان والكوارث. كيف لا يفعل غير الاستسلام». (ص١٧٥).

نجد الاستسلام للقدر والاحداث والاسياد في قصتي «ابو الكلب» و«ابنة الشيخ»، وكذلك في قصة «حسن، حامد وخالد»:

«أحنى حسن رأسه واستسلم، كما اعتاد ذلك طوال حياته. اعتاد الاستسلام اولا لابيه الذي كان يضرب ابناءه بحبل على وجوههم. ثم اعتاد ذلك لشيخ القبيلة، ثم لجامع الضريبة، ثم للمرابي، ثم للعاصفة والجفاف والمجاعة.. استسلم حسن لكل شيء واحنى رأسه للعصا الجديدة»(ص٢١٣).

مكتبة المهتدين الإسلامية

الـراوي هنـا هو احـد شخصيات القصـة، لذلك فهو يترك للقارىء مسؤولية التقييم. ينتقد الكاتب هذا الموقف، ولكنه لا يوبخ احدا في القصة بسبب ذلك، وفي عالمه الروائي يوفر فرصاً لفهمه. انه لا يقدم اي حكم معنوي، بل يجعل كل شيء، يبـدو مقبـولا ضمن اطـار المجتمـع الذي يصفه. وفوق ذلك، فانه باستعماله للتعابير الصحيحة يؤكد واقعية شخصياته وصدق قصصه. انه يستثير التعاطف مع اولئك الذين يعانون، ولكنه لا يتوقف ليصف لهم الصفات الجيدة، كأن يعظهم مثلاً ويقول لهم: على المرء ان يكون طيباً ورقيقاً. انه يركز على فكرة رئيسية، وهي ان ابطاله ضحايا.

وهكـذا نكون قد عرفنا قليلا من الصفات العربية: المزاج، الغضب السريع، الرغبة في الانتقام، حماية الشرف. وكلها صفات تؤدي الى الموت.

يقدم «زارحي» صورة اخرى للتكوين العقلي والعاطفي للعرب. وكما ذكرنا من قبل، فقد كان هدف «زارحي» تقديم مشهد تاريخي. وقد عرض قصته من وجهة نظر اليهود اليمنيين، وعلى ارضية الكراهية المتصاعدة بين العرب واليهود، التي وصلت ذروتها في مذبحة **١٩٢٩**. لذلك ليس غريباً ان يكون العرب في هذه القصة مبغوضين.

لدى وصـولهم الى شواطىء احلامهم، قابل اليهود اليمنيون على الفور ملاحاً عربيا قاسياً. وقـد هدد حياتهم ما لم يضاعفوا مقدار الفدية التي اتفقوا عليها، وكانوا يشيرون اليه بـ«الاسماعيلي القذر».

كذلك نجد صفة سيئة اخرى لحرفي عربي منافق قبل في البداية تشغيل يهودي، ثم شغل صديقا له مكانه. كما ظهرت صفة النفاق لدى عربي آخر اسمه عثمان، كـان يعمل حارساً وكان يضرب كلبه بلا تأنيب ضمير حتى يتملق سيده البريطاني. كما ظهرت خسة عثمان عندما هدد بابتزاز العمال اليهود اليمنيين:

«تحكم الحارس فيهم ببطء، وهدد اهل «سيلوعام» بانهم ما لم يدفعوا له مبلغاً شهريا، حسب طلبه، فسوف يخبر عنهم المدير في الحال». (ص١٨٧).

وقد صور الكاتب القرويين العرب جانحين افظاظا. كانوا يسلبون جثث الجنود الاتراك، الذين قتلوا اثناء تقدم الجيش البريطاني:

«كان القرويون العرب يخرجون بين المعارك لسلب القتلى الاتراك. كانوا يقطعون اصبع الجندي التركي اذا كان يحمل خاتماً، وينزعون سنه من فمه ان كان من الذهب». (ص٢٣٦).

http://www.al-maktabeh.com

ويمضي الكاتب في مقاطع طويلة يطلق خلالها احكاما صريحة على شخصيات روايته. ولكن تعليقاته كلها عامة منمطة. ولم يتعمق في الابعاد النفسية للعرب واليهود في الرواية، فلم تظهر الشخصيات على انها حقيقية. لقد حال تركيزه على الفكرة الرئيسية دون الاهتمام بها اعتبره هامشيا بالنسبة لها. ولكن ما يثير الاستغراب انه نظر الى العرب نظرة هامشية، ولذلك لم يشر اليهم سوى اشارات متفرقة.

ويمكن ان نقول نفس الشيء عن رواية «رابينو فيتش» «عماسي الشومير». لقد اشار فيها مرة واحدة فقط للتكوين النفسي والعقلي للعرب. لقد كان ناقداً للمجتمع. وهذا ما تدور حوله الرواية. ولذلك لم يهتم بالافراد، وقد قدم شخصياته اليهودية نقديا نمطيا، كما كتب عن التكوين العقلي للعرب باسلوب التعميم:

«لم استطع اكتشاف شيء لدى العرب. كل واحد يجري الى اتجاه مختلف، وذلك بسبب اعتيادهم الكذب، وبسبب خيالهم الواسع». (ص٢٠٣). وهو يصفهم في فقرات اخرى بالخداع. ولم يكن غريبا ان يتحامل عليهم، لانهم في نظره، قليلو الاهمية، لذلك يعتبر «رابينو فيتش» نموذجاً جيدا يبرر وجهة نظر «سميلانسكي» القائلة بأن احدا لم يقدر تقديرا كافيا مدى الحاح مشكلة العلاقة مع العرب.

من كل ذلك نستنتج ان «شامي» فقط، هو الذي توغل فنيا في اعماق البنية العقلية والنفسية العربية، وقد اظهر «سميلانسكي» تعاطفا مع هذا الجانب من التكوين الانساني، ولكن بسبب اسلوبه الادبي، فان شخصياته تفتقر الى العمق. لقد اعطى اهتماماً لمظهرهم الخارجي اكثر من تكوينهم النفسي. اما «زارحي» و«رابينوفيتش» فلا يكادان يدخلان الى العالم الداخلي للعرب، فيما يتجاهلهم «بيرلا» و«يروشاليمي».

ان تحليل الاسلوب الذي صور فيه كتابنا مفهوم الحب عند العرب، يكشف جانبا آخر من تصويرهم للنفسية العربية.

كما اشرنا منقبل، فان الحب والجنس في الشرق، مقدسان كنعم من الله للانسان، وكان هذا المفهوم غريبا على الكتاب الاوروبيين، ولكنه يوجد في رواية «بيرلا» «ظلام المعاناة». في هذه الرواية تبدو «نورة» التي كانت اول من تكشف حبها لعبد، الهة بالنسبة له. هذا الاكتشاف يجبره على الانحناء وعبادتها كصنم. وقد رأى ذلك معجزة حدثت له:

«كانت كبحيرة ماء بارد نقي تظهر فجأة امام رجل يسير في الصحراء تحت الشمس الحارقة». (ص٣٢).

مكتبة المهتدين الإسلامية

تستحوذ على عبد رغبته الجنسية المتصاعدة حتى يغفل عن كل شيء عداها. اصبح مخموراً بها «كنت كمخمور يشرب بشراهة من عصير العنب» (ص٤٩). ويجعل عبد لحبّه اطاراً مقدسا «الحب نعمة من الله».

كتبت القصة على شكل مونولوج . ولذا فقد ظهر الحب فيها بشكل غير مباشر فالمحبون لا يواجهون القارىء. هذا النوع من التقديم يحول دون اي تعمق في البنية النفسية العاطفية للشخصيات. ومع اننا هنا امام قصة حب الا انه من الصعب متابعة ما هو جوهري منها.

يمكن ان نقول نفس الشيء عن قصة بيرلا «صراعات الانسان». نحن هنا امام عاشق **يهودي يدعى «رحمو حب»**، يستحوذ عليه سحر الحب، كما حصل **مع العاشق** العربي في الرواية السابقة. هنا ايضا نجد الراوي يصف الحب، ولكنه لا يقدمه مباشرة للقارىء. ورأي الراوي في الحب يماثل آراء بقية الشخصيات.

امـا في قصص «سميلانسكي» فالراوي ينظر للحب حسب مقاييسه هو وليس حسب مقاييس الشخصيات. لذلك يفتح الراوي عيون العشاق على حب من نوع آخر قريب من ذلك الذي يفهمه الاوروبيون. ويقترب «سميلانسكي» من هذه الفكرة من زاوية اجتماعية، منتقدا النظام الذي يضع قيودا على اختيار المحبين، كما انه يسلط الضوء على معاناة اولئك الذين يتمردون ويناضلون من اجل اختيار حر لهم.

في قصته الاولى «لطيفة» يعبر «سميلانسكي» عن انتقاده من خلال البطلة. يضع الكاتب سذاجتها مقابل شهوانية سيدها اليهودي. ويصفها بشكل يجعله يعبر عن رفضه لوضعهـا «هـل تتـزوج الفتيات في عاداتكم، من يحببن؟ . . . هنا يبيعوننا كالحمير»، (ص٧). وحالتها المحزنة، في نهاية القصة، هي نتيجة لخضوعها للتقاليد. ولكن حالة اولئك الذين يتمردون على التقاليد ليست افضل من ذلك. لقد ناضلت خضرة، الفتاة الصغيرة الجميلة ضد التقاليد وهربت مع قاسم، في سبيل حبهما، ولكن طعم الحرية لم يدم طويلا، اذ سرعان ما توقف، وحل محله العزاء:

«لقد عزاها بكلمات طيبة وآمال جميلة، بينما كانت قبلاته تغطي وجهها **وعينيها»** (ص١٨).

واننا لنجد نفس الحالة مع «فاطمة» في قصة «محمد مسماري»، **ومـع الفتـاة الـصـغـيرة في قصـة «مـبروك»، ومـع ابـطال قصص «بـكـاء صالحـية»**

http://www.al-maktabeh.com

و«الوثاق»، ومع البدوي الصغير الذي احب الفتاة التركية في قصة «تل المحبة»: لقد عوقبوا جميعاً لتمسكهم بالحب. في الحكايات الفولكلورية والرومانسية فقط، ينتصر الحب، كما في قصة «عائشة» و«حطيط».

ان صرخة ابن صالحية في قصة «انتقام حمدي»، وهو يسعى للانتقام لموت امه. يعبر عن الدهشة لهذا الموقف من الحب ويعكس الاحباط الذي تحس به جميع الشخصيات:

«كل فتيات وابناء الجزيرة العربية يغنون للحب، فلماذا تصبح ثمرة الحب عيباً؟ ماذا كان ذنب امي سوى انها احبت من احبها؟ وهل كان ذنبه عظيمًا ان تمسك بحبها وخاطر بحياته من اجلها؟ لماذا تدخل سيد الجارية الغبية بينهما، وضربها وجهاء القوم»... (ص٣٩).

ان النغمة التي يتحدث بها الراوي تعتبر صرخة من اجل الاصلاح. بينما يتحدث «سميلانسكي» عن الحب في قصصه، فانه يشير الى الجنس في اثنتين منها: «شيطانة» و«تل المحبة»، وكلاهماحكايتان فولكلوريتان. في قصة «شيطانة» يستثير ابراهيم غزالة جنسيا، ويستفز ظمأها للحب والجنس «انا امرأة متعطشة للحب، وقد قادتني رغبتي الى هنا» (ص٦٩).

يذكر وصفه للطريقة التي التف بها «جسدها الناعم» حوله بالخطيئة الاولى التي اقترفتها حواء:

«عانقه جسم حار، والتف عليه جسد ناعم كالافعى... واشعلت شفتيه قبلة حارة... اصبح ابراهيم بين ذراعي غزالة كرسالة في مغلف... كانت عارية كيوم ولدتها امها... انا في انتظارك، انني احبك».

هذا اقصى ما يصل اليه «سميلانسكي» في وصفه للتوق الجنسي في قصصه. اما في «تل المحبة» فيصف شبق «البيك» العجوز ذو الزوجة الصغيرة، بطريقة مقززة:

«انعكس شبق الرجل العجوز على وجهه الجميل حتى اصبح مثيرا للاشمئزاز». (ص٩٣).

على اية حال، يبدو ان «سميلانسكي» يعالج هذا الموضوع في الحكايات الفولكلورية والاساطير فقط، اي في العالم غير الواقعي. اما في القصص الاخرى فلا يتناول هذا الموضوع على الاطلاق.

مكتبة المهتدين الإسلامية

نرى من ذلك كله ان الحب ليس موضوعاً رئيسيا في الاعمال الادبية التي اخترناها، وان كلاً من «بـيرلا» و«سميلانسكي» يعـالجـانها بشكـل غير مبـاشر، سواء كانت الشخصيات عربية ام يهودية.

الخرافـــــات:

مع ان الخرافات ليست مقتصرة بالضرورة على العرب، الا انه لا يمكن فصلها عن البنية النفسية العـربية، كما تصورها هذه القصص. كذلك فان الخوف الذي لا اساس له والرعب من شيء غير معروف، خفي او تخيلي، هو جزء لا يتجزأ من عالم العرب الداخلي. وافعالهم وردود افعالهم، سواء عن وعي او من غير وعي، تتأثر الى حد كبير بالخرافات.

في قصـة «شـامي» «انتقام الآباء»، الخرافات جزء اساسي من البنية الاساسية للقصة. ويشير الصدى في نهاية الاحداث والذي ألمح له في البداية، الى المعتقدات المبنية على الخوف والجهل، حتى الطبيعة تساهم في تكثيف الهواجس. وفي احدى التعليقات اشار «شامي» الى ان البطل يستخدم السحر ضد العين الشريرة:

«على بوابة بيته الكبير خارج البلدة، جمجمة حصان. وجداره الامامي، الذي يواجه القدس، مزين برسومات بيضاء عبارة عن ايد كبيرة وقناديل بسبعة افرع. وقد اصبح هذا البيت محجة للناس» (ص١٧).

كذلـك تستعمـل النسـاء العواقر التعاويذ ضد العين الشريرة، التي يعتقدن ان اعداءهن ينظرون اليهن بها، وكذلك ضد دعاة السوء:

«اعتـادت النسوة اطالة الحديث، واعتدن البوح له بما يختلج في صدورهن من مرارة. كن يتمـزقن من المعـاناة والالم، ومن تأثير السحر الذي يصنعه لهن الاعداء، والذي كان يؤدي الى كراهية ازواجهن لهن، كما كان يؤدي الى عقمهن. كما كن يتحدثن له عن العين الشريرة التي يرنو بها الجيران اليهن، وعن افعال السحر. كان للنبي موسى مكـانـة خاصة لديهن. وكان لا بد ان تطرح الرّقى عند قبره، عندما يلوح اول ضوء للشمس، ويصيح الـديك للمرة الثالثة، وباذن الله القدير، يزول اثر الرقية وكأنها لم تكن». (ص١٩).

http://www.al-maktabeh.com

عندما مرض ابو الشوارب استدعي طبيب ساحر مشهور بقدرته على محاربة العين الشريرة، وكان الناس يعتقدون ان عليهم قبل القيام برحلة، ألا يسمعوا صراخ امرأة او طفل.

من الغريب حقاً انه رغم حقيقة وجود تلك الخرافات في الوسط العربي، الا انه قلما يشار اليها في القصص التي تكون الشخصيات العربية هي الشخصيات الرئيسية فيها. كذلك قلما ذكرها «بيرلا» في «ظلام المعاناة». فقط ذكر ان «عبد» في احدى المناسبات، بحث عن عراف لمساعدته في معرفة حقيقة ماضيه واصله.

يتعرض «سميلانسكي» للخرافات بين العرب كجزء من محاولته لتمكين القارىء اليهودي من فهمهم.

في قصة «ابو الكلب» كان الناس ينظرون الى الرجل الوحيد الاسود في القرية، كشيطان، لا لشيء الا لان لونه مختلف، وكانت النساء الحوامل يغمض اعينهن عندما كان يمر امامهن. كما نجد هذا الخوف غير العقلاني من العين الشريرة لدى «جندي» البدوي، كذلك كان البدو يتسمون بأسماء مزيفة عندما يغادرون مناطقهم:

«لم يكن البدو القادمون من بعيد ينادون بأسمائهم الحقيقية خوفاً من العين الشريرة. كل واحد منهم كان يحمل اسمًا مزيفاً» (ص٥٥).

كان العرب يخشون مهنة السحر وقوته الخارقة، كما تشير هذه القصص. كانوا ينظرون الى الضبع، في قصة «عبدالهادي»، كرسول للسحرة، كما كان الجميع يخافونه، والمرأة العجوز في قصة «ابو شعبان» تعتقد، دون ادنى شك، بوجود الشيطان الذي يحاصر بيوت المتزوجين حديثا، والعلاج الوحيد ضده نبات مثل الباذنجان يدعى «اللفاح» او «اليبوح»، وفي قصة «الطفل» يستدعي الطبيب ساحراً يستطيع بمهارة درء الخطر:

«حملت المرأة العجوز ملقطاً وسحبت به ابرة من وسط النار المتوهجة. ثم قفزت كوحش مفترس، وضبطت على العجين، وتكلمت مع احدهم، ثم سفعت بالابرة الحمراء بطن الرضيع العاري بسرعة مدهشة. وقد تركت ثلاثة حروق قرب بعضها، ثم على الفور سكبت الزيت عليها من اناء كانت تحمله في طيات ثوبها» (ص٢٣١).

ويسرع الكاتب للقول ان العرب لا يذهبون الى الطبيب المؤهل كما يفعل اليهود.

مكتبة المهتدين الإسلامية

في قصتي «برغش» **وانتقام الآباء** تسعى المرأتان العاقران الى الساحرللمساعدة، ولكن اهل القرية يعيبون على المرأة الانجاب بعد فترة عقم طويلة:

«جاءها سعيد من الشيطان وليس من الله.

الجميع يعلم انها كانت تتردد على السحرة والعرافين» (ص١٩١).

هكـذا نجد ان «شامي» و«سميلانسكي» قد صورا تأثير السحر على العرب. كلاهمـا تعـرض الى خوف العـرب من العـين الشريرة، ولكن بينـما اقترب «شامي» الفلسـطيني المولد، **من وجهةالنظرالعربية**، فان الاوروبي «سميلانسكي» قد احتفظ بمسـافة **تفصله عنها، وراقبها كأجنبي** من الخارج، وبينما تساهم الخرافات في قصة «شامي» في صدقها وواقعيتها، فان المسافة التي تفصل بين الراوي وبين الشخصيات العربية في قصص سميلانسكي تكون جواً من الغرابة تتلاءم مع الاسلوب الرومانسي الذي يستخدمه.

العـــــــرب والفـــــــــن:

يمثل اتجاه العرب نحو الفن جزءاً من تكوينهم العقلي والنفسي، ولكن قلما نعثر على ذكر لذلك في القصص موضوع البحث، ربما لان العرب المثقفين والمتعلمين هم من سكـان المـدن، بينـما كان المستـوطنون اليهود على اتصال يومي مع الفلاحين والبدو الاميين، ولذلك لم يحتل سكان المدن العرب مساحة واسعة في الادب اليهودي في ذلك الوقت.

اننا نجد الموسيقى كجزء من الفن واضحة في تلك الاعمال، لانها كانت مهمة في حياة البدو والفلاحين، في قصة **«شامي»** «انتقام الآباء» كانت الموسيقى جزءاً مهمًا من الحج الديني. عندما قبل «ابو الشوارب» الزعامة احتفل المواطنون برقصات جذابة تدعى «الدبكة»:

«سرعـان ما شمـروا اردانهم وعـرضـوا عضلاتهم، واصطف طابور طويل من الراقصين، كل منهم وضع يده في حزام من يليه، وبدأوا «يدبكون» دبكة ريفية. وقد ابـدى صانع الفخار، عبدالقادر، في ذلك اليوم رشاقة فائقة وقاد الراقصين. وعندما بدأت الشمس تحرق وجوههم، اسرعوا قليلا، وتسارع ايقاعهم حتى وصلوا الذروة بوصولهم الى ساحة المسجد»، (ص١٥ ـ ١٦).

http://www.al-maktabeh.com

كان الـراقصون، الذين كانت وجوههم مشتعلة، يقودون الحجيج من القرى المجاورة. وقد رافقت الآلات الموسيقية الجماهير كلما بدأوا حجهم. رقصوا بحماس على طول الطريق، وكان يثير حماسهم زنجي على رأس مجموعة الموسيقيين:

«قاد الموسيقيين زنجي يحمل قربة من الجلد تتصل بها ناي، كان يكشر عن انيابه حتى ترى داخل فمه. اخذ يسير الى الامام. تفرق سيل الحجيج في مدخل القرية وملأوا جنباتها. خرق صوت غنائهم آذان السامعين، وكان يسمع من بعيد». (ص٤٠).

كان لقاء زعماء نابلس والقدس والخليل مناسبة يحتفل بها الناس بقرع الطبول وعـزف الموسيقى، كذلك فقد كانوا يحتفلون في ختام مسيرتهم الى قبر النبي موسى، بالموسيقى والرقصات الحماسية المسكرة.

هكذا كانت الموسيقى جزءاً رئيسياً من الطقوس الدينية، وقد دمجها الراوي في قصته وكأنها ليست نشاطاً مثيراً للاستغراب.

ذكر «بيرلا» في قصته «ظلام المعاناة» ان صوت الموسيقى كان يصاحب الجيش التركي في طريقه الى قناة السويس. هذه هي الاشارة الوحيدة للموسيقى، التي وردت عند «بيرلا»، ولكنه اظهرها بشكل طبيعي:

«أحياناً يمكن للمرء ان يسمع العرب ينشدون انشاداً جماعياً، ويغنون للابقاء على معنوياتهم، وللتخفيف من صعوبات **الطريق**». (ص٨).

وقد أحب الشيخ فرحان «ابا يحيى» اليهودي «لان صوته جميل وغناءه ساحر». لذلك كان يأخذه معه في رحلاته ليغني له. ولكن هذه هي الاشارة الوحيدة للموسيقى في الرواية.

وصف «سميلانسكي» الموسيقى في الحياة العلمانية للناس وقال «العرب يحبون الغناء كثيرا... وعندما كان عطا الله يغني، كان كثيرون يقفون حوله وقلوبهم مفتوحة. واكد «سميلانسكي» ان حب الموسيقى عند العرب لا يقتصر على المتدينين والكبار، بل يشمل ايضا الشباب وغير المتدينين.

النسـاء في قصـة «حـطيط» احببن موسيقى الناي التي تساعد الراعي البدوي والحرس في قصة «برغش» على التعبير عن احاسيسهم.

كان من المألوف بين العرب ان يؤدي الغناء الى حالة جذب صوفي، كما تصور ذلك قصة «بسبب امرأة»:

مكتبة المهتدين الإسلامية

«وقفت صامتة عندما وصل ابن الشيخ . ثم اخذت تضرب الصنوج وبدأت الغناء والرقص . . . في البداية رقصت ببطء، خطوة خطوة. كانت تدور ضاربة الصنوج بسيف، على انغام غنائها وايقاع رقصاتها . . . ولكن ايقاع الرقصات كان يتسارع ويصبح اكثر اثارة، وكان الصوت يرتفع، كما يزداد تكرار ضرب الصنوج بالسيف. كانت تضرب الصنوج بالسيف اولا ثم تلوح به فوق رأسها . . . وفي الختام كانوا يحملونها بعيدا ثم يدورون بها بسرعة الضوء، وبين لحن وآخر كان ثوبها العريض يكشف عن ذراعيها ورجليها العاريتين. كان السيف يُدَوّم في الاعلى، وبين الحين والحين يهوي على الصنوج. وكان شعرها الطويل يدوم في الهواء مثل الافاعي . . . لم ير الضيوف ابدا مثل هذه **الرقصة**» (ص ١٤٥ ـ ١٤٦).

هكذا نجد ان الغناء والرقص لهما دور مهم في حياة الشخصيات البدوية والقروية في قصص سميلانسكي. اما «يروشاليمي» فانه يؤكد على اهمية الغناء والرقص في «الجيتو»، ولم يلتفت الى اهمية ذلك في الوسط العربي، سوى انه اشار قليلا الى «الدبكة»، الرقصة التي يؤديها العرب احتفالا بعرس الشيخ:

«بدأ الجميع يغنون بحماس يتزايد من دقيقة لاخرى، حتى كانت في الختام رقصة الدبكة، التي استمرت بلا توقف ولا تعب حتى منتصف **الليل**» (ص٦٢).

العـــرب والحيوانـــات:

ان اتجاه العرب نحو الحيوانات يجب ان ينظر اليه من زاوية ان الحياة الرعوية تشكل ارضية معظم الاعمال الادبية لوضع هذا البحث. ولكننا في الحقيقة نجد ان الكتاب لا يورد دونها كعنصر اساسي في الحياة العربية التي يصورونها في اعمالهم الادبية.

ترد اشارة الى ذلك في اعمال «ستافي»، وفي قصة «الضيف» بالذات، اما «**شامي**» فقد اشار باقتضاب الى فرس احد الابطال، واوضح «رابينو فيتش» عادة العرب في تربية الخيول الاصيلة، وفي احدى الفقرات اشار البطل اليهودي الى ان العرب يقدرون المهر الاصيل اكثر من تقديرهم المرأة.

يركز «سميلانسكي» على الخيل بالذات، من بين الحيوانات، في قصصه، ويشير اليها دائمًا وبوضوح، اكثر مما يفعل بقية الكتاب. وقد يبدو ذلك لاننا اخترنا مجموعة من قصصه اكثر من قصص بقية الكتاب.

http://www.al-maktabeh.com

فيما يلي بعض الامثلة : عبدالهادي له مهر خاص لا يمكن ان يؤذيه احد . والشيخ في قصة «زوجة الشيخ ومهره» يحب فرسه اكثر من زوجته . وحب الشيخ لفرسه في «بكاء صالحية» وحب الرجل العجوز لفرسه في «انتقام حمدي» واضح جدا، وفي «سعيد البدوي» يعتبر عدم حب الصبي لفرسه، امراً مستهجناً .

اما الكلب فقد ورد في قصة «ابو الكلب» و«منتصف الليل»، كما نجد حب الخروف في قصة «نمر» وحب الحمام في قصة «ابو حوا» .

باختصار، يمكن القول انه باستثناء شامي فان كتابنا لم يصوروا العربي كفرد، سواء على صعيد تكوينه الجسمي او العقلي . وبغض النظر عن الاساليب الادبية التي استخدمت فالنتيجة هي التنميط، لقد استعرضنا في هذا الفصل رغبات العرب، وخرافاتهم ومواقفهم من الموسيقى والحيوانات، وكيفية تأثرهم بها .

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الرابع

البنية الاجتماعية للمجتمع العربي

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

يشكل نمط حياة القبيلة البدوية ارضية رواية «بيرلا» «**ظلام المعاناة**». وهو يتلو قصته للمترجم اليهودي، الذي يشكل شخصية فوقية، ومن خلال ذلك يتعرف القارىء **على نمط الحياة في المجتمع البدوي. وهو يضع ثقته في اليهودي كمستمع، ويوحي بأنه لا يمكن أن يثق بنفس الطريقة في زميله البدوي.**

كما اشير من قبل، فان «عبد»، البدوي، هو الوحيد الذي بقي من قبيلة «قطيفة»، ولم ينج من انتقام «حنيفة»، القبيلة المعادية، الا لان الاخيرة لم تقبل ان تنتهك وصايا النبي، محمد، الذي قال عندما هاجر الى المدينة:

«**لن تمحى** قبيلة قطيفة عن وجه الارض. ومن حاول ابادتها فعليه لعنة الرسول، وليبشر بالزوال عن وجه **الأرض**» (ص ٨٧).

إن أصل «عبد» النبيل، لم يشفع له لدى قبيلة «حنيفة» لانه ابن القبيلة المعادية. ولذلك فقد تربى على يد طباخ، وعاش حياة ابناء الاسر الدنيا في قبيلة حنيفة. وفي سن الثانية عشرة ادرك الحقيقة المؤلمة: حقيقة انه غريب، وادرك انه حرم من طفولته. لقد لبس الاسماق البالية، بينما رفل ابناء الاسر العريقة في حلل الحرير، وحملوا الخناجر والبنادق، رمز القوة والاستقلال. وقد بدأ يدرك الفجوة الكبيرة بين ابناء الاسر الغنية والفقيرة. وقد شعر بهذه الفجوة بشكل حاد في حفل الختان. وهو من سنن الاسلام المهمة، رغم انه لم يذكر في القرآن:

«أتذكر انه في ذلك اليوم جاء كثير من الناس من المناطق المجاورة، كان هناك ثمانية او عشرة صبيان يراد ختنهم. «أبناء العائلات» كانوا في المقدمة على ظهور جمال صغيرة سمراء ضاربة للصفرة، مزينة بقماش وصل حتى الارض. كان الصبيان يلبسون حللاً من الحرير الجديد، ويلفون حول اعناقهم عقوداً من قطع النقود. كانوا يضعون البنادق على اكتافهم، والسيوف على اجنابهم، وخلفهم سار ابناء «الجواري»، اما نحن فقد ركبنا الحمير ولبسنا الثياب البيضاء البسيطة، وقد احاطت بنا وسارت معنا كوكبة من الفرسان، كما هي عادة القبيلة. وعندما وصلنا التل قام الشيخ محمد زيدان، من المدينة، بختاننا. في طريق العودة لعب الصبية لعبة السهم. ولكنني لم اشاهد ذلك لان

مكتبة المهتدين الإسلامية

الالم كان حادا، ولكن، يا خواجا داود، كان الخجل اكثر ايلاماً من الالم، كنت احسد «ابناء العائلات». يومها ادركت انني عبد غريب منبوذ»، (ص١٩).

يتعاطف الراوي اليهودي مع عبد، وينتقد الظلم الاجتماعي الذي تكشف عنه القصة.

ولكن «سميلانسكي» في قصته «ورق البردي» يقدم المجتمع البدوي، بشكل مغاير، اذ يقدمه قائمًا على اساس المساواة. ويدعم رأي «سميلانسكي» كتاب «باير» «العرب في الشرق الاوسط»، حيث يؤكد ان هناك مساواة اجتماعية مطلقة في القبيلة البدوية.

على اية حال ظل «عبد» منزوياً عن بقية ابناء قبيلة «حنيفة». وكان عليه ان يلتحق بالرعاة المتجولين. ولكن شيخ القبيلة خشي ان يهرب عبد، لذلك استدعاه الى الخيمة وابقاه لخدمة الضيوف:

«كنت، وآخرين من ابناء الجواري، نذبح كل يوم او نحلب الابقار والاغنام، كنا نستقبل الضيوف ونخدم كبار السن من ابناء القبيلة. كان الضيوف يفدون اسبوعيا، ويقيمون اياما، كانوا يأتون لاسباب تجارية، لا ادري كيف. بشكل عام كانوا يجلسون ويعدون كميات كبيرة من النقود. وما ان يغادروا حتى يأتي غيرهم. كان علي ان احمص القهوة باستمرار، واغليها واقدمها للضيوف، كذلك فقد تعلمت كيف اعد «النرجيلة». كنت مشغولا باستمرار» (ص٢١-٢٢).

وقد اخبر عبد الراوي، كذلك، عن التقاليد البدوية مثل الرحيل الدائم، وقيام البنات بنقل المياه الى الخيام، وهذا ما كان يوفر الفرصة للبنات والاولاد للالتقاء، وعن حب السيف، والتزام البدو بالثأر.

ركز «بيرلا» على تصوير الحياة الداخلية للبدو في الصحراء، بينما ركز «سميلانسكي» على فقرهم، مقابل الفلاحين المستقرين، ولفت الانتباه الى التوتر بين الفريقين.

ربما يعود اختلاف الاهتمام لدى الكاتبين، الى خلفية كل منهما. لقد قضى «بيرلا» بعض الوقت مع البدو خلال رحلاته في الصحراء، بينما اقتصرت لقاءات «سميلانسكي» مع البدو، على تلك المناسبات التي كانت تقتضي من البدو الاقتراب من القرى او المدن. ما اراد «سميلانسكي» التركيز عليه، ظاهر في هذه الفقرات من قصة «محمد»:

http://www.al-maktabeh.com

«عندما جاء الربيع، حمل اهل الجنوب خيامهم، ورحلوا جميعا من الجنوب الى الشمال. حملوا الخيام والممتلكات على ظهور الجمال.. لم يقتربوا من القرى. نظر الفلاحون اليهم، وكأن كلمة «الجوع» المخيفة قد علقت على ظهورهم... نصبوا خيامهم مؤقتاً على بعد مسافة من القرية... وعلى الطريق كانوا يجمعون الخضار العفنة والفواكه. وما جمعوه اكلوه على الفور. لقد انتقل من ايديهم الى افواههم. بدأت النسوة **يطبخن**، والرجال جمعوا الاشواك والاعشاب الجافة، واشعلت النيران.. وبدأوا يوزعون الخبز، ويأكلونه وهو لا يزال حارا» (ص٤١-٤٢).

يرثي الراوي اليهودي لفقرهم وبؤسهم:

«نظرت الى خيمة **الكتان** الحقيرة الصغيرة، والى المرأة العجوز، التي لم تكن سوى كومة من عظام في وعاء من الجلد، والى جرة الماء، والى كيس في زاوية الخيمة. في ذلك الكيس كانت كمية من الدقيق اشتراها بنقود قليلة كنت قد اعطيتها له. نظرت ايضا الى المهد الذي انبعثت منه صرخات واهنة» (ص٤٧).

كما اشرنا من قبل، فان الحياة البدوية، رغم قسوتها المادية، الا انها تمنح البدوي الحرية التي يريدها، ولذلك فهو يحتقر حياة الاستقرار التي يعيشها الفلاح، كما يشير الى ذلك في قصة «المنفي»:

«**ترسخت** في قلب البدوي الكبير مشاعر الازدراء التي يكنها بدو الصحراء للفلاحين» (ص٢١٩).

هكذا نجد «سميلانسكي» يسلط الضوء، من جهة، على فقر البدو، ويعبر عن اعجابه بطريقتهم في الحياة، من جهة اخرى.

لم يحاول سوى الشيخ خليل في «**غزال وغزالة**» **أن يقاوم** الفقر، ولكن بعد ان اقيمت الى جانبه مستوطنة يهودية:

«عاش الشيخ خليل وابناء قبيلته حياة جيدة، ولم يكونوا يحتاجون الى اي شيء. كانوا بدواً، ولكن بعد ان اقيمت الى جانب مضاربهم مستوطنة يهودية كبيرة، توقفوا عن الرحيل واستقروا... ولكن الشيخ وبناته عاشوا في الخيام، **لانهم** لم يقبلوا استبدالها ببيوت **الحجر**. **لقد** بدأوا يحرثون الارض ويزرعون... وقد فعلوا ذلك بنجاح». (ص٢٢٤).

مكتبة المهتدين الإسلامية

على اية حال، تلك كانت حالة استثنائية، واستمر معظم البدو في اسلوب حياتهم القديم:

«خلال الشتاء كان البدو يسكنون خيام الكتان، التي كانت تنصب بين جبلين لحمايتها من رياح الشتاء الشمالية والغربية العاصفة. وفي الصيف كانوا يسكنون اكواخ القش، التي كانت تنصب في رؤوس التلال حيث يهب نسيم البحر البارد». (ص٢٤٦).

كل ما كان يملكه «مبروك» في القصة التي حملت نفس الاسم، خيمتان، واحدة للشتاء منسوجة من الصوف، واخرى للصيف مصنوعة من القصب. ولكن هذا الفقر لم يمنع «سميلانسكي» من وصف المضارب في «بكاء صالحية» بأوصاف رومانسية:

«على مساحة واسعة من السهل الذي يقع بين جبال الناصرة، انتصبت صفوف من الخيام السوداء، الكبيرة والصغيرة. كل صف يقابل الاخر. وبين الخيام، من كل الجهات ارتفعت كتل من الدخان الخفيف، المنبعث من النيران التي اوقدتها النساء لاعداد خبز المساء وتجهيز العشاء. كان الدخان يتجه غرباً ويتلاشى. في اكبر الخيام جلس الشيخ الصغير وحوله وجهاء القبيلة على السجاد». (ص١٠).

في قصة «تل المحبة» وصف رومانسي لخيام النساء:

«أضاء مصباح صغير ظلام الخيمة الكبيرة. وفي وسط الخيمة، وعلى سجادة فارسية كبيرة، جلست امرأة صغيرة في سن العشرين، مستندة الى مجموعة من الوسائد والمساند» (ص١٠٢).

هذا الوصف هو عكس وصف مساكن الفلاحين القذرة في «انتقام الدم»:

«وضعت الفتاة سريرها على سطح المنزل وذهبت للنوم. وفي نفس الوقت اعد العبد الاسود سرير سيده، وفرش عدة فرشات ووضع عدة وسائد وبطانيات، ثم اختفى».

ان تفضيل «سميلانسكي» لحياة «البدو» تظهر اكثر في لهجة الاحتقار التي يتحدث بها واصفاً منزل احد الفلاحين في قصة «فلاحين»:

«كانت بيوت الطين صغيرة سوداء قذرة، بلا نوافذ. كانت ملتصقة ببعضها غارقة في الوحل، الذي لم يكن بعيداً عن ابوابهم»، (ص١٥٦).

http://www.al-maktabeh.com

كما اشرنا سابقاً، فالراوي في قصص «سميلانسكي» يهودي. وهناك مسافة تفصل بينه وبين العرب الذين يصفهم ويراقب احوالهم، لذلك فهو عندما يتحدث عن البدو واسلوبهم في الحياة، فان وصفه لهم يظل من الخارج، ولا يتغلغل الى الداخل، بينما نجد ان الراوي في قصة «بيرلا» بدوي، مثله مثل بقية شخصيات القصة، وهو يتكلم عما يعرفه جيدا. ورغم انه يقص حكايته على مستمع يهودي، الا انه يقصها من الداخل، وليس كما يراها الآخرون من الخارج. يرفض «بيرلا» فكرة الظلم الاجتماعي، **بينما يسلط «سميلانسكي» الأضواء على الفقر، ويظهر اعجابه بسحر الحياة البدوية،** رغم ذلك. **في الحالتين، نحن نسمع آراء الكاتبين، ولكن كلاً منهما يكتب من زاوية، غير تلك التي يكتب منها الآخر.**

في رواية «عماسي الشومير» لـ«رابينو فيتش» ينجذب عماسي لسلوك البدو وطريقتهم في الحياة، وهو يؤمن بالحاجة الى «البدوي اليهودي» من اجل بعث الحياة وتطبيقها في «اليشوف». وهو يؤمن بأن الانسان «المتجول اقوى من الجميع».

وهو يجد تشابهاً بين حياة اعضاء «هاشومير» وحياة البدو. كلاهما يرفض فكرة الاستقرار الدائم في ارض معينة، ويفضل الحرية التي يوفرها التنقل من مكان الى آخر. وبنفس الاسلوب يشبه عماسي التوتر الناشب بين البدو والفلاحين العرب بذلك الذي بين «الشومريم» والفلاحين اليهود:

«تماما كما ينظر البدوي الى الفلاح بسبب حياته الهادئة الرتيبة، واهتماماته البسيطة التافهة، وبسبب تحمله لمسؤوليات ثقيلة ينوء تحت ثقلها، وبسبب خضوعه لقوى الطبيعة ولاي انسان اقوى منه، وبسبب التصاقه بأرضه بدلا من الترحال، تماماً كما ينظر البدوي هذه النظرة، ننظر نحن «الشومريم» الى اخينا الفلاح والعامل نظرة احتقار». (ص ٤٠).

ينظر «الشومير» الى العامل كعبد. واكبر اهانة لـ«عماسي» ان يوصف بأنه يبدو كفلاح. هكذا يعكس «رابينوفيتش» روح اليهودي الجديد، الذي يريد تمزيق صورة يهودي المنفى، ليتشبه بالبدوي المحلي.

يعتبر عماسي الصحراء مهد الانسانية، ومصدر الطهارة والنقاء قبل ان يفسدها الانسان. في نطاق بحثه عن يهود خيبر، اقام فترة مع بدوي. وقد رأى الحياة معهم

مكتبة المهتدين الإسلامية

«كالحياة في جنة عدن قبل ان يأكل الانسان من شجرة المعرفة». وهو يشعر بالحسد تجاه البدوي الذي لم تلوثه الحضارة الاوروبية وانحلالها المقيت:

«شعره اشعث طويل، وعيونه غريبة. وصرخاته، وهو يمر بين العرب بقافلة جماله، مرعبة... الانسان لغز، والحياة لغز، ولكن الصحراء تبقى اكبر الالغاز، مهد الانسان». (ص٤١)، يظهر عماسي تعاطفاً مع فقر البدو، ويقارن ذلك بالمستوطنة اليهودية ويفضل حياة البدو عليها، ويتوق اليها ويتمنى لو استطاع ان يعيش حياة البدو، رغم قساوتها:

«هناك على ارض المستوطنة انتشر البدو. اقتربت منهم. بدأ كلب مربوط بسلسلة بالنباح، وكشر عن انيابه، بينما خافت فتاة بدوية نصف عارية، وهربت .الله اعلم خوفاً مني ام من الكلب! وصلت الخيمة الاولى. كانت النساء البدويات في المدخل يجهزن النار. وجوههن محجبة، وفي انوفهن خواتم مصرية تمسك اجزاء الحجاب، وتشوه منظر المرأة البدوية في النقب. الواقع انني كرهت هذا النوع من الزينة، حيث جئت من الشمال، فالمرأة العربية اما مكشوفة الوجه، كنساء الفلاحين هنا، او محجبة على طريقة اهل المدن. لا يوجد مثل هذا التشويه في الشمال، الا في مدينة سمخ. دخلت في نقاش معهم. قال احدهم ان الخيمة تمتلىء بالماء شتاء، لان هناك ثقوباً فيها لم ترقع بعد.الحياة هنا سيئة، وليست كما هي في الصحراء.. انهم لا يشعرون بحسد للناس هنا، لانهم ان فعلوا ذلك كانوا فلاحين. كل ما يتمنونه العودة الى الرعي في الصحراء. لو توفر لكل منهم مرعى معشوشب وبلح كاف، فماذا ستتمنى قلوبهم اكثر؟ هل ذهبت يوماً الى الصحراء؟ احياناً، اتوق الى السهول البعيدة العريضة، وللجبال الشامخة التي تحد الصحراء، لكم اتذكر تلك الايام التي قضيتها مع البدو، الايام التي عشتها حراً في حضن الطبيعة».

كما اشرنا سابقاً، تحرر عماسي من الوهم، عندما واجه الواقع، وهزمته احلامه: لقد اكتشف ان **تجواله** لم يؤد به الى اي شيء ايجابي او بناء. من ذلك نستنتج ان «رابينوفيتش» كان ينتقد هذا الاعجاب باسلوب الحياة البدوية، لانه اعجاب رومانسي لا جدوى منه. وهو يدعو الى موقف واقعي. يصور عماسي حب البدو للحرية كسمة اساسية تحدد طريقتهم في الحياة، وهذا ما كان يجب ان يتسم قومه به. ولكنه لم يتغلغل الى ابعد من ذلك في وصف السلوك البدوي او ظروف البدو الاجتماعية. ولهذا السبب

http://www.al-maktabeh.com

اعتبره الكاتب فاشلاً. رؤيته للبدو ظاهرية، وسرعان ما يهتز لدى نظره الى اسفل السطح.

باختصار، فقد جاء انتقاد «سميلانسكي» لفقر البدو على اسس انسانية، بينما نفذ «بيرلا» الى داخل الحياة البدوية ليسلط الضوء على ما في داخلها من ظلم. اما «رابينو فيتش» فقد صورهم، كمراقب خارجي اجنبي، من وجهة نظر يهودية معاصرة تعجب ببساطتهم. وتؤكد وجهة نظر «رابينو فيتش» انتقاد البروفيسور «كلاوسنر» لذلك الاعجاب:

«اذا تشبه اليهودي بالبدوي، فتعلم كيف يركب الحصان ويطلق النار ويلبس غطاء الرأس، اعترى الكتاب الاسرائيليين اعجاب كبير، واذا اظهر اليهودي روحاً بطولية تفرض احترامه في قلوب العرب، فانه لا يحظى بثناء كاف لدى اولئك الكتاب».

هذه بالضبط هي الصورة التي يقدمها «رابينو فيتش» لليهود والبدو. ولكن اياً منهما، لا يظهر في القصة كشعب حقيقي، انهما يصوران كنماذج لجماعتيهما، ومهمتهما في الرواية منح الكاتب الفرصة للتعبير عن آرائه، التي هي آراء اشتراكية.

الفلاحـــــــــون

رأينا فيما سبق ان كلاً من «بيرلا» و«سميلانسكي» و«رابينو فيتش» معجب بالبدو. وقد كتبوا عن حياتهم كحياة فذة، كما نظروا اليها من زاوية اشتراكية، ولكن التعامل بين اليهود والبدو كان مقتصرا على التجارة والعمل. والاتصال بين المهاجرين اليهود والبدو كان بشكل عام اتصالاً مؤقتاً متقطعا.

على العكس من ذلك كان الاتصال بين اليهود والفلاحين، اتصالا متواصلا دائما، ومرتبطا بشكل اساسي ببيع الاراضي. وكان المهاجرون اليهود، على صعيد آخر، يستخدمون الفلاحين للعمل في الارض احياناً.

الغريب ان نكتشف ان كتاب مجموعتنا، لم يتكلموا كثيرا عن الفلاحين. اقتصر اهتمام «شامي» على سكان المدن، ولذلك لم يشر الى الفلاحين او البدو، بينما تحدث «بيرلا» في «صراعات الانسان» عن سكان المدن، وفي «ظلام المعاناة» عن البدو. ولم يشر في اي منهما الى الفلاحين. اما «ستافي» فقد وصف القرية العربية وفقر الفلاحين، كذلك وصف «سميلانسكي» فقر الفلاحين، كما وصف فقر البدو، الا انه لم يشعر

مكتبة المهتدين الإسلامية

باعجاب رومانسي تجاههم، كاعجابه بالحياة البدوية، لذلك جاء وصفه لهم بعبارات واقعية. وقد عزا فقرهم الى قوانين الارض التي كانت تقيدهم، كما اشار الى ذلك في قصة «فلاحين»:

«كان حسن عبدالله فلاحاً كبير السن باهت اللون، ذا منكبين عريضين، ووجه يشع باليأس والحيرة. كان ينوء تحت الضرائب، والعشر وتحكم الشيوخ والجنود والجفاف والعمل الشاق» (ص١٦٧).

كان على الفلاح ان يدفع خمس الناتج الى مالك الارض، الذي يعيش عادة في المدن، او يعيش غنيا في القرية، وقد تسبب تركز الارض والثروة بيد قلة من الناس في الفقر المخيف الذي يعاني منه كثيرون. وقد اشار محمد في القصة التي تحمل اسمه، الى انه لو باع الشيوخ الاغنياء مخزونهم من القمح في زمن الجفاف، لكان باستطاعتهم مساعدة الفقراء، الا انهم اختاروا غير ذلك:

«نعم، يا سيدي، لقد حدث انه بينما كانت آلاف الاكوام من القمح والشعير والحبوب، مخزنة في المخازن، كان ألوف الناس حولها يتضورون جوعاً» (ص٤٤).

يسلط «سميلانسكي» الضوء على التناقص بين فقر الفلاحين ولا مبالاة الاغنياء في قصة «رشيد العجوز» يجند رشيد للخدمة في الجيش التركي، ويترك خلفه امه الارملة واطفالها يهلكون جوعاً.

في قصة «محمد ابو حدبة» يتخلى الاب عن ابنه محمد، وليس معه سوى حزامه وحبل، ليجد محمد نفسه مضطراً للعمل لدى اليهود ليعول نفسه وامه.

في قصة «محمد الراعي» لا يجد البطل امامه الا مهنة الرعي. لانه كان متخلفاً عقليا:

«كان جائعاً باستمرار. وعندما كان يجد عملاً، لم يكن يكسب أكثر من ثمن الخبز الجاف» (ص١٥٩).

الحقيقة ان كل القرويين الذين نقابلهم في قصص «سميلانسكي» لا يكسبون اكثر مما يمكنهم من توفير الاحتياجات الضرورية لاسرهم.

البطل في قصة «ابو الكلب» لا يكاد يكسب مالاً. مقابل عمله يحصل على «خبز ليأكل وثياب ليلبس. اما المال فلم يكن يحصل عليه». ولذلك فلم يستطع ابداً «شراء زوجة»، اما عبدالله ابن الشيخ في قصة «عائشة». فقد قدم لوالد عائشة «كيسين من

http://www.al-maktabeh.com

القمح وخمسة اكياس من الشعير» مهراً لابنته الجميلة، رغم ان الشيخ نفسه كان يملك ثروة كبيرة. وما كان باستطاعة والد الفتاة ان يقف في وجه الشيخ القوي. في قصة «لطيفة» عندما كان الشيخ يمر كان الجميع ينحنون احتراماً ويلوذون بالصمت. في قصة «انتقام الدم» جميع اهل القرية من اهل الشيخ:

«كان جميع سكان القرية من عائلة الشيخ. كانوا يزرعون الجزء الاكبر من ارضه، التي ورثها عن اسلافه، وكانوا كل عام، يأتون اليه بخمس المحصول» (ص٢٣٨).

في قصة «رشيد العجوز»، عندما يعود رشيد من الحرب، يجد نفسه مضطرا لتسليم ارضه الى الشيخ مقابل جمل، وقد سخر «سميلانسكي» من ثروة وقوة الشيوخ وتحكمهم في حياة الفلاحين الفقراء، كما في قصة «فلاحين»:

«كان جزء كبير من ارض القرية ومخزونها من الحبوب مرهوناً لديه، كل شيء كان يصب في جيبه، بينما كانت جيوب الفلاحين تنضب» (ص١٦١).

وقد اشار الراوي في قصة «حسن وحمد وخليل» الى انه لم يكن يسمح لاحد بالشكوى على الشيوخ. ولم يكن القرويون العرب يعرفون المكننة الزراعية او استخدام البخار، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن الاساليب المتقدمة في الزراعة، كان اسلوب الحصاد عندهم بدائيا، كما في قصة «عبد الهادي»:

«كانت شرائط ضيقة من التراب والطين كالاوردة بين صخورجافة، وكانت تحصد باليد ودون استخدام الحيوانات» (ص١٤٩).

في الوديان كان الفلاحون يحرثون الارض بواسطة الحمير والجمال، كان عملهم لذلك غير متقن وغير مثمر لدرجة انهم كانوا يضطرون احياناً للرحيل جنوباً للعمل لدى الشيوخ الاثرياء، كما ورد في قصتي «عائشة» و«ترحال رمضان».

أشار «سميلانسكي» الى التوتر، الذي وصل درجة العداء، بين البدو والفلاحين، في قصة «محمد».لم يكن الفلاحون مسرورين ابداً عندما جاءهم البدو من الجنوب، ولم يغفر القرويون للفلاح الذي تزوج فتاة بدوية في قصة «حطيط». «شعروا انه بذلك جلب عليهم العار، ولذلك طردوه من القرية».

أشار «سميلانسكي» ايضا الى افتقار الفلاحين للثقافة، ولكن اشاراته المتفرقة توحي بأن هذا الجانب كان اقل خطورة من الامراض الاجتماعية الاخرى.

مكتبة المهتدين الإسلامية

أشـار «رابينو فيتش» مرة واحدة فقط الى الفلاحين، وذلك من خلال «فيرا»، اليهودية الاشتراكية، التي قدمت الى فلسطين زائرة. وقد شعرت بالصدمة لدى ادراكها لمدى الاستغلال الذي كان يعاني منه الفلاحون:

«هنـا فقط فهمت الاستغـلال البشـع للعـامـل الاجنبي، والاهمال والقذارة والاستغلال الذي يعاني منه الفلاح العربي الفقير. يجب ألا يكون هناك اناس فقراء، يجب ألا تكون هناك اجناس دنيا في هذا العالم» (ص٧٩). من كل ما ذكر نستنتج ان الاشارات الى الفلاحين في الاعمال التي اخترناها، اقل من الاشارات للبدو. وتكثر هذه الاشـارات في قصص «ستـافي» و«سميلانسكي». كان هدف «سميلانسكي» تسليط الضـوء على تخلفهم، من جهـة، وتسليط الضـوء على مدى نفوذ الاثرياء، من جهة اخرى. الا انه كان يرى ذلك من بعد، من خلال الراوي اليهودي الذي كان يتحدث عن امراض اولئك الفلاحين، مع الايحاء بأن هناك حاجة ما الى الاصلاح في نظام توزيع الارض من اجـل تغيير وتحسين الاوضاع العربية. وقد ورد ذلك بصراحة على لسان البطل في قصة «عطا الله» الذي كان يتأثر، في آرائه باليهود، حتى انه اخذ يحتقر وجهاء القرية الذين كان مركزهم القوي يمكنهم من «الخداع لدى توزيع الارض»:

«عندما تجمع القرويون، بدأ عطا الله يلوم الاغنياء لاستغلالهم اخوانهم الفقراء، ودعاهم الى التشبه باليهود الذين يدفعون، حتى للعامل العربي، ضعف اجرته»، (ص١١-١٢).

ولكن الشيوخ الاغنياء، غضبوا على عطا الله وحطموه، وفي قصة «المنفي» لم يتحد احد سلطة الشيخ المطلقة، حتى بعد ان خسر ثروته.

في قصة «ميركادو، سائق الحمار» تعرض «يروشاليمي» ايضا الى الظلم الاجتماعي الناجم عن احتكار الشيخ للثروة والنفوذ:

«كان ذلك الشيخ يمتلك قرى بأكملها حول الخليل. كانت تلك القرى تعتبر ملكاً خاصاً له، كان جميع سكانها تحت سيطرته، وكانوا يأتون له كل عام بهدية، عذراء صغيرة جميلة تصبح زوجة له»، (ص٦٢)، لا نجد هنا لهجة انتقاد في صوت الراوي وهو يحكي القصة، لقد اشار الى امتنان سكان القرى لكرم الشيخ الذي صوره الكاتب ايضا كشخص كريم جميل.

http://www.al-maktabeh.com

كما ذكرنا آنفاً، فان معظم الكتاب اليهود لم يكونوا على اتصال يومي مع العرب الذين يقطنون المدن، ولكن «شامي» الذي ولد في الخليل وعاش حياته في المدن، اشار الى حياة المدينة في روايته «انتقام الآباء». بعد ان تطوع ابو الشوارب ليصبح زعيم الحجاج، حمله اهل بلده عبر سوق الاحذية، ومن هناك الى سوق الحلويات. ومن خلال وصف هذه الرحلة يتراءى للقارىء منظر المدينة.

ينضم لموكب الحجيج الفلاحون الذين يأتون الى المدينة كل يوم جمعة للصلاة، والبدو الذين يأتون للتسوق، ويستكمل المشهد بصورة العميان والاطفال والمتسولين الحفاة، والكسالى، ويستحوذ وصول الحجاج من المناطق البعيدة ال المدينة على جو الشوارع، وبشكل خاص منظر المتسولين الذين ينتظرون وصول اولئك الذين يمكن ان يساعدوهم:

«فتحت المتاجر هذا اليوم ابوابها مبكرة على غير العادة، وقبل ان يتلاشى الظل من السوق، وقبل ان يستفتح التجار (الاستفتاح هو البيع الاول الذي يجلب الحظ بقية اليوم)، اخذ المتسولون ومئات آخرون قذرون يرتدون اسمالا بالية ولا يملكون سوى خيولهم، اخذوا يتنقلون من متجر الى آخر طلبا للصدقات. مرّ المتسولون بصمت، ومباخرهم ممتلئة بالبخور المحترق، وبتذلل مدّوا دلاءهم آخذين مهما قدّم لهم: من حلوى او فتات طعام، او خبز جاف... ثم ابتعدوا بهدوء». (ص٢٦).

خلف شوارع المتاجر ظهرت صورة مدينة نابلس، بأزقتها المعتمة تعلوها الاقواس، ومناراتها العديدة، كما ظهرت صورة مدينة الخليل بشوارعها المختلفة باختلاف اسواقها المتخصصة، كما ظهر المتسولون فيها كظاهرة طبيعية، وظهر سوق الصابون مزدحماً.

أما القدس فقد وصفت وصفاً موجزاً، وهي تبدو من خلف جدرانها، وبمنائرها ومنازلها وشرفاتها، وجبل المعبد فيها. ولكن لان الحجاج لم يكونوا يمرون فيها لم تكن هناك حاجة لوصفها باكثر من ذلك. اضافة الى وصف الملمح المادي للمدن، فاننا نشاهد وصفاً للعداء بين سكان الخليل ونابلس. تلك العداوة كانت سبب المأساة وكان اذلالهم سببا في السعار الذي اصابهم:

«كانوا على وعي بالخجل والاذلال. كانوا غاضبين متألمين. كانوا يصكون

مكتبة المهتدين الإسلامية

اسنانهم، وقد اشتد سعارهم وهم يركضون حتى ان الخلايلة ارتعدوا من الخوف عندما رأوهم، ولاذوا بالصمت»، (ص٤٨).

وصف حجاج نابلس اهل الخليل بـ«المخادعين» «المجرمين»، واعتبروا انفسهم اعلى منهم مكانة:

«نحن اشرف منهم، وعائلاتنا اشرف من عائلاتهم... والحذاء الصغير في رجل احد ابنائنااكثر قيمة من رؤوسهم». (ص٤٢).

حتى شيخ الازهر في القاهرة اعرب عن عدم ثقته بأهل الخليل، الذين وصلت سمعتهم السيئة بلده. بالنسبة للقاهرة نفسها فقد قدم «شامي» صورة حية لها:

«في امسيات الصيف من شهر تموز، كان الناس يسيرون في الظل، متعبين منهكين من صراعهم الطويل مع الحر.كان الاوروبيون ينقلون زوجاتهم المتعبات في عربات تجرها الخيول وبالسيارات.كانوا يسيرون عبر الشوارع باتجاه ضفاف النيل بحثاً عن الهواء وبرودة النهر المنعشة... على كلا جانبي هذه المدينة الساحرة التي تبدو كمدينة «بابل»، وعلى امتداد صفوف اشجار النخيل الطويلة، المنتصبة كأنها مسحورة، كانت جموع الناس تندفع في اتجاه واحد: الشوام، الزنوج، الاقباط، الأرمن واليونانيون، خليط من الناس من كافة الالوان والاجناس. كل تلك الجموع كانت ذاهبة للاحتفال بنسيم المساء قبل قدوم الليل بحرارته وهوائه الثقيل. وبمزيد من الصخب تفرقت الجموع، وانتشرت بين تجمعات اشجار النخيل، والمروج الجميلة على ضفاف النهر، حيث كانت عدة فرق موسيقية، عربية واجنبية تعزف، في مرح، موسيقى صاخبة، وألحاناً شرقية مفعمة بالعاطفة» (ص٩٩).

صور «شامي» ايضا العالم الخلفي الذي عاش فيه كثير من اللاجئين الذين هربوا الى القاهرة بحثاً عن السعادة، وقد وجد بطل القصة ايضا سعادة في ذلك العالم الخلفي، عندما وصل الى القاهرة، حيث وجد المقاهي والغناء والحشيش ولعب الورق... كل ذلك ساعده على ملء حياته ونسيان همومه:

«في اكثر ساعات النهار حرارة، عندما كان الهواء حارا وكأنه ينبعث من فم متوهج، وكانت الشمس تخترقه بأشعتها، كانوا يقضون وقتهم في ساحات المساجد المظللة، او يتمددون في وقت الظهيرة بلا حركة في بساتين النخيل، ومع اقتراب الغروب كانوا ينزلون الى الشوارع التي كانت تدب فيها الحياة، والحركة والبهجة، حيث يذهبون

http://www.al-maktabeh.com

الى المقاهي والبارات يستمعون الى الموسيقى ونغمات العود، باحثين في شعر الشعراء عن صدى لارواحهم، او تعبيرا عن غربتهم، وحنينهم للوطن، عن وحدتهم ورحيلهم الدائم»، (ص٨٣).

ان وصف «شامي» الحي لشوارع الخليل والحياة فيها، ثم وصفه المفصل لشوارع القاهرة، والحياة فيها، جاء فريداً من نوعه، وجاء متوازناً مع احداث قصته.

مكتبة المهتدين الإسلامية

[العلاقات الداخلية بين الفئات الاجتماعية]

رأينا ان المجتمع البدوي، قائم اساسا على القرابة القبلية، ومؤلف من عدة افخاذ، وقد وصف كل من «بيرلا» و«سميلانسكي» هذه الجماعات، كما تعرضا للعداوات بين القبائل.

وقد ذكر الرجل العجوز من قبيلة «قطيفة»، الذي نجا من المذبحة، والذي سعى اليه عبد في بحثه لمعرفة اصله الحقيقي، ذكر ان القبيلتين كانتا عدوتين لعدة اجيال، واوضح ان الحسد كان سبباً في تلك العداوة:

«يقول الوجهاء ان الله، تبارك وتعالى، عندما خلق الارض والانسان، عرف قوة البدو، عرف اعتزازهم بانفسهم وقوة ذراعهم، ورأى وتأكد انه بدون لجام، فان ذلك الاعتزاز سوف يتزايد حتى ضد الخالق، بحيث، سامحني الله، انهم ربما رفعوا رؤوسهم ولم يعودوا يطيعون كلمته. لذلك قرر ان يزرع الحسد في نفوسهم حتى يضعفهم. احيانا ذلك يمزقنا... انه امر قديم جدا» (ص٨٨-٨٩).

هذا التفسير اذاً، يقوم على اساس ان الحسد جاء من الله ليحد من غرور البدو، وقد اخبر «عبد» المستمع اليهودي ان قبيلة حنيفة كانت مهددة بمذابح مخطط لها من قبل القبائل التي كانت تسكن الى الغرب منها، وهي عدو قديم لها، وهذا هو بالضبط ما فعلته قبيلة حنيفة بأعدائها.

في «تل المحبة» كتب «سميلانسكي» عن العداء بين مختلف الجماعات الاجتماعية:

«ابناء الجزيرة العربية يقاتلون ابناء الجزيرة العربية. ابناء الصحراء يقاتلون ابناء الحقل» (ص٨٢).

ان الكراهية بين العرب عميقة الجذور وفي معظم الحالات تتجاوز الحياة نفسها. عندما ثارت الشكوك حول وقوع فاطمة، في قصة «بنت الشيخ»، في حب واحد من ابناء حامولة معادية، كانت عقوبة الاثنين الموت. ويعود سبب الكراهية الى نزاع قديم حول الارض التي انتقلت الى ابناء القبيلتين المعنيتين:

http://www.al-maktabeh.com

«لم يكن بينهما تزاوج او تحاب، ولم تكن اي من الحاملتين لتضع قدماً في ارض الحاملة الاخرى» (ص١١٥).

اما العداء بين قبيلتي البـدو في قصـة «جندي» فيعود الى حادثة بسيطة جداً هددت سمعـة احـداهما. وقد اعتبر الراوي ذلك امرا محزناً، وقد رأى الفقر مشكلة البدوي الاساسية، كما«يظهر ذلك في ذرعانهم النحيفة النحيلة»، ورغم ذلك فانهم: يهدرون ما لديهم من طاقة في مثل تلك المسائل التافهة.

كان انتماء المرء لفئة اجتماعية معينة يحول دون زواجه من فئة اخرى. «لم يكن الفلاحون يزوجون بناتهم للبدو او المغاربة».

في قصة «رجب» كان رد فعل الشيخ البدوي على افتنان ابنه بفتاة غير بدوية، جلياً واضحاً:

«لن يتزوج احـد من ابناء الشيخ مصطفى من ابنة فلاح مصري قذر، ما طلعت الشمس من الشرق وغربت في الغرب»، (ص١٣٨).

وفي قصة «شيطانة» قوطع الشيخ رشيد، الذي احب فتاة درزية وتزوجها، من قبل ابناء قبيلته.

وهكذا فان كتابنا في وصفهم للعلاقات الداخلية بين الفئات الاجتماعية المختلفة ركزوا على العداوة والبغضاء بينها، وكان «بيرلا» و«سميلانسكي» اكثر اهتماما بالموضوع.

مجتمـــع أبـــوي

كما اشرنـا من قبل فان المجتمع العربي مجتمع ابوي، والاسلام يعطي الرجال امتيازات فوق النساء، والاب يحكم اسرته بالحق، الذي لا يستند بالضرورة الى العمر.

انسجـامـاً مع هذا القانون، فان والدة ابو الشوارب في قصة «شامي» «انتقام الآباء»، كانت تسرع دائمًا لتلبية اوامر ابنها، وكانت تقف احتراماً عندما كان يدخل الى الغرفة، وكانت تتكيف مع رغباته، وقد سجل «شامي» ذلك كعرف مقبول ومسلم به، ولم يعبر عن اية دهشة تجاهه. وهذا ما يمنح روايته مصداقية. كذلك فقد اشار الى ان النساء كن يغطين وجوههن. وقد قصّ «شامي» بتعاطف «استعباد» النساء وافتقارهن للحرية عموماً:

«يفـترض في الفتيات الصغيرات الصمت. خلال هذا اليوم سمحن لانفسهن

مكتبة المهتدين الإسلامية

بتجاهل عادة تغطية الوجوه، وبالكلام بصوت مرتفع. مرّ الاحتفال بسرعة. انتهى الاداء وعدن الى العبودية ثانية. ومرة ثانية عدن الى الايام الرتيبة المملة، دون شعاع من ضوء وبلا امل. مرة اخرى عدن الى السجن بين جدران المنزل، للعمل الشاق، وللمعاناة الصامتة امام ناظري «الحماوات» اللواتي يراقبن كل خطوة من خطواتهن، ويلاحقن كل حركة من حركاتهن، ويعدن لازواجهن بالتقارير الشريرة. والزوج يؤدب ويعاقب بشدة كل انحراف او خطأ، حتى لو كان رمشة حاجب بسيطة، او نظرة او وقفة طويلة غير ضرورية على نافذة او باب» (ص٣٨).

في «صراعات الانسان» ذكر «بيرلا» انه بينما كان الرجال يجلسون معاً يغنون، كانت النساء يجلسن وحدهن في زاوية من زوايا المنزل، كان وجود النساء يقتصر على الخيام الخاصة بهن، كان من نتائج هذا الفصل عدم مشاركة النساء في النشاطات العامة، اقتصر عملهن على اخراج الماء من الآبار، وطحن الحبوب ونسج الثياب، وقد شرح «عبد» لمستمعه مكانة المرأة العربية، وذكر له ان «فتيات الجزيرة العربية يتزوجن صغيرات، عندما يبلغن سن الخامسة عشرة او السادسة عشرة» وان «اخت او ام الزوج هي التي تبحث عن الزوجة».

في «صراعات الانسان» ترفض «شفيقة» العيش مع المزارع الثري الذي اشتراها لزوجته. ورغم ضربها استمرت في رفضها حتى طلقت. ولكن شقيق زوجها اقسم ألا يتزوجها رجل آخر. لم يعد بامكانها الذهاب وحدها الى السوق، او مقابلة حبيبهالانها لم تكن «الا مجرد امرأة».

اتخذ «سميلانسكي» موقفاً حاداً من هذه السلطة العليا للرجل على المرأة في المجتمع العربي، وقد اكد على القسوة التي تميز تلك الظاهرة، وسلط الضوء على الفجوة الكبيرة بين قوة الرجل ومركزه وبين ضعف المرأة، وقد قبلت معظم النساء بتلك المكانة الدنيا وكأنها امر من الله، كما قالت امرأة الشيخ في قصة «امرأة الشيخ ومهره»:

«الزوج دائمًا زوج، وهذا يعطيه الحق ليحكم بيته وليكون سيد زوجته. اي حاكم لم يستخدم قوته من وقت لآخر؟» (ص١٦٣).

على المرأة ان تتكيف مع رغبات زوجها، عندما يسيران في الخارج عليها ان تتبعه. عندما كان الرجال يحتفلون بنهاية موسم الحصاد، كان يسمح للنساء المشاركة في الاحتفالات في اليوم الثالث. وعندما يأتي الزوار تجلس النساء خلف الرجال، وقد اعرب

http://www.al-maktabeh.com

«سميلانسكي» عن اعتقاده بأن هذا يدل على سوء معاملة المرأة وعدم تقديرها. في قصة «محمد عذرا» يعجب محمد بفتاة ويتزوجها فيما بعد ولكن الفتاة كانت تحب شابا آخر وترفض ان تكون زوجة لمحمد. ولذلك كان محمد يضربها بقسوة ويربطها بحماره لمنعها من الهرب. وقد اثار ذلك استياء الراوي اليهودي:

«استلقت فتاة عربية صغيرة على العشب، وجهها الى اعلى، ويداها موثوقتان بحبل مربوط من طرفه الآخر بحمار محمد. كذلك كانت رجلاها مقيدتين» (ص٢٤-٢٥).

بعد عام من ذلك الوقت قابل الراوي الزوجين. بدا الزوج قوياً معافى، بينما بدت المرأة ضعيفة تحمل في يديها طفلاً.

عندما رفضت الزوجة الصغيرة في «تل المحبة» تلبية رغبات زوجها العجوز الجنسية، ضربت من قبل العبد:

«نزع ثوبها وضرب جسدها العاري بالسوط بقسوة. شعرت بوهن، ولكن الرجل العجوز المقيت استلقى مرة اخرى على جسدها بعنف» (ص١١٧).

أشار الراوي باستمرار الى الرجل العجوز بـ«البغيض» ووصف فعله الجنسي بالفظاظة، وهكذا تعاطف مع المرأة واعرب عن عدم رضاه عن الرجل.

ان الفظاظة الجسدية التي نجدها في هذه القصص، تأخذ بعداً آخر في الحكاية الفولكلورية «ابو شعبان»، حيث يضرب الزوج زوجته الحامل حتى الموت.

في قصة اخرى يجبر والد الزوجة الزوج على الطلاق بسبب قسوته، حتى في قصة «زوجة الشيخ ومهره» نجد ان الشيخ يضرب زوجته احياناً قليلة، رغم انه مخلص لها. يفهم من تلك القصص ايضا ان على المرأة ان تقبل بدور سلبي في الحب، وانه يحظر عليها المبادأة، «لم يكن يسمح لهن بالتعبير عن الحب حتى لو كن يشعرن به، ولكن عليهن تلبية رغبات الرجل».

عبر «سميلانسكي» عن استيائه من عادة بيع النساء كما لو كن «حميراً». وقد شعر بالصدمة لاصابتهن بالشيخوخة في سن مبكرة، بسبب حياتهن القاسية، كما في حالة البنت الجميلة «لطيفة»، التي تحولت في بضع سنين الى «عجوز مليئة بالتجاعيد».

اعمال المرأة روتينية، وهي تقوم بالمهام المتوقع منها القيام بها، كما في قصة «محمد»:

«لم يكن هناك افضل منها لجلب الماء او اعداد الخبز او طهي الطعام او غسل

مكتبة المهتدين الإسلامية

الثياب. عندما اعود من الحقل اجد وجبتي جاهزة. واجدها قد حلبت البقرة وملأت المذود وادخلت الحمار الى الاسطبل» (ص٢٦).

اخراج الماء من الآبار وتزويد البيوت بها، تعتبر من مهام الفتيات الصغار، بينما تقوم النسوة الكبار بالنسيج والترقيع، وقد رثى «سميلانسكي» لحال النساء اللواتي حصلن على مكافأة بسيطة مقابل سنتين من العمل. في قصة «مبروك» اقتسمت زوجتاه العمل: الكبيرة تخبز وتطبخ وتغسل وترعى البقرتين، والاصغر ترعى الاطفال الثمانية، وتجمع السماد للبيع. وخلال فصل الحصاد، تعمل المرأة ايضا في الحقول اضافة الى «اعداد الخبز لوجبات المساء والغد، اضافة الى طبخ العدس والبقول».

كما اشرنا من قبل فان النساء يعزلن حتى لا يتصلن بالرجال، كما حدث مع الفتاة الجميلة في قصة «تل المحبة»:

«جلست في البيت معزولة. لماذا؟ تريد ان تخرج. لقد اشتاقت للاشجار والعشب وشاطىء البحر. لماذا عزلت؟ لان امها تتبعها كلما خرجت» (ص١١٤).

يحظر على الرجال ان ينظروا في خيام النساء المتزوجات، كما نجد ذلك في قصة «شيطانة»، ويعتبر امراً سيئاً ان يقترب رجل من امرأة ويدخل معها في حديث في العمل. بينما كتب «سميلانسكي» عن النساء في المجتمع العربي بتعاطف وتفهم لما يراه قضية، فليس هناك ابداً ما يشير الى ان الراوي اليهودي في قصصه قد انجذب عاطفيا لهن، باستثناء لطيفة. لم يكن يرى النساء كنساء، بل ككائنات تعاني من معوقات اجتماعية مزمنة، ومن المفارقات ان تجد ان «رابينوفيتش» الذي عبر عن مقته للقذارة التي تتسم بها المرأة العربية، الا انه كان يميل اليهن جنسياً:

«عندما اريد امرأة عربية ابعثها الى البركة لتستحم، واعطيها بعض الصابون. وفي النهاية المرأة هي المرأة» (ص٦٠).

الاطفال ايضا يرضخون لسلطة الذكور في المجتمع العربي، ولا يقل استياء «سميلانسكي» من ذلك عن استيائه من تحكم الرجال بالنساء. سلطة الوالد في قصة «بسبب امرأة» مطلقة، رغم ان الابن متزوج وله اطفال، الا ان عليه ان يطيع امر والده ويترك الراقصة التي تغريه:

«احنى ابن الشيخ رأسه بخجل وسار خلف والده كما لو كان يسير الى الموت. .

http://www.al-maktabeh.com

كانت المرة الاولى في حياته التي يفكر فيها بالتمرد ضد ابيه. عاش طيلة حياته خاضعاً له، كعبد مخلص» (ص١٤٤).

ذكر الراوي ان فاطمة في قصة «زوجة الشيخ ومهره» قد اعتادت على رؤية والدها يضرب اطفاله بقسوة، واطفال «حمدان» في قصة «حاج ابراهيم» كانوا يهربون من غضبه:

«احيانا كانوا يهربون من غضبه الى اماكن بعيدة.

وكانوا يسعون هناك للعمل من اجل لقمةالعيش» (ص١٤٥).

وابنة الشيخ في قصة «انتقام الدم» تنحني امام والدها وتحييه بتقبيل يده، وفي قصة «الحصار» تدفع كرامة الأب واحساسه بأن شرفه الابوي قد انتهك، تدفعه لملاحقة ابنته لاعادتها حية او ميتة، وفي قصة «عبدالقادر» لا يستطيع البطل ان يخرج من الخيمة لان اباه امر بذلك.

وفي قصة «شيطانة» لا يستطيع ابراهيم مغادرة بيت ابيه الى بحيرة الحولة قبل ان يبلغ سن الثامنة عشرة، رغم انه يتوسل لابيه ليسمح له منذ سن السادسة عشرة، وكان يدرك ان جهوده لن تفلح في تغيير عقل ابيه. وفي قصة «تل المحبة» يجدالأب ابنته خارج الخيمة، فيمسك بها من شعرها ويجرها الى البيت كما يجر قطعة من الخشب على الحصى والرمل، وابناء محمد ابو رحمة في قصة «برغش» لم يجرؤوا على التعبير عن استيائهم من سلوك ابيهم حتى لا يقول الناس ان ابناءه يتدخلون في شؤونه.

هكذا ينتقد «سميلانسكي» النظام الابوي العربي، ويتعاطف مع النساء العربيات، ويبدو ذلك التعاطف في الطريقة التي كتب بها عنهن، ولكنها كانت صورة احادية الجانب، لم يحاول ابدا ان يتغلغل الى مشاعر الرجال، واسباب تصرفاتهم وقسوتهم.

مكتبة المهتدين الإسلامية

دين العرب وعاداتهم

من الغريب ألا نجد في سيرة «سميلانسكي» الذاتية شيئاً عن دين العرب، رغم ان سيرته تمثل مسحاً لتلك المرحلة، كما لا نجد شيئاً عن ذلك في اعماله الروائية. وهذا الامر له دلالته لدى الكتاب الآخرين، فيما عدا «شامي».

يشكل الحج الديني الى قبر النبي موسى ارضية الاحداث في قصة «شامي» «انتقام الآباء». وقد اشار «شامي» الى وجود صناديق جماعية لتمويل جميع الحجاج، فقراء كانوا او اغنياء. من خلال هذا الحج اظهر «شامي» جانبا مهمًا من الدين في المجتمع العربي: الانفصال بين التقليديين والعلمانيين، ذلك الانفصال الذي تبلور مع نهاية القرن الماضي، وكان ذلك امراً ملحوظاً في المدن اكثر من التجمعات الريفية الاقل تقدماً، وهي التجمعات التي اهتم بها «سميلانسكي». الريف هو موئل المسلمين المحافظين، بينما تميل المدينة بصناعاتها الناشئة وثقافتها المعاصرة وتعليمها الحديث الى الاتجاهات الليبرالية والعلمانية:

«فقط اولئك المسلمون الذين لا يؤدون العبادات، عليهم لعنة الله، اولئك الشباب ابناء الملحدين الذين يعيشون قريبا من المستوطنات اليهودية ويعملون فيها، بدأوا ينتهكون تقاليد الآباء ويتجاهلون قداسة الحج... سكان المدن ايضا ليسوا متدينين كثيرا. كثير من الافندية وملاك الارض يشربون ويأكلون سرا في رمضان، وفي اعتقادهم ان قطار التوبة قد فاتهم، وان مصيرهم العقاب، ان كل اهوال جهنم لن تطهر ذنوبهم...» (ص١٠).

كان الاصلاح الديني الاخير الذي يحظر عمليات الثأر قد سبب توتراً في الحج لانه لم يرق للزعماء الثلاثة، ومع ذلك كان عليهم ان يهذبوا ميولهم الفردية ويتكيفوا معها.

كانت الصلوات اليومية لا تزال تعتبر جزءاً اساسياً من روتين الحياة اليومية، ولكن الكبار فقط هم الذين كانوا يطيعون الاوامر القرآنية:

«نزعوا غطاء رؤوسهم بصمت، وفرشوها على الارض، ووقفوا عليها عراة الاقدام، وشبكوا ايديهم، واصطفوا الى جانب بعض منتصبين بلا حركة كأنهم صخور تحتها جروف، وفجأة يسجدون بخشوع وكأنهم سيقان الذرة عندما يثنيها الريح.

http://www.al-maktabeh.com

وحالما كانوا ينهون سجودهم وركوعهم ينهضون ثانية» (٦٧)،

كان الدراويش يشكلون جزءاً مميزاً من الحج. كان مظهرهم ملحوظاً لانهم كانوا يلبسون فقط حزاماً نحيفاً او كيساً. ولان شعرهم اشعث، كان الوجد الصوفي يأسرهم، مصحوباً بالموسيقى التي ترافق مسيرتهم:

«عندما وصلوا الفناء الواسع المفتوح، تفرقوا جماعات، ورتبوا انفسهم في صفوف، وفجأة دبّت الروح فيهم وبدأوا يتلـون الصلاة. انبعثت منهم اصوات مزعجة وصرخات مخيفـة، وكـأنهم اصيبـوا بمس. داروا في حلقـات كالنحل الهارب، من جرنه بسبب الدخان. حركوا اجسامهم الى الامام والخلف، وتجمعوا بشكل دائري كالكرة وهووا الى الارض ثم قفـزوا ثانية في الهواء. زحفوا على ايديهم ووقفوا على رؤوسهم وتجمعوا في جماعات وقاموا بأعمال سحرية. وضع كثير منهم السفافيد المحترقة على وجوههم، وادخل كثـير منهم المسـامير الطويلة في فتحات انوفهم، وطحن آخرون الزجاج باسنانهم، ومشى آخرون بالاقدام العارية على شفرات السيوف المثبتة في الارض لهذه الغاية. . . كانوا في حالة وجد صوفي بالفعل. فقدت وجوههم لونهـا، وتسمرت عيونهم الى اعلى وانتفخت، وامتزج شعرهم الطويل بلحاهم، وتدفق الدم من افواههم، وتمتموا بتعاويذ سحرية. داروا كعجلة حول محورها، مرددين كلمات قائدهم بصوت كالشخير» (ص٣١-٣٢).

بسبب ذلك كان من الصعب على الناس العاديين ان يميزوا بين الدراويش وبين المجـانين، ولذلك ايضا كان الناس في الشوارع يحرصون على الابتعاد عن طريق ابو الشـوارب وهـو متوجه الى المسجد، كانوا يخشون ان يكون ولياً من اولياء الله. كانت طقوس الدراويش في الرقص تغرقهم في نشوة تنسيهم انفسهم وتشعرهم بالاتحاد مع الله.

«شامي» هو الكاتب الوحيد الذي حاول وصف المسجد من الداخل. وقد وصف مسجداً في القاهرة وآخر في الخليل:

«داخـل المسـجد قاعـة مربعـة مرتفعة فسيحة، مزينة بالاقواس واعمدة الرخام، وقد فرشت ارضه بالسجاد من دمشق وبغداد، وزين بقماش من الهند وفارس وتركيا، وتدلت من قبابه، مصابيح الفضة والكريستال، والذهب» (ص١٢٠).

مكتبة المهتدين الإسلامية

في «صراعات الانسان» وصف «بيرلا» الاحتفال الديني بوصول سجادة من دمشق الى مكة، والطقوس الدينية التي اقيمت في مكة، ولكن باستثناء هذه الاوصاف للمعالم الخارجية، فان العقيدة الاسلامية للشخصيات في القصة اعتبرت امراً مسلمًا به، ولم يتحدث عنها اكثر من ذلك.

هكذا نجد ان «شامي» قد كتب عن ثلاثة ظواهر في الاسلام: الفجوة بين المتدينين والعلمانيين، والصلاة اليومية، والدراويش وطقوسهم الدينية.

صوّر «سميلانسكي» هذه الظواهر الثلاثة ايضا، في قصة «عطا الله»،صور الفجوة بين المتدينين والمحافظين، فالبطل يفطر في رمضان ويغني اغاني الحب، ويدخن ويشرب علناً، ويعتبر عطا الله نموذجاً لموقف الشباب من القضايا الدينية.

في قصة «الضيوف» جلس رجلان وناقشا القضايا الجارية مثل انسلاخ الشباب من الدين. وقد تكلما عن ذلك بازدراء. وفي قصة «حاج ابراهيم» سخر الشباب من البطل لتدينه، وقد ربطوا الدين بكبار السن فقط:

«كان ابراهيم رجلا ورعاً. كان يحافظ على ايام الجمع كأيام مقدسة، ويؤدي الصلاة وبقية الشعائر الدينية، تماماً كما يفعل الكبار» (ص١٣٩).

وقد ورد ذكر «الصلاة» في عدة قصص مثل «رجب» و«الحصار» و«المنفي» و«انتقام الدم»، كما ورد ذكر عيد الاضحى في «حطيط»:

«هذا هو العيد المقدس لدى جميع المسلمين... يستريح الجميع من اعمالهم ومتاعبهم... ان عيد الله والانسان»، (ص١٢٣).

هذا ومن الملاحظ ان «سميلانسكي» قد اهتم بالعادات التي تجري في المناسبات الدينية، اكثر من اهتمامه بمدلولاتها الدينية.

في قصة «موت قبلة» و«زوجة الشيخ ومهره» تحدث «سميلانسكي» عن «الدراويش»، خاصة عندما دعي احدهم لمعالجة شيخ مريض. هكذا نجد ان «سميلانسكي» لم يكن مهتمًا بعقيدة العرب كثيرا. ربما يعود ذلك الى اهتمامه اساسا بالاصلاح الاجتماعي، الذي كان يعتبره القضية الملحة في ذلك الوقت.

اما «رابينو فيتش» فقد سجل فقط موقف العرب الخائف من «البهالبل» وكيفية تعاملهم معهم:

«يعتبر «البهالبل» الاكثر احتقارا في مستوطناتنا، نبلاء بين الهمج، وكأن فيهم

http://www.al-maktabeh.com

مسّاً من الله، كما يعتبر هؤلاء الهمج ان من واجب كل امرىء ان يعتني بهم ويدعوهم الى خيمته» (ص١٩٨).

يشير «يروشاليمي» بايجاز الى التوتر المتعلق بالدين، في المجتمع العربي.

في قصة «جميل»، نجد الشاب الذي تحمل القصة اسمه، ويعيش في القدس، متأثرا بالافكار العلمانية التي بدأ تأثيرها يتزايد، فنجده لا يحترم مبادىء الاسلام عندما يكون مع يهود او مسيحيين.

باختصار، نجد ان كتابنا قد اهملوا موضوع الاصلاح الديني، رغم انه كان قضية ملحة في ذلك الوقت. ولم يختلف تصويرهم للحياة الدينية في المجتمع العربي، باختلاف ثقافتهم ومنشئهم، (سواء كانوا شرقيين او غربيين)، كما لم يختلف بسبب ذلك مقدار الاهتمام الذي اولوه للقضايا الدينية في قصصهم.وهكذا نجد ان الدين، هو الموضوع الوحيد، الذي لم يختلف الكتاب في معالجته.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ان الالتزام بالتقاليد في المجتمع العربي شديد حتى يكاد يأخذ مظهرا دينيا. الثأر من التقاليد، التي نجدها في قصص «شامي» و«سميلانسكي»·وعادة ما يبدأ الثأر بداعي الانتقام للشرف، او بسبب اعتداء على احد افراد العشيرة، وعادة ما يستمر الثأر اجيالاً بسبب سلسلةأعمال القتل والقتل المضاد، مع انه ينتهي احيانا بالدية.

خوفاً من الثأر هرب ابو الشوارب الى القاهرة، كان يعتقد انه بعد عام او عامين، سوف تقبل عائلة ابو فارس الذي قتله (وهو من الخليل) الدية، ثم يعود الى بلده، ولكن معروف عن الخلايلة تمسكهم بالثأر، لذلك رغم انهم قبلوا كرم عائلة ابو الشوارب، الا انهم رفضوا مسامحته:

«كانت استراتيجية الخلايلة بسيطة وفعالة: تحطيم القاتل وعائلته، والحيلولة دون ان يعيشوا بهدوء، وحرمانهم من مزاولة اعمالهم اليومية. اما بالنسبة للثأر، فذلك يأتي فيما بعد. العربي الحقيقي الذي يستحق هذا الاسم يثأر حتى بعد خمسين عاماً، ويقول **«الوقت لا زال مبكراً»**. **(ص٩٠-٩١)**.

تلك خطة ماكرة لاستنزاف عائلة القاتل، فيما تكون «العداوة والبغضاء اعمق من جهنم»، لذلك هاجت الجموع عندما وصل نمر الى الخليل، ودفعهم شعورهم القوي بالتضامن الى الاخذ بثأر زعيمهم: ابو فارس.

تعالج قصة «سميلانسكي» انتقام الدم، الآثار المخيفة لعادة الثأر، بشكل خاص، خلال حفل زواج ابن الحاج ابراهيم من ابنة الشيخ عبدالله. يقتل العريس على يد عم العروس. وقد استدعى ذلك رد فعل فورياً وعنيفاً من قبل مئات من بيت «الايوبي» الذين تداعوا حالا الى «الثأر»، فثارت العداوة، ولولا تدخل شيخ الخليل لسفكت الدماء، ولم يكن منع ذلك سهلاً.

بعد مفاوضات بين الكبار، اتفق على نفي القاتل الى شرق نهر الاردن مدة عشر سنوات، وعلى تزويج العروس الى والد العريس المتوفى كفدية(!!) وتضمنت الاتفاقية ميثاق سلام وذبائح للصلح، وقد ظهر القاتل بعد عشر سنوات، وسامحه الشيخ الايوبي وزوج ابنة الحاج ابراهيم الصغيرة. ولكن عادة «الدم مقابل الدم» سائدة تتجاوز كل

http://www.al-maktabeh.com

الاعتبارات الانسانية، وحتى ميثاق السلام الذي وقع. لذلك استثير الشيخ الكبير للانتقام حسب التقاليد المتبعة، وكان هذا المشهد من التعطش للدم:

«هاجم جمهور من الشباب من بيت «صالحي» الرجل الكبير ومزقوه ارباً... هاج جمهور من الشباب من بيت الايوبي لما شاهدوه وهاجموا ابناء بيت «صالحي»، وغطي مسرح الاحداث بأكوام من الجثث، وسال الدم كالماء.. ومزق جو تلك الليلة عواء الحيوانات المفترسة، وملأ النواح الوديان والجبال. قاتلوا جماعات ووحدانا.. بالسلاح وبالايدي والمسامير... واشترك الاطفال والكبار والنساء... جن الناس من رائحة الدم، وامتلأت الارض بالرعب» (ص١٦٣).

يمكن ان نشاهد انتقاد الكاتب لهذه العادة، بسهولة من خلال وصفه. في قصة «انتقام حمدي»، يسكن البطل بالرغبة في الانتقام ويسيطر عليه مبدأ «الدم مقابل الدم»، بسبب مقتل والده، وكان العبد العجوز يحثه على ذلك:

«الثأر! اذهب وانتقم لدم ابيك الشيخ محمد، اذهب، ودع سيفك يضرب رأس الاعداء، اذهب واقتل وجهاء الاعداء، استرد دين ابيك، اجعل جثثهم طعاماً للكلاب المتوحشة ورؤوسهم طعاماً للطيور المفترسة، اغمس اطراف ثوبك بالدم، واشهرها على رأس رمحك، ومرّ بها عبر خيامهم وقل: ها قد ثأرت لدم ابي» (ص١٣٥).

ولكن انتقام حمدي يأخذ شكل احلال اللعنة على فتيات القبيلة المعادية. وفي قصة «الوثاق» يضطر البدو للجلاء عن ديارهم خوفاً من الانتقام.

الضيافـــــــة:

الضيافة هي الاخرى من التقاليد التي يلتزم العرب بها بشدة. وقد تعرض لها «شامي» و«سميلانسكي» ايضا. عندما اصبح ابو الشوارب زعيمًا للحج فتح بيته لزعماء القبائل والقرى المجاورة «البيت بيتكم والحلال حلالكم».

وقد اوضح «سميلانسكي» انه طبقاً لذلك، تضاء النيران في الصحراء وعلى رؤوس الجبال، حتى يهتدي السائرون في الصحراء الى مضارب القبيلة، كما انها تعتبر بمثابة دعوة لهم للنزول، ويكرم المضيفون النازلين عندهم، ويوفرون المأوى والحماية للآبقين ويخففون من معاناتهم.

مكتبة المهتدين الإسلامية

في قصة «الضيوف» تعرض «سميلانسكي» للكرم الذي حظي به الزوار اليهود، وقد تعرض لذلك بتفصيل اراد منه اثبات انه من خلال معرفة اليهود للعادات العربية، فانهم اي اليهود، سيحظون بثقة العرب، وبالتالي سيتوصل الشعبان الى تفاهم مشترك. ولكن كون الراوي يهوديا يراقب من الخارج، كما اشرنا من قبل وكونه يراقب المشهد كوحدة واحدة، كون فجوة بينه وبين المجتمع العربي، وهي الفجوة التي اراد «سميلانسكي» ردمها. ان الراوي بذلك يكرس المسافة الفاصلة بين العرب واليهود، ويؤكد صعوبة التقارب بينهما. وتتضمن القصة مونولوجاً طويلاً للراوي في ثنايا الحوارات القليلة، يمكن ان يكون دليلا لكرم العرب وعاداتهم.

من العادات التي ذكرها «سميلانسكي» خلع الحذاء قبل الجلوس على السجاد للاكل، وطبخ اللحم في مرجل من النحاس على نار في الهواء الطلق، وتقديم الطعام للضيوف حسب المركز الاجتماعي، وطريقة الاكل:

«بدأ الاكل. امتدت الايدي الى قطع من الذبيحة، وفتتوا بأصابعهم تلك القطع، ولفوها الواحدة على الاخرى، وغمسوها بالزيت، ثم وضعوها في افواههم، ولحسوا الدهن عن اصابعهم... ثم اخذوا حفنة من الارز وضغطوها براحة اليد وحولوها الى كرات اصغر، وقذفوا الكرات في افواههم...»(ص٣٠٩).

دهش الزوار اليهود لهذا المشهد، وشعروا بالحرج لانهم لا يعرفون كيف يأكلون الطعام العربي، وقد افسد ذلك الجو بين الضيوف والمضيفين.

في قصة «جندي» سخط البطل عندما وصل الى خيام البدو ووجد مضيفيه مستائين لولادة بنت اخرى للشيخ، مما جعلهم يهملون بالقيام بواجب ضيافته «هل يمكن لهذا ان يحدث بين البدو، سكان الخيام»... (ص٦٠). وعندما طعن في ضيافتهم، بعد ذلك، هبوا للدفاع عن انفسهم.

في قصة «زوجة الشيخ ومهره» نشاهد الاهتياج الذي حصل وراء «الكواليس» في خيام النساء بسبب توقع وصول الضيوف، كما نشاهد ان الرجال هم الذين يقدمون الطعام، بنفس الطريقة التي وردت في قصة «الضيوف»:

«انغمست ايديهم في الطعام والقهوة والتمر والارز المقلي بالزيت، والتين المجفف، واللحم المقمر».

http://www.al-maktabeh.com

في قصة «منتصف الليل» نجد الحاج داود سعيدا الا من عدم قيامه بواجبات الضيافة، ولذلك فقد سرّ كثيراً عندما شاهد اناساً بمظهر الاوروبيين واستطاع اقناعهم بدخول منزله وتناول طعامه. في «بكاء صالحية» نجد اكراماً مماثلاً للضيف، ولكننا نجد تفاصيل اكثر مما هو ضروري لوصف عادات التحية والاحترام:

«مد يده الى ضيفه، ولامست رؤوسهم بعضها، ولامس خد محمد الايمن خد ضيفه الايسر، وابرز كل منهما شفتيه كما لو كان يريد التقبيل، واطلق قبلة في الهواء، وقد فعل الضيف ذلك مع كل كبير» (ص١٣).

في قصة «انتقام حمدي» لم يسمح الرجل العجوز للشاب بالذهاب، حتى لا يتهم باخلاله بواجب الضيافة:

«لتقطع ذراعي اليمنى ان سمحت لك بالذهاب قبل ان تترجل. هل تريد ان تسبب لي الخجل؟ هل تريد ان يقال: وصل ضيف عتبة بيتي ولم يدخل»؟ (ص٣٥).

وفي «انتقام الدم» اعلن الحاج ابراهيم ان اي امرىء يؤذي الضيف سيعاقب.

الدفن والزواج:

من التقاليد التي لفت «سميلانسكي» الانتباه لها، التقاليد المتعلقة بالدفن، الذي تشارك فيه القرية بأكملها، كما ذكر ذلك في قصة «بسبب امرأة»:

«دفنوا جثة الشيخ سعيد في قبر والده، بمنتهى الاحترام، شاركت القرية بأكملها بالبكاء مدة سبعة ايام، واعد اهل الميت طعاماً كثيرا لاهل القرية والقرى المجاورة» (ص١٤٨).

بنفس الطريقة بكت القرية موت الشيخ في قصة «زوجة الشيخ ومهره»، مدة سبعة ايام ولكن عندما ماتت الام فاطمة، بكوها ثلاثة ايام فقط.

تحدث «سميلانسكي» ايضا عن مراسم الزواج: «جاء كبار الشيوخ من قريب وبعيد لتقديم التهاني للعروس ووالدها... جلست العروس على جمل مزين بالارجوان والفضة والذهب، اما العريس فقد امتطى جوادا ساحرا، استمر طعام العرس ثلاثة ايام بلياليها، وذبح عشرون خروفاً وخمسة عجول، وسكبت عشر جرار من زيت الزيتون» (ص١٧٢).

مكتبة المهتدين الإسلامية

كانت القرى ترسل ابناءها ايضا للرقص ثلاثة ايام في حفلات الخطوبة. لقد كان العرب يحافظون على عاداتهم وتقاليدهم، حتى اصبح لبعضها طابع مقدس. من تلك التقاليد مثلا تقديم هدية في حالة ولادة المهر الاول، لصاحب الحصان الذي عاشر الفرس، «هذه العادة كانت مقدسة لدى الكبار، وما كان لرجل عربي محترم ان ينتهكها».

القضـــــــــاء:

بالنسبة للاجراءات القضائية، فقد تعرض لها «سميلانسكي» في قصة «فلاحين» حيث وصف المستشارين الثلاثة الذين جلسوا في القاعة العامة في القرية. وهؤلاء كانوا يقبضون من الشيخ، لذلك كانت ارادته هي القانون. والحقيقة انه حيثما كان «سميلانسكي» يهاجم نفوذ الشيوخ في قصصه، كان يتطرق، ولو بشكل ضمني، الى النظام القضائي الذي يعتبر جزءاً من ذلك النفوذ. في يافا فقط كان القاضي يطبق عدالة غير متحيزة.

باختصار، فانه رغم ان العقيدة الاسلامية تحتل مكانة مهمة في المجتمع العربي في فلسطين، فانها لا تحتل مكانة مماثلة في الاعمال الادبية التي اخترناها، ولا نستطيع ان نفترض ان السبب واحد لدى جميع الكتاب، اذ ان خلفياتهم مختلفة. ولكن يبدو ان السبب هو اهتمامهم بالظروف الاجتماعية للعرب التي تشكل العقيدة جزءاً منها، ولكنها تبقى مجرد جزء. هناك ما يوازي هذا الوضع لدى اليهود في اليشوف، الا انه كان هناك ضغوط اجتماعية عديدة شغلت الكتاب اكثر. ويمكن ان نفترض ان الكتاب اليهود قد عالجوا الاوضاع العربية في ضوء خبراتهم الخاصة.

ولان هذا المجتمع غريب على كتابنا، فانهم من ناحية يستطيعون رؤيته بسهولة. وبغض النظر عن الاسلوب الذي استخدموه، وبغض النظر عن تصويرهم العرب فرادى او جماعات، فانهم كانوا على الدوام يحتفظون بمسافة تفصلهم عن المجتمع العربي، وكأنهم يتعاملون مع شعب مختلف، وبالاحرى ادنى منهم، ولذلك فانهم لم يتمكنوا من توليد التعاطف والتفهم اللذين كانوا يسعون اليهما.

في الفصل التالي، سوف نتفحص الطريقة التي عالجوا بواسطتها العلاقات العربية اليهودية، وهي ذروة الموضوع.

http://www.al-maktabeh.com

العلاقات بين العرب واليهود

بدأ الصراع بين العرب واليهود يكشف عن نفسه عام ١٨٨٢ مع قدوم مجموعة من اعضاء «حبات زيون» (أحباء صهيون) الى فلسطين، بهدفهم المعلن: احداث انبعاث قومي يهودي في «ارض اسرائيل»، وقد استمر الصراع بعد ذلك مع ازدياد اعداد القادمين اليهود، واتخذ بعداً جديدا في الثلاثينات من هذا القرن في العهد النازي.

عكس كتابنا تلك العداوة بين العرب واليهود على مستويين: المستوى الشخصي، والمواجهات الجماعية.

على المستوى الشخصي وجد الصراع تعبيرا له في مجال العلاقة بين الرجل والمرأة، وهذا المجال بالذات لا يمكن ان يكون خاصاً بالعرب واليهود، بل انه يصور في طار انساني، من خلال صعوبة ارتباط رجل وامرأة ينتميان الى دينين وثقافتين.

في قصة «بيرلا» «صراعات الانسان» احب البطل اليهودي فتاة مسلمة صغيرة ومتزوجة. وبطبيعة الحال قوبل حبها بمعارضة ادت الى الكارثة: انتحرت شفيقة يأسا، وقلع اهل زوجها عيني عشيقها، رحمو، انتقاماً منه، وقد وجد رحمو عزاء، ليس في عقيدته، بل في فلسفة شيخ تونسي، لم ينزعج من حقيقة اختلاف عقيدة الزوجين. ان الصراعات الانسانية والكونية، محور القصة، تبقى خارج اي اطار سياسي او اجتماعي معين. وهكذا فان القصة لا تعكس ابدا الصراع العربي اليهودي، بل التوتر الكامن في اي مواجهة بين الكائنات البشرية التي تنتمي لعدة اديان وثقافات.

عندما وقع «رحمو» في حب شفيقة وبخ نفسه لوقوعه في حب فتاة مسلمة:

«ما الذي جرى لك حتى تسير في طرق الضلال؟ توقف عن ذلك! هل فقدت جميع مشاعرك» (ص٢٤).

في البداية كانت مشاعر شفيقة شبيهة بمشاعره، وقد ادركت ألا مستقبل لحبهما لانه يهودي. ولكن لان حبها له قد تعمق ولم يعد بامكانها مقاومته استعدت لاعتناق اليهودية، ولم يكن هناك احتمال بأن يعتنق «رحمو» الاسلام. كما قال والدها «لم يحدث ان اعتنق يهودي الاسلام ولن يحدث ذلك مستقبلا». ولكن شقيق شفيقة سمع بفتاتين يهوديتين اعتنقتا الاسلام في دمشق، ولذلك اعتبر الزواج المختلط ممكن الحدوث

مكتبة المهتدين الإسلامية

والنجـاح. ولـذلك فقد اظهر الشقيق موقفا متحررا، ولم يشارك في مهاجمة رحمو، بل بالعكس فقد بارك علاقاتهما:

«ليباركهما الله سواء اعتنق هو الاسلام، او اعتنقت هي اليهودية... الله واحد وهو خلق المسلمين واليهود» (ص٧٩).

اراد «رحمو» ايضا الاستمرار في علاقاتهما، خاصة عندما ابدت شفيقة استعدادها لاعتنـاق اليهـودية. هذه الافكار التحررية لشخصيات القصة تبسط المشكلة تبسيطاً شديدا، وتقلل من الصعوبات التي تنشأ من مثل هذا الزواج، ولذلك فهي غير مقنعة. وقد بدا الشيخ التونسي، الذي يضع طهارة المشاعر الانسانية فوق كل شيء، والذي ساعد العشيقين، رغم علمه بأن شفيقة تريد التحول الى اليهودية، بدا مختلفاً عن والد «رحمو» الذي مرض ثم مات لدى سماعه بحب ابنه لفتاة مسلمة.

هكـذا، رغم ما فيهـا من عمـوميات، فان القصـة تظهر الشخصيات ضحايا للاتجاهات التقليدية المتشددة تجاه الزواج المختلط بين العرب واليهود، رغم انها تتضمن شخصيتين غير متشددتين وهما: شقيق شفيقة، والشيخ التونسي.

لا يفـرد «سميلانسكي» حيزاً كبيرا لمسألة التزاوج بين العرب واليهود. في قصة «لطيفة» يحل المسألة على اساس ان الفتاة اذا تابعت حبها واعتنقت اليهودية فسوف يقتلها والدها. وقد تعرض للمسألة في قصة اخرى، الا انه لم يتعرض لها في المجلدين: ابناء الجزيرة العربية.

في قصة «عماسي الشومير» تحدث «رابينو فيتش» عن بدوي احب امرأة يهودية. العربي غريب في مظهره «عملاق صحراوي» رجل قوي، بينما زوجها ضعيف يتصبب عرقاً في الحقل. ولكن البدوي، كغيره من البدو، يضطر للرحيل الى شرق الاردن، ولم يكن هناك مستقبل لتلك العلاقة، بينما لا يرى «عماسي» الذي يراقب من بعيد، أيّ خطورة في ذلك.

في «ميركادو سائق الحمار» وصف «يروشاليمي» حب جميل افندي لـ«اليجرينا» ابنة الحاخام. ولكن ذلك الحب بلا مستقبل ايضا، لقد اعجب بشكلها الخارجي وكان يحاول تقبيلهـا بالقـوة. وقـد تم تصـويره تصـويرا بشعـا، وصورت رغبته بشكل يثير الاشمئزاز في نفس القارىء. ولكن ما يستنتج من هذه القصة ان الجماعة اليهودية لم تكن تتسامح بشأن حب احد افرادها والعرب.

http://www.al-maktabeh.com

وقد سجل «يروشاليمي» مشهداً آخر للعلاقة بين افراد من الجيل القديم، في شخص والدها ووالد جميل. في زمن الحرب، دعا جميل افندي الرابي لاستئجار جزء من بيته ليحصل على دخل منه، وقد ظهر الاثنان متحضرين وعلى علاقة ودية مع بعضهما.

ان الكتب التي اخترناها تظهر عدم استعداد المسلمين واليهود لقبول تلك العلاقات الشخصية، بغض النظر عن بعض الاتجاهات المتحررة، تلك العلاقة يجب ان تنتهي الى الفشل.

اما على مستوى العلاقات بين العرب واليهود، كجماعتين فهي محكومة بالصراع بين عقيدتين، وقد نشأ ذلك الصراع من الانبعاث المتزامن للقوميتين العربيةواليهودية. في قصة «انتقام الآباء» يحكي الراوي القصة من وجهة نظر عربية ويشير بايجاز الى ملاك الارض اليهود الذين يشغلون العمال العرب في الاعمال الصعبة ويدفعون اجورا كريمة لهم. ولكن ملاك الاراضي العرب، الذين كانوا يشغلون اولئك العمال، يحتقرونهم ويتهمونهم بأنهم «باعوا انفسهم للشيطان». من ناحية اخرى فقد اتهمهم المتدينون بانتهاك المناسبات الدينية، وهكذا نجد ان الطبقة العليا في المجتمع والفئات الدينية، يجدون مبرراً لانتقاد الفقراء، الذين لم يفعلوا شيئا سوى محاولة تحسين اوضاعهم والحصول على اجر افضل.

ليس هناك اية اشارة اخرى الى اليهود في هذا الكتاب، تشير الى نقص في الاتصال بينهم وبين العرب. من جهة اخرى، فان ذلك ليس غريباً لان هذه الرواية تغطي فترة الثمانينات من القرن الماضي، التي سبقت التدفق الكبير للمهاجرين اليهود والمشاكل الحادة التي تسببت عن ذلك.

كان «سميلانسكي» على وعي كبير بالصراع، وقد دونه بصراحة في قصصه. ولكنه يتمسك اساسا بالنظرية الصهيونية ويدعو اليها، تلك النظرية التي ترى ان على العرب ان يشعروا بالامتنان لمجيء اليهود الى فلسطين لانهم ادخلواالتقدم الى الشرق الاوسط، ومن الاهمية بمكان الاشارة الى انه كان متحيزاً تماما لوجهة النظر الصهيونية، لذلك فهو عندما يعير اهتماما لمخاوف العرب من نوايا المهاجرين اليهود، فانه يفعل ذلك من زاوية مناسبة لغرضه.

حسب رأي «سميلانسكي» فان اكبر نفع جلبه المستوطنون هو نفع اقتصادي: لقد استخدموا عمالا عرباً في الاعمال التي لا تحتاج الى مهارة، كما ورد ذلك في قصص عطا الله، والرجل العجوز رشيد، والعنف، كما عملت النساء العربيات في الاعمال

مكتبة المهتدين الإسلامية

المنزلية، كما في قصة «خضرا» و«محمد ابو حدبة». خلاصة القول ان «سميلانسكي» يرى ان اليهود يجب ان يكونوا موضع ترحيب لانهم جلبوا معهم التكنولوجيا المتقدمة.

في قصة «عبدالقادر» تحدث «سميلانسكي» عن مواجهة حادة بين المستوطنين اليهود في «رحفوت» والبدو في قبيلة «ساتريا» واستند في قصته الى حادثة حقيقية سجلها في سيرته الذاتية. وبينما كان الراوي في معظم قصصه من مجموعة «ابناء الجزيرة العربية»، يهوديا، فانه في هذه القصة ليس من شخصيات القصة نفسها. وقد مكنه ذلك من سرد القصة من وجهة نظر عربية، لذلك كانت المعالجة غير متحيزة واكثر توازناً.

باختصار، تدور القصة حول شراء اليهود للارض من ملاك الاراضي العرب، مما ادى الى طرد العرب، ابناء قبيلة «ساتريا» من ارضهم. لم يكن رد فعل العرب واحدا. قاوم بعض ابناء القبيلة دون هوادة ضد من اسموهم، الغزاة الاوروبيين، رافضين ان يروا اي خير من وراء قدومهم، ولكن فئة اخرى رأت انه بالامكان الافادة ماليا واقتصاديا منهم، وابدوا استعداداً لقبول هذا الوضع. وقد انتصرت هذه الفئة في النهاية، بل ان زعيم المجموعة الثانية اخذ يتردد في موقفه وبدأ يحترم اليهود.

مع ذلك فان حجة «سميلانسكي» ضعيفة هنا، اذ ان الفئة المتشددة قد اقتنعت، بمبرر واه، وهو ان الله يحب ان يكون مع اليهود، ولكن الكاتب لم يقدم اي دليل لدعم مثل هذه النتيجة، او ليوضح لماذا على العرب ان يقبلوا بذلك المنطق. لم تصور الشخصيات كمحافظة في معتقداتها، كما لم يخلق اطارا دينيا لها.

فوق ذلك فان «سميلانسكي» حاول فرض افكاره الخاصة على الشخصيات العربية، ولم يقدم اي مبرر لامكانية قبول العرب لآرائه. كذلك فقد صور العرب بسطاء سذجاً بل وطفوليين عندما يواجهون المشترين اليهود. كان «سميلانسكي» يخاطب القراء اليهود، ولا شك انهم ادركوا ان تصويره كان مختلفا. لقد بدا كأنه يعتقد ان الحقائق تتكلم عن نفسها دون اي شكوك تثار حولها.

في «الوثاق» كان الامل الوحيد للسكان الفقراء لتحسين وضعهم الاقتصادي، ان يشتري اليهود ارضهم ليخلصوهم من الديون لملاكها. وقد جاءت المعارضة لذلك من الموظفين الاتراك، الذين تذمروا ايضا من قدوم الاوروبيين.

في قصة «حسن عبدالهادي ابو عيد» كان رد الفعل على قدوم اليهود، اللامبالاة، اذ كان الفلاحون مشغولين بمتاعبهم في العمل بالارض، ولذلك لم يهتموا لقدوم

http://www.al-maktabeh.com

المستوطنين. كانت هناك اشياء اخرى تشغلهم، ولكن الراوي يسرع ليضيف ان اليهود كانوا يدفعون بسخاء للفلاحين اذا اشتروا منهم اي شيء، وعندما اثبت النظام الزراعي اليهودي المتقدم نجاحه، فتحت عيون الفلاحين على تخلفهم، وقد عانى البطل من ذلك التخلف، وعلى سرير الموت تحدث عن التغير الذي احدثه اليهود في العالم العربي «لقد قلب اليهود هذا العالم رأساً على عقب».

في «ترحال رمضان» اكد الكاتب على سذاجة العرب من اجل تسليط الضوء على تقدم اليهود. مرة اخرى استخدام «سميلانكي» الراوي اليهودي للدعاية لافكاره الصهيونية. وقد باءت محاولته للظهور بمظهر المنصف غير المتحيز، بالفشل، لانه لم يدخل شخصية اخرى لعرض الوجه الآخر من الصورة. وفوق ذلك فان «سميلانسكي» قدم الوجه الاقتصادي الاجتماعي للعلاقة بين العرب واليهود، وتجاهل الجوانب السياسية الآيدولوجية للمشكلة، كما انه لم يضمن اعماله الادبية محاولاته الخاصة لحل المشكلة السياسية.

في روايته «عباسي الشومير» لم يردد «رابينو فيتش» مآثر اليهود في فلسطين، بل بالعكس فقد انتقد انحطاطهم الذي جلبوه معهم من الاقطار التي قدموا منها، كما تحدث عن الظلم الذي مارسه اليهود الاوروبيين على الشرقيين، وعدم الانسجام بين المزارعين اليهود وحركة «الشومير»، كذلك فقد انتقد انتقادا شديدا العلاقة بين العرب واليهود.

لان «رابينو فيتش» كان معنيا بالمشاكل الداخلية في «اليشوف» فقد اهتم بالعرب من زاوية كونهم عمالا. وهكذا فقد اهملت في هذه الرواية القضايا السياسية، وسلطت الاضواء على القضايا الاجتماعية الاقتصادية، ولكن اسلوبه كان مختلفا عن «سميلانسكي». كان اسلوب الاخير انسانيا ليبراليا يحاول اقناع العرب بالمزايا التي تعود عليهم من قدوم اليهود، بينما سعى الاول الى اقناع المزارعين اليهود لاستخدام العمال اليهود، ولم يهتم ابداً بعواقب ذلك على العمال العرب.

وقد قلل من شأن العرب مقارنة باليهود:

«الحارس العربي ينام. وقد حاولنا عدة مرات ان نسرق بندقيته منه دون ان يلاحظنا، كما سرقنا حميره وجعلناها ترعى في بيارات الحمضيات. وهل تتوقع ان تراه يوماً دون ان يحمل شيئاً على ظهره، او شيئاً في كيسه، مما يحتاجه المالك؟».

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولكن الكاتب لا يدع فرصة لاي عربي ليعرب عن وجهة نظره بخصوص العلاقة بين العرب واليهود. ولذلك لا تظهر وجهة النظر العربية الا لماحاً.

يعرب «عماسي» بطل الرواية، عن احساسه بوجود فجوة واسعة بين اليهود ومن يستخدمهم من العرب، ولكن الحل لديه ان يستخدم المزارعون اليهود عمالا يهودا، ولكنه يجد معارضة لدى صديقه الحميم، «يتسحاق ينوفيتش»، (ويعكس موقفاهما الاختلاف في الرأي، حول هذه المسألة، الذي كان سائدا في أوساط اليشوف في ذلك الوقت):

«لا تستطيع الارض تحملنا معاً، اما عالم عبري جديد او قديم، عالم الوثنيين. سوف تتقيؤك الارض مثلما تقيأت من قبل الكنعانيين... رجال جدد، عمال يهود انقياء،سوف يحلون محلكم. سوف يولد العالم اليهودي الجديد عبر العمل، وليس عن طريق المرتزقة...» (ص٢٦).

رفض «عماسي» الاقتناع بوجهة نظر «ينوفيتش» حتى عندما كان هو نفسه شاهداً على مشهد بغيض جدا، مشهد مزارع يهودي يضرب صبيا عربيا صغيرا بقسوة. كان «عماسي»يعتقد ان ما يحتاجه اليهودهوان يحرروا انفسهم من الافكار الرومانسيةالخاصة بالتعايش مع العرب، وان عليهم ان يحترموا الحقائق الصارمة في الحياة:

«لا رومانسية! انها محظورة! اذا اراد الانسان ان يعيش عليه ان يجعل قلبه قاسياً قليلا، والا فانه لا يستطيع ان يعيش» (ص١٩٣).

«رابينو فيتش» هجاء، والمزارع اليهودي في نظره له اهميته الخاصة به. انه قاس حتى درجة الاشمئزاز. انه لا يشاهد فقط العقوبة البدنية توقع على الصبي العربي، بل يشارك ايضا فيها:

«أمسك الصبي اليهودي به من حزامه وجرّه حتى انكشفت اعضاؤه الداخلية، وسقط من الاعياء وكأن الحياة قد فارقته. اقترب المزارع، وعندما رآه مستلقياً صفعه على وجهه، ولم يرفع الصبي يده... وانفجر جدول من الدماء من بين شفتيه» (ص١٩٠).

لم يحجم «رابينوفيتش» عن وصف هذا المشهد المزري بالتفصيل: لقد اعتبر ذلك الوسيلة الوحيدة للبقاء، الاعتبارات المعنوية لا تعنيه لانه لا يرى سبيلاً آخر لضمان أمن اليشوف.

http://www.al-maktabeh.com

في نفس الوقت فان البطل يريد من اليهود ان يبددوا الصورة التي اكتسبوها في المنفى، وان يصبحوا كالعرب مظهرا وسلوكا: يريد من اليهود ان يتوحدوا مع الارض، كما العرب، لقد عاش هو نفسه بين العرب فترة من الوقت، وتشبه بهم، وتحدث لغتهم بطلاقة، وتكيف مع اذواقهم في الطعام والشراب، وبذلك فهو استثناء بالنسبة لبقية العمال اليهود الذين استمروا متمسكين بطريقة الحياة التي عاشوها في المنفى.

ولكن احداً في اليشوف لم يوافق على رغبة «عماسي» بالتشبه بالعرب وتبني طريقتهم في الحياة، وكان احد المهاجرين اليهود الذين قدموا حديثا من روسيا، قد اشار باشمئزاز الى اليهود العرب، ورأى خطورة في شرقيتهم:

«اليهود السفارديون تماماً كالعرب.. في تل ابيب، يحل كل سبت كثير من السفارديم والعرب ضيوفا في بيوت اليهود السفارديم، ويملأون الشرفات بقشور المكسرات. انهم يطحنون ويطحنون، بشكل يثير الغثيان. والشيء الرئيسي ان احدا لا يستطيع التمييز بين الطربوش الاسرائيلي والاسماعيلي» (ص٨٦).

على اية حال يدافع الراوي عن اليهود السفارديم، الذين هم انفسهم، لا يوافقون على الذوبان في العرب. وهو يحاول زرع الخوف في نفوسهم، اذ يتحدث عن يهودي امتزج بالعرب وكانت نهايته القتل.

قبل ان يلتحق «عماسي» بالجيش التركي ظهرت مأساته في الحياة بشكل مناجاة مع الراوي مما اضفى عليها طابعاً واقعيا، خلاصة المأساة انه نتيجة لاحدى الهجمات العربية على مستوطنة يهودية جديدة، لم يستطع والد «عماسي» ان يحضر قابلة لامه. ونتيجة لذلك ماتت اثناء الولادة. وهو يتحدث عن الهجمات على المستوطنات اليهودية بطريقة سرد الحقائق دون ان يحاول عرض اسباب تلك الهجمات، او التعمق في الجو السياسي الذي كان سائدا.

اهدى «يروشاليمي» روايته «ميركادو، سائق الحمار» الى الجماعة السفاردية في الخليل، التي كانت ضحية مذبحة عام ١٩٢٩، هنا ايضا لا نجد شرحاً لمقدمات تلك المذبحة، عرض الكاتب العلاقة بين الجماعتين على انها ودية، وانحى باللائمة على العرب الذين خانوا تلك العلاقة، ولكن مع انه عرض طبيعة تلك العلاقة الا انه لم يحللها.

مكتبة المهتدين الإسلامية

من الشواهد على تلك العلاقة الودية ثقة العرب بالحاخام «شبتاي»، والد «اليجرينا». وقد عرف عن الحاخام نزاهته في الاحكام، وكان يستدعي دائما من العرب واليهود لتسوية المنازعات بينهما. ولم يكن يعطي اعتبارا لدين من يتقاضون عنده، ومن تلك الشواهد ايضا ان امرأة عربية كانت تغسل النساء العواقر في احد الينابيع بغض النظر عن كونهن عربيات او يهوديات، كما كان هناك فلاح عربي يؤجر ارضه لـ«الكوليل»، ويعيش مع عائلته ضمن جدران الجيتو، ومن هذا الفلاح استأجر «ميركادو» حماره. كان «ميركادو» يكسب عيشه من شراء الدواجن والبيض من نساء الفلاحين، ويبيعها في القدس. كانت هذه الاتصالات اليومية مع العرب محظورة على الفتيات اليهوديات اللواتي كن يمنعن من ارتياد الاسواق. على اية حال كان الناس في الجيتو على ألفة مع الحياة خارج اسواره، وكانت «اليجرينا» تعرف كل اغاني الخليل، وكانت تتوق لمعرفة اغاني القدس. يعتبر الغناء جزءاً اساسياً في الحياة اليهودية، كما هو كذلك بالنسبة للشرقيين عامة. الحقيقة ان اليهود قد اكتسبوا عادات العرب وتزيوا بثيابهم، وسلكوا سلوكهم، وتذوقوا طعامهم.

هكذا بدا العرب واليهود في الخليل يعيشون جنباً الى جنب بدون عداوة بينهم، وعندما دخلت تركيا الحرب انتظر كلاهما وصول الجنرال «النبي» والجيوش البريطانية لتحررهم من النير التركي، ولكن قبل ذلك الوصول مباشرة بدأت تظهر دلائل التوتر بين العرب واليهود.

بدأ اليهود يخافون من الشباب العرب:

«عندما أيقن اهل الخليل ان الانجليز قادمون بلا شك وفي اية لحظة الى مدينتهم... حدث هيجان، وازدادت مخاوف اليهود في «الجيتو» من قيام الشباب المسلمين بقتلهم وابادتهم وسرقة ممتلكاتهم، في لحظة مناسبة تفصل بين انهيار امبراطورية وحلول اخرى محلها. اغلق اليهود بيوتهم على انفسهم، ولم يظهر يهودي واحد في الشوارع لعدة ايام» (ص٦٨).

يواجه القارىء بهذه الفقرة دون ان يكون قد قرأ قبلها ما يفيد وجود مثل هذا السلوك بين المسلمين. من هم اولئك الشباب، ولماذا يريدون ابادة اليهود؟ كل ذلك لا جواب له في القصة. ان المشهد يصور كلية من وجهة نظر يهودية.

http://www.al-maktabeh.com

عالجت رواية «زارحي» «قرية سلوان» بصراحة العداوة بين العرب واليهود في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى، والى ان وصلت ذروتها في مذبحة عام **١٩٢٩**، التي تشكل عنصرا رئيسيا في الرواية، ولكنه يخطو بالمسألة خطوة اخرى ويوضح اسباب العداء، والتي تتلخص في حسد العرب لليهود. لم يجد سببا آخر او مبررا آخر للعداوة الحادة العمياء تجاه اليهود، لم يشر بشكل خاص الى الحركة القومية العربية، ولكنه قال بشكل ضمني، ان ذلك كان من اسباب عدم الاستقرار في فلسطين، وهذا ما جعل العرب حذرين وجعلهم يعارضون الهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي في فلسطين.

تتبع «زارحي» العلاقة بين العرب واليهود اليمنيين، حتى قبل وصولهم الى فلسطين، ووصف معاناة اليهود من الاضطهاد العربي منذ وصول الاسلام الى اليمن. ظل اليهود منذ تلك الفترة مضطهدين روحيا واقتصاديا، وعندما جاءوا اخيرا الى فلسطين لاحت لهم فرصة لتغيير احوالهم. قرروا بناء قرية خاصة بهم خارج اسوار مدينة القدس، واصبحوا عمالا يعتمدون على انفسهم، ولكن العرب لم يستطيعوا ان يكونوا كذلك، فحاولوا عرقلة جهود اليمنيين بكل السبل الممكنة: هاجموهم وكسروا ادواتهم ومنعوهم من سحب الماء من الينبوع. تكررت حوادث الاعتداء على الافراد مثل ذلك الهجوم الذي وقع على «اوفادياهو»:

«قفز اسماعيلي من بين الاشجار ولوح بهراوة مرصعة بالمسامير، وبكلمات بذيئة طلب منه اعطاءه الاناء» (ص**٩٨**).

ولكن شجاعة اليهود وقوتهم الجسمية ادهشت العرب، فتعلموا اخيرا ان يقبلوا بالجوار اليهودي، وتمكنوا من اقامة علاقات صداقة معهم مدة خمسين عاما، حتى حلت بينهم «الروح الشريرة» وذهبت تلك الجهود عبثاً، تلك الروح كامنة في النفوس، وكان المعتدلون يضبطونها ولكنها كانت تثور باستمرار:

«في البداية نظروا اليهم من بعد بعيون ملؤها الشك، لم يقتربوا منهم ولم يصلوا الى ارضهم، وكأنهم كانوا ينتظرون ليروا ماذا يخططون ان يفعلوا. ولكن بعد فترة، عندما رأوا انهم استقروا، بل وبدأوا العمل، باجتهاد ونشاط، يصلحون اسلحتهم وادواتهم المعدنية، انقلبت دهشتهم الى غضب، وكأن اليهود جاءوا لادعاء ملكية الارض التابعة للعرب. ولكن الحقيقة ان ذلك المكان كان ملكية عامة، وبعيدا عن بيوت القرية، حقيقة ان البسطاء منهم لم يتضايقوا، وعندما رأوا العمال قريبا منهم شجعوهم على

مكتبة المهتدين الإسلامية

العمل. . . ولكن الشريرين منهم لم يتحملوا رؤيتهم يعملون بسلام، فأخذوا يستفزونهم ويبحثون عن مبرر، وتشاوروا فيما بينهم كيف يؤذونهم، ويعرقلون حركتهم» (ص٩٨).

هكذا نعرف كيف ان العناصر الشريرة بين العرب طورت عداوتهم لليهود وغذتها بالحسد. وقد اوحى الكاتب ان اصحاب النوايا السيئة كانوا يسممون عقول البسطاء ويؤثرون على موقفهم من اليهود. لقد استثارهم مجرد رؤية اليهود «فاشتعلت بين جوانبهم نار مجرمة»، منذ ذلك الوقت لم يعد هناك ضابط للكراهية التي وصلت ذروتها في اضطرابات القدس:

«عندما بزغ فجر ليل الارهاب وبدأت الشمس تزحف في السماء، ظهر الحجم الحقيقي للرعب. انفجرت الاضطرابات في المدينة، داخل بواباتها، ومات الجرحى في كل مكان. دفنت الجثث خلال الليل. هبطت مجموعة من مثيري الفتن من الجبال، ومرت عبر وادي «كيدرون» وذهبت الى «بيت يوسيف»، حيث تجابهوا هناك مع رجال البوليس الذين ردوهم بالبنادق. تحول مثيرو القلاقل بعد ذلك الى ضاحية «تالبيوت» التي تقع على حدود الصحراء، وفي نفس الليلة هاجموا البيوت واقتحموها. وكان اصحاب البيوت متجمعين معاً في منزل كبير في طرف الضاحية. وقد دافعوا عنه ببسالة ببنادقهم. عاث المجرمون فسادا في بيوت القرية ودمروا وحطموا كل ما اثار اعجابهم. اقتحموا منزل العالم «يوسيف كلاوسنر» ومزقوا اغلفة كتبه، وحطموا جواريره، ومزقوا مخطوطاته التي تناثرت بعد ذلك بفعل الرياح في كل اتجاه. لم يبق الا عدد قليل من الاوراق الممزقة من كتاب عن تاريخ المعبد الثاني، الذي كان قد كتبه قبل سنوات، كذلك فقد دمروا بيت الكاتب «س. ي. عجنون» وبعثروا مكتبته القيمة وكتبه الخاصة بتاريخ القدس القديمة عبر القرون، التي جمعها طيلة حياته، دمروا بقية المنازل وحرقوها، وسرقوا كل ما استحق السرقة، ودمروا كل ما لم يريدوا اخذه، وتراجعوا الى الصحراء»(ص٢٧٣).

وقد دفع الخوف والعزلة يهود سلوان الى هجر منازلهم والاحتماء داخل اسوار القدس. لم يحاول سوى شيخ عربي صديق من قرية مجاورة التدخل لمساعدة اليهود متجاهلا التهديدات، ولكن جهوده لم تستكمل بسبب وفاته، والشرطة العرب الذين ارسلوا لاعادة فرض القانون والنظام كانوا خائفين من شعبهم، فلم يفعلوا شيئاً. «فرشت

http://www.al-maktabeh.com

الارض بالجريمة، وحاول اليهود العودة الى منازلهم، الا ان عداوة جيرانهم اضطرتهم للرحيل ثانية».

بعد فترة من الوقت سعى «زكريا» لاستعادة صحائف التوراة التي تذكر انه تركها في قريته. وقد وجد مشهداً مخيفاً:

«بدأ يمشي ببطء من غرفة الى اخرى متطلعا الى الانقاض بقلب مثقل، بقايا المنازل، سقوفها المحطمة، مقابض الابواب المقتلعة، والقناديل المكسرة، وبقايا الكتب. كان التدمير كاملا، كل شيء محطم. حتى الاشياء التي لم تكن لها قيمة تحطمت، ولم يبق حتى مسمار في حائط. انتزعت ارضيات الفناء، وظهرت على الارض اسفل منها آثار اقدامهم. عرف المباني العامة، التي كانت تمتلىء بالضجيج.اصبحت اكواخاً بلا عتبات او مداخل، وبدت الممرات مفتوحة كعيني ميت، المطابخ قذرة، وتحطمت الافران لان اللصوص لم يستطيعوا نزع اواني الخبز من مكانها. هنا وهناك يمكن للمرء ان يرى علامات حياة كانت تجري في هذه المنازل: مكاناً لضوء دائم، جرة ماء مكسورة، فجوة لكتب. اما الرفوف فقد انتزعت من الجدار، بقايا مقابض أبواب، ولكن لا ابواب... بدأ يتمشى باحثاً عن ضالته، ولكنه لم يجد شيئاً. اوشك ان ييأس من العثور على شيء، واستعد للعودة، عندما وقعت عيناه على بعض صفحات ممزقة، انحنى عليها وجمعها ونظر اليها. رأى في الصفحة الممزقة، كتاب التوراة، الذي كتبه قبل سنوات، وكرس البيت من اجله. جمع كل القطع الممزقة بقلب ممزق، وخرق ثوبه وقبل الصفحات الممزقة وعانقها، وبكى وناح من اجلها.»(ص٣٢٢).

ولكن زكريا قتل على الطريق وهو يحمل صفحات التوراة الممزقة. دمر العرب بوحشية كل شيء، وبنوا ببوتهم من بقايا بيوت اليهود ولم يتركوا شيئاً سوى الخراب. صمتت اصوات المعتدلين وسيطر المتطرفون.

خلاصة القول انه على المستوى الشخصي من العلاقة بين العرب واليهود، عكس كتابنا معارضة الفئتين للتزاوج فيما بينهما، واكدوا على ان الفشل هو نهاية حتمية لمثل ذلك الزواج، ولم تكن هناك سوى اشارات قليلة لصداقات بين العرب واليهود.

على المستوى الجماعي رأى كتابنا ان العرب استفادوا اقتصاديا وتقنيا من قدوم اليهود، ولكن عرضوا ذلك من وجهة نظر يهودية، ولم يعرضوا وجهة النظر العربية، وبهذا الصدد نجد موقف «سمبلانسكي» الرومانسي الانساني لحل المشكلة، وموقف «رابينو فيتش» الواقعي.

مكتبة المهتدين الإسلامية

الخلاصـــــة

لم يصف الكتاب الذين اخترنا اعمالهم الادبية هنا، باستثناء «شامي»، العربي كفرد، سواء في مظهره الجسمي او تكوينه العقلي، وبغض النظر عن اختلاف الاساليب الادبية التي استخدموها، او موطنهم الاصلي، فان تصويرهم كان نمطياً.

بالنسبة للبنية الاجتماعية للمجتمع العربي هناك فرق واضح بين تصوير البدو والفلاحين. الموقف من البدو غامض. مع ان فقرهم وصف بعبارات انسانية ومتعاطفة، الا انه نظر اليهم نظرة دونية، رغم انه كان هناك اعجاب بل وحسد لطريقتهم في الحياة، خاصة تنقلهم الحر، والتصاقهم بالارض، وقد رأى فيهم الكتاب امتدادا لاسلافهم في عصور التوراة.

اما الموقف من الفلاحين فقد كان فيه ازدراء لتخلفهم، وانتقاد له، كما كان هناك ازدراء وانتقاد للظلم الاجتماعي في مجتمعهم والعداوة بين الفئات الاجتماعية بشكل عام.

من المثير للدهشة ان الدين الاسلامي، الذي يحتل مكانة هامة في المجتمع العربي في فلسطين، لم يحتل مكانة مماثلة في اعمال كتابنا . من الواضح ان السبب في ذلك انهم كانوا معنيين بالظروف الاجتماعية للعرب.

هناك عاملان اثرا في تصوير الكتاب للعرب: العامل الاول الالتزام الايديولوجي للكتاب، والثاني الموطن الاصلي الذي قدموا منه. وقد اثر ذلك على تصويرهم للعرب على المستوى الفردي والاجتماعي والسياسي.

على المستوى الشخصي والاجتماعي كان هناك فرق بين الكتاب الذين ولدوا في فلسطين، والذين هاجروا اليها من اوروبا. تقبل الكتاب المولودون في فلسطين، دون تساؤل، العقلية العربية والبنية الاجتماعية العربية، لانهم على ألفة معهما منذ الولادة، اما الكتاب الاوروبيون فقد رأوا ذلك غريبا.

اما الالتزام الايديولوجي فلا يبدو انه اثر على تصوير العرب كأفراد، فان الكتاب المولودين في اوروبا كانوا متأثرين بذلك، في نظرهم للمجتمع العربي. لقد كتبوا كنخبة، من وجهة نظرهم العقائدية الخاصة. كانوا جميعا ملتزمين بالصهيونية، التي كانت حركة راديكالية، كانوا يسعون لتثوير اليهودية التقليدية، وفي نفس الوقت، لممارسة مبادئهم

http://www.al-maktabeh.com

الاشتراكية في فلسطين. كانوا يعتقدون ان العرب سوف يستفيدون من وجودهم، وسوف يتحررون من تخلفهم الاجتماعي وتفككهم. لقد رأوا ان تحسن الوضع الاقتصادي للعرب، والذي من شأنه ان يطلق شرارة الاصلاح العام، لا يتم من خلال المجتمع العربي، وانما يتم بفرضه من قبل النخبة اليهودية الحديثة التي تشكل النخبة المسيطرة.

على المستوى السياسي، اظهر كتابنا فروقاً فيما بينهم. الكتاب المولودون في فلسطين لم يشيروا كثيرا الى الموضوع، بينما اهتم الكتاب الاوروبيون بذلك. لقد حاولوا الايحاء بأن خوفهم وعدم شعورهم بالامن بخصوص علاقاتهم السياسية مع جيرانهم العرب، تسمح لهم بالتمسك بعقيدتهم الصهيونية ضد ما رأوه هجوماً عليها.

لقد وجدوا ان مثاليتهم لا يمكن ان تتحول الى سلوك عملي. وبذلك فهم كالعرب، بغض النظر عن موقفهم القوي او المتفوق. ولذلك لم يقدموا الحقائق السياسية، كما هي، مع ان البعد السياسي للعلاقات بين الشعبين هو الذي ادى الى المواجهة المباشرة.

مكتبة المهتدين الإسلامية

http://www.al-maktabeh.com

الفهرس

مقدمة المترجم ٥
مقدمة الكاتبة ٧
الفصل الأول:
* التاريخ كرواية ادبية ١١
الجماعة اليهودية ١٦
العـــرب ٣٦
الفصل الثاني:
* الكتاب واعمالهم الادبية ٥٣
١- يتسحاق شامي ٥٦
٢- يهودا بيرلا ٦٢
٣- موشي ستافي (ستافسكي) ٦٩
٤- موشي سميلانسكي ٧٣
٥- ناحوم ياروشاليمي ٧٨
٦- ياكوف رابينوفيتش ٨٢
٧- اسرائيل زارحي ٨٨
الفصل الثالث:
* العربي كفرد ٩٣
الملامح الجسمانية ٩٥
التكوين النفسي والعقلي ١٠٥
الخرافـات ١١٤
العرب والفن ١١٦
العرب والحيوانات ١١٨
الفصل الرابع:
* البنية الاجتماعية للمجتمع العربي ١٢١
البـــدو ١٢٣

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفلاحـــون ١٢٩
سكان المدن ١٣٣
* العلاقات الداخلية بين الفئات الاجتماعية ١٣٦
مجتمع ابوي ١٣٧
* دين العرب وعاداتهم ١٤٢
العادات ١٤٦
الضيافـــة ١٤٧
الدفن والزواج ١٤٩
الفقهـــاء ١٥٠
* العلاقات بين العرب واليهود ١٥١
الخلاصـــــة ١٦٢
الفهـــرس ١٦٥

http://www.al-maktabeh.com

◑◐ الكتب الصادرة عن دار الجليل ◑◐

١ ـ عمود النار، الاسطورة التي قامت عليها اسرائيل
ترجمة: غازي السعدي

٢ ـ الاستيطان، التطبيق العملي للصهيونية
المهندس الزراعي عبدالرحمن ابو عرفه
طبعة جديدة (مزيدة ومنقحة)

٣ ـ حرب الجليل، الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية، تموز ١٩٨١
بدر عبدالحق وغازي السعدي

٤ ـ الكتاب السنوي ١٩٨١
توثيق لأبرز المعلومات والأحداث في فلسطين المحتلة
هيئة الرصد والتحرير:
غازي السعدي، نواف الزرو، غسان كمال

٥ ـ الكتاب السنوي ١٩٨٢
توثيق لأبرز المعلومات والأحداث في فلسطين المحتلة
هيئة الرصد والتحرير
غازي السعدي، نواف الزرو، غسان كمال

٦ ـ الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (١)
شهادات ميدانية لضباط وجنود العدو
بدر عبدالحق وغازي السعدي

٧ ـ الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٢)
مايكل جانسن
ترجمة محمود برهوم

٨ ـ الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٣)
وثيقة جرم وادانة
غازي السعدي

٩ ـ الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٤)
اهداف ... لم تتحقّق
غازي السعدي

١٠ـ الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٥)
معتقل انصار ـ وصراع الارادات
سليم الجنيدي

١١ـ الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٦)
الحرب المضللة
زئيف شيف وايهود يعاري
ترجمة: غازي السعدي

١٢ـ الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٧)
فظائع الحرب اللبنانية
ترجمة: زكي درويش

مكتبة المهتدين الإسلامية

١٣ـ الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٨)
لبنان هزيمة المنتصرين وانتصار القضية
اللجنة ضد الحرب في لبنان

١٤ـ الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٩)
الأسرى اليهود وصفقات المبادلة
إعداد: غازي السعدي

١٥ـ رسائل من قلب الحصار
من ابو عمار الى الجميع

١٦ـ يوميات من سجون الاحتلال
زنزانة رقم (٧)
فاضل يونس

١٧ـ المثلث الايراني: العلاقات السرية الاسرائيلية الامريكية الايرانية في عهد الشاه
الصحفي شموئيل سيجف
ترجمة: غازي السعدي

١٨ـ هل يوجد حل للقضية الفلسطينية؟
مواقف اسرائيلية
الوف هرابين
ترجمة: غازي السعدي

١٩ـ عملية الدبويا كما يرويها منفذوها
المحامي درويش ناصر

٢٠ـ مراكز القوى في اسرائيل ١٩٦٣ ـ ١٩٨٣
ونموذج صنع القرار السياسي في اسرائيل
دكتور نظام بركات

٢١ـ مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧ـ١٩٨٥
منير الهور وطارق الموسى

٢٢ـ غوش ايمونيم
الوجه الحقيقي للصهيونية
داني روبنشتاين
ترجمة: غازي السعدي

٢٣ـ عش العصفور
قصة للاطفال
منير الهور

٢٤ـ رؤى مستقبلية عربية في الثمانينات
تأليف: د. احمد صدقي الدجاني

٢٥ـ ايام دامية في المسجد الاقصى المبارك
الدكتور احمد العلمي

٢٦ـ حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير المصير
يوسف قراعين

٢٧ـ الاحد الاسود
تصوّر امريكي صهيوني للعمل الفدائي الفلسطيني
ترجمة: حسن اسماعيل مشعل

٢٨ـ خارطة فلسطين
وهي خارطة تمثّل سهول وهضاب وجبال ووديان ومدن وقرى فلسطين (ملوّنة)

٢٩ـ بروتوكولات حكماء صهيون
المجلد الاول ـ عجاج نويهض

http://www.al-maktabeh.com

٣٠ـ بروتوكولات حكماء صهيون
المجلد الثاني ـ عجاج نويهض

٣١ـ الاردن وفلسطين
وجهة نظر عربية
د. سعيد التل

٣٢ـ الاقتصاد الاسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام
للدكتور فؤاد حمدي بسيسو

٣٣ـ الاستعمار وفلسطين
رفيق شاكر النتشه

٣٤ـ الحرب من اجل السلام
عيزر وايزمن ـ ترجمة غازي السعدي

٣٥ـ الموساد، جهاز المخابرات الاسرائيلي السري
دنيس اينبرغ، ايلي لاندو، اوري دان

٣٦ـ التوازن العسكري في الشرق الاوسط
اعداد مركز الدراسات الاستراتيجية بجامعة تل ابيب
ترجمة نبيه الجزائري

٣٧ـ بطاقات فنية (لوحات فنية تعبر عن الانتماء الفلسطيني)
اعداد د. كامل قعبر

٣٨ـ بطاقات فنية (مجموعة)
بطاقات على شكل دفتر الشيكات
اعداد د. كامل قعبر

٣٩ـ الكتاب الاسود
عن يوم الارض ٣٠ اذار ١٩٧٦

٤٠ـ في سربية الصحراء
سميح القاسم

٤١ـ الخيار النووي الاسرائيلي
شاي فيلدمان
ترجمة: غازي السعدي

٤٢ـ انتهاك حقوق الانسان في الاراضي المحتلة
شهادات مشفوعة بالقسم
ترجمة: سليم راغب ابو غوش

٤٣ـ نقاط فوق الحروف
مناقشة لردود الفعل تجاه مبادرتي الامير فهد وبريجنيف
خالد الحسن

٤٤ـ قراءة سياسية في مبادرة ريغان
خالد الحسن

٤٥ـ فلسطينيات
خالد الحسن

٤٦ـ الاتفاق الاردني ـ الفلسطيني للتحرك المشترك
خالد الحسن

٤٧ـ من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (١)
جرائم الارغون وليحي ١٩٣٧ ـ ١٩٤٨
يعقوب الياب ـ ترجمة غازي السعدي

٤٨ـ من ملفات الارهاب الصهيوني في اسرائيل (٢)
مجازر وممارسات ١٩٣٦ ـ ١٩٨٣
اعداد غازي السعدي

مكتبة المهتدين الإسلامية

٤٩ـ من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (٣)
دور الهاغاناه في انشاء اسرائيل
د. حمدان بدر

٥٠ـ ملصق يوم الارض
بريشة سليمان منصور

٥١ـ ملصق جمل المحامل
بريشة سليمان منصور

٥٢ـ ملصق قبة الصخرة
صورة تبرز معالمنا التاريخية والدينية في القدس

٥٣ـ فلسطين تأريخا ونضالا
نجيب الأحمد

٥٤ـ فلسطينيات في سجن النساء الاسرائيلي
طيور نفي ترتسا
المحامي وليد الفاهوم

٥٥ـ المؤسسة العسكرية الصهيونية في دائرة الضوء
اسرائيل عسكر وسلاح (١)
اعداد: بشير البرغوثي

٥٦ـ اتفاقيات السلم المصرية ـ الاسرائيلية في نظر القانون الدولي
محمد الرفاعي

٥٧ـ الجذور
فتحي فوراني

٥٨ـ فلسطين ... الارض والوطن (١)
قرية الدوايمة
موسى عبدالسلام هديب

٥٩ـ خط الدفاع في الضفة الغربية وجهة نظر اسرائيلية
اريه شليف
ترجمة: غازي السعدي

٦٠ـ تشريقة بني مازن
د. عبداللطيف عقل

٦١ـ القمع والتنكيل في سجن الفارعة
اعداد: لجنة الحقوقيين الدولية
القانون من اجل الانسان

٦٢ـ صورة العربي في الادب اليهودي (١)
الدكتورة ريزا دومب
ترجمة: عارف عطاري

٦٣ـ الشخصية العربية (٢)
في الادب العبري الحديث
١٩٤٨ ـ ١٩٨٥
غانم مزعل

٦٤ـ فلسطين ارض وتاريخ
د. محمد النحال

٦٥ـ القدس ماضيها، حاضرها، مستقبلها
فايز فهد جابر

٦٦ـ القضية الفلسطينية في القانون الدولي والوضع الراهن
د. جابر الراوي

http://www.al-maktabeh.com

٦٧ـ شوكة في عيونكم
منير كهانا
ترجمة: غازي السعدي

٦٨ـ حرب الاستنزاف
د. محمد حمزة

٦٩ـ القرار
الفان واثنا عشر يوما في سجون الاحتلال
رشاد أحمد الصغيّر

٧٠ـ المطامع الاسرائيلية في مياه فلسطين والدول العربية المجاورة
بشير شريف البرغوثي

٧١ـ أزمة الاستخبارات الاسرائيلية
تسفي لنير
قسم الدراسات

٧٢ـ اسرائيل عام ٢٠٠٠
(تصورات اسرائيلية)

٧٣ـ دعوى نزع الملكية
الاستيطان اليهودي والعرب
في الفترة ١٩٤٨ / ١٩٧٨
ترجمة بشير البرغوثي

٧٤ـ ندوة مشاكل التعليم الجامعي في الوطن المحتل والروح الجامعية

٧٥ـ سميح القاسم
ـ قصائد ـ
شخص غير مرغوب فيه

٧٦ـ القضية الفلسطينية
اكرم زعيتر

٧٧ـ فلسطين الام وابنها البار
عبدالقادر الحسيني
عيسى خليل محسن

٧٨ـ عرب التركمان
ابناء مرج بن عامر
علياء الخطيب

٧٩ـ المرأة الفلسطينية
والاحتلال الاسرائيلي
ميسون العطاونة الوحيدي

٨٠ـ نادية برادلي
الفدائية المغربية الشقراء
ترجمة : غسان كمال

٨١ـ الاعلام الاسرائيلي
غازي السعدي
ومنير الهور

٨٢ـ تقرير الارض المحتلة
المقدم الى الدورة (١٨)
للمجلس الوطني الفلسطيني
اعداد: قسم الدراسات والابحاث

٨٣ـ الوجه الحقيقي للموساد
د. وجيه الحاج سالم
وانور خلف

٨٤ـ العمق الاستراتيجي
في الحروب الحديثة
ترجمة : بدر عقيلي

مكتبة المهتدين الإسلامية

٨٥ـ شخصيات صهيونية (١)
مذكرات الجنرال رفائيل ايتان
ترجمة: غازي السعدي

٨٦ـ شخصيات صهيونية (٢)
شلوموهيلل
وتهجير يهود العراق
ترجمة: غازي السعدي

٨٧ـ شخصيات صهيونية (٣)
ثيودور هيرتسل
عراب الحركة الصهيونية
اعداد قسم الدراسات

٨٨ـ شخصيات صهيونية (٤)
شـــارون
بلدوزر الارهاب الصهيوني
ترجمة: غازي السعدي

٨٩ـ شخصيات صهيونية (٥)
اباء الحركة الصهيونية
ترجمة: عبدالكريم النقيب

٩٠ـ شخصيات صهيونية (٦)
موشيه ديان ...
أنا وكامب ديفيد
ترجمة: غازي السعدي

٩١ـ شخصيات صهيونية (٧)
بن غوريون والعرب
ترجمة: غازي السعدي

٩٢ـ الحافلة رقم ٣٠٠
و«فضيحة الشين بيت»
ترجمة واعداد: احمد بركات

٩٣ـ اه يا بلدي !!
روايـــه
أكرم النجار

٩٤ـ من رواد النضال الفلسطيني
في فلسطين ١٩٢٩ ـ ١٩٤٨
الكتاب الأول
زياد عوده

٩٥ـ من رواد النضال الفلسطيني ١٩٢٩ ـ ١٩٤٨
الكتاب الثاني
زياد عوده

٩٦ـ الحركة العمالية العربية في فلسطين
سليم الجنيدي

٩٧ـ الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (١)
سلاح الجو الاسرائيلي
بقلم: زئيف شيف
ترجمة: دار الجليل

٩٨ـ الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٢)
سلاح الاستخبارات الاسرائيلي
بقلم: عوديد غرانوت
ترجمة: دار الجليل

٩٩ـ ايـــام الصبـا
صورة من الحياة وصفحات من التاريخ
يوسف هيكل

١٠٠ـ معجم المصطلحات الصهيونية
اعداد: افرايم ومناحم تلمي
ترجمة: احمد بركات العجرمي

http://www.al-maktabeh.com

١٠١ـ حرب سيناء ١٩٥٦
تصورات اسرائيلية
ترجمة بدر عقيلي

١٠٢ـ وجه قبيح في المراة
بقلم البروفسور ادير كوهن
ترجمة غازي السعدي

١٠٣ـ تاريخ ما اهمله التاريخ
عبدالهادي جرار

١٠٤ـ الاعلام الفلسطيني
د حسين ابو شنب

١٠٥ـ النزاع العربي ـ الاسرائيلي
بين فكي كماشة الدول العظمى
بقلم موشه زاك
ترجمة دار الجليل

١٠٦ـ تحت السياط
فاضل يونس

١٠٧ـ «الغضب»
اكرم البحار

١٠٨ـ جلسات في رغدان
د يوسف هيكل

١٠٩ـ منجل في النجمة السداسية
(التجسس السوفياتي في اسرائيل)
ايسر هرائيل
ترجمة بدر عقيلي

١١٠ـ اشكالية الديمقراطية والبديل
الاسلامي في الوطن العربي
خالد الحسن

١١١ـ صرخة في وجه العالم
«اليوم الانتفاضة»
اعداد دار الجليل للدراسات
والابحاث الفلسطينية

١١٢ـ الاستخبارات والامن القومي
اعداد المقدم إحتياط تسفي عوفر
الرائد افي كوبر
ترجمة دار الجليل

١١٣ـ الاحزاب والحكم
في اسرائيل
غازي السعدي

١١٤ـ ربيع الحياة
د يوسف هيكل

١١٥ـ قبس من تراث
المدينة والقرية الفلسطينية
صباح السيد عزازي

١١٦ـ اشتعالات حمدان
مجموعة قصصية
اكرم النجار

١١٧ـ شخصيات صهيونية (٨)
رسائل بن غوريون
ترجمة الاميرة دينا عبدالحميد

١١٨ـ شخصيات صهيونية (٩)
حيـاتـي
جولدا مئير
ترجمة دار الجليل

مكتبة المهتدين الإسلامية

١١٩ـ من القمع إلى السلطة الثورية
قدري أبو بكر

١٢٠ـ الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٣)
سلاح الهندسة
عمي شامير
ترجمة: دار الجليل

١٢١ـ الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٤)
سلاح المشاة
نتان روعي
ترجمة: دار الجليل

١٢٢ـ هذه قضيتك يا ولدي
سليم عبدالعال القزق

١٢٣ـ معجم الأمثال الشعبية الفلسطينية
فؤاد إبراهيم عباس
أحمد عمر شاهين

١٢٤ـ صناعة قرارات الأمن الوطني في اسرائيل
ترجمة : بدر عقيلي
دار الجليل للنشر
والدراسات والأبحاث الفلسطينية ـ عمان

١٢٥ـ قمع شعب
شهادات ميدانية مشفوعة بالقسم
ترجمة واعداد: بشير شريف البرغوثي

١٢٦ـ جليلـة
وهج في جذور الانتفاضة
روايـة
أكرم النجار

١٢٧ـ اسلحة وارهاب
وجهات نظر اسرائيلية في ثلاثة ابحاث
ترجمة: دار الجليل

١٢٨ـ حدود (ارض اسرائيل)
تأليف: البروفيسور موشيه برافر
ترجمة: بدر عقيلي

١٢٩ـ المثلث الايراني
ـ الكتاب الثاني ـ
دراما العلاقات الايرانية الاسرائيلية
الامريكية
تأليف: شموئيل سيجف
ترجمة: دار الجليل

طبع في شركة الشرق الأوسط للطباعة ـ تلفون ٨٩٤٩٤٠/٨٩٤٩٤١ ـ ص.ب ١٥٢٨٦ ـ ماركا الشمالية / عمان / الأردن

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com



مكتبة المهتدين الإسلامية



http://www.al-maktabeh.com



مكتبة المهتدين الإسلامية